

T R O V A N T S

د. حنان لاشين

ترو فانٹس

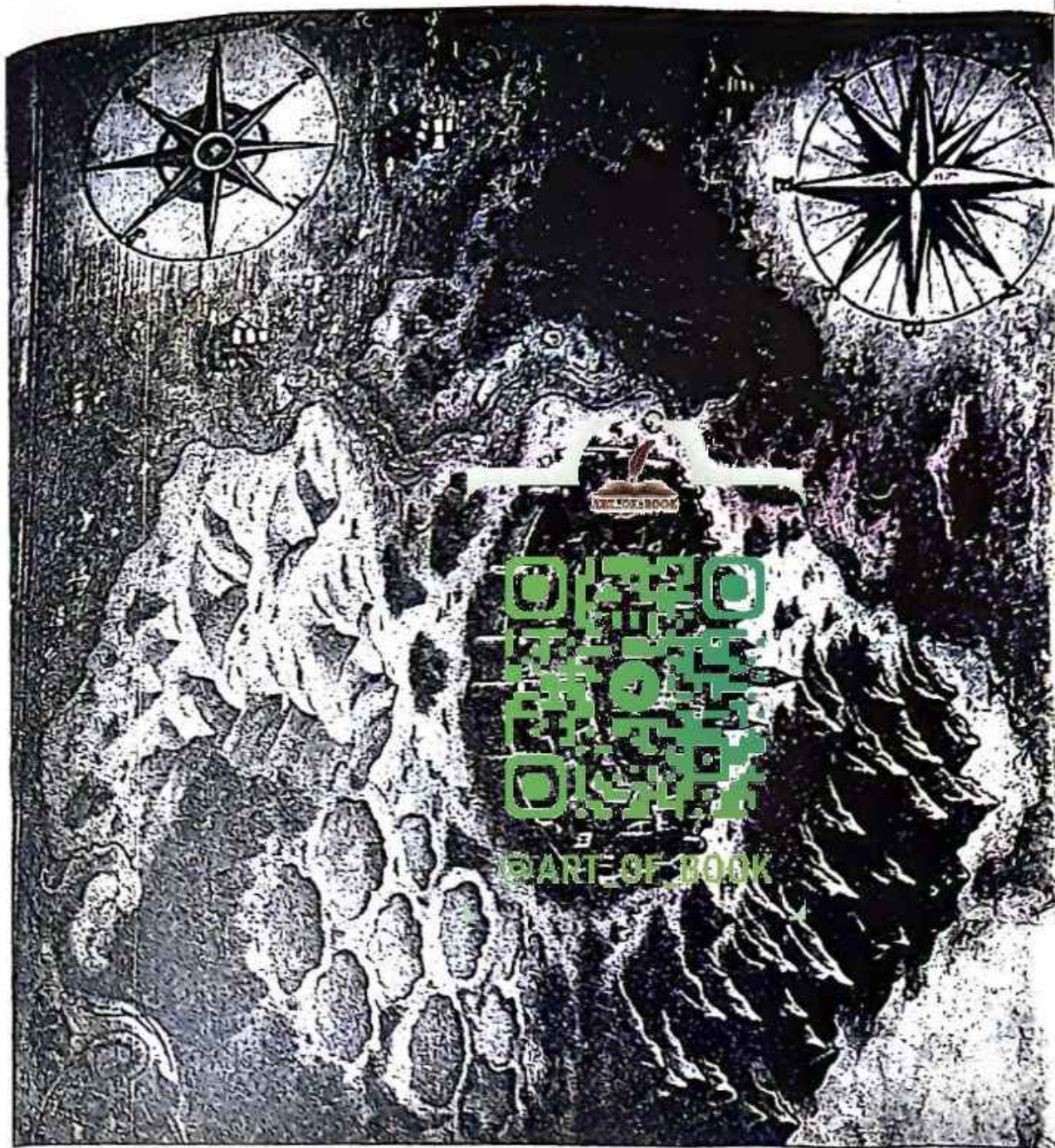


رواية





@ART_OF_BOOK



تروفانتس



© ART OF BOOK

تذكرة قطار

وجهة السفر: تروقاتنس

اسم المسافر:

الراية فحرا
بنو قيت عصير الكتب

التوقيت:

1440

رقم التظار:





@ART_OF_BOOK

إهداء

إلى العالقين في المتهات،
بين بدايات لا تُنسى،
ونهايات لم تكتمل.



@ART_OF_BOOK



@ART_OF_BOOK

في ثنایا أطیاف سرمديّة، حيث تسكن أسرار الغمام...

نفضت الشّمس غبارها الذهبیّ على أسقف البيوت فبرزت المدينة في أبهى حلّة وكأنّها نُحتت من حلم قديم ثمّ انزلت من شقّ في السّماء، الأضواء الملوّنة تتراقص على سطح البحيرات الوردیّة، الطيور تغرّد في انسجام فوق أشجار الصّنوبر، النّهر الفضی یرسل ماءه كسيف من لجین یقطع الطريق على الطامعين. على الحواف القصیة تلوح الجبال ككتل من الصّمت المتراكم لتحرس الحدود وعلى رؤوسها تيجان من فضّة، أزهار البساتین تنفّح عطرها في الأجواء، السّهول تلمع كصحائف من الضوء، والأودية تبدو أعمق مما ینبغي، ليس لأنّها تشقّ الأرض، بل لأنّها تشقّ المعانی، الطرقات تتشعب من قلب المدينة كالشرايين وكأنّها تختبر ذاكرة العابرین. البحر یرسل أمواجه لتلثم الرّمال وتطرح سؤالاً جدیداً على الشّاطئ كلّ يوم، كلّ شيء في المدينة یحتفل، اليوم عرس الأمير الذي یحبّه الجميع.

تعثّر الفرّح على عتبة دار العروس ولم یدخله، كان هناك من سبق ودخل وغدر فقتل، تعالت الصیحات ألماً من الطعنات، ثمّ سكن كلّ شيء، وخرج الغجر من البيت، وهي في خبثها وخدرها ترتجف من هول ما رآته بعینيها، وضعت یدها على فمها لتكتم صراخها، والدموع تهمي من مقلتيها. شلت أركانها وبقيت ساكنة كتمثال من الشّمع ینصهر من

عينيه في صمت حتى أزاح ذلك الشاب الأنور الوجه الستار عن خبئها
وكأنه خرج للتو من أسطورة ليبحت عنها بقلبه قبل عينيه، همس لها
ليشجعها وهو يمد يده نحوها ليخرجها من غرفة سرية تحت بيتهم كان
يعلم بوجودها من أبيه، فهو صديق مقرب لأبيها، حيث كانت تختبئ
بثوب زفافها من ذلك الغجري الذي داهم بيتهم مع رجاله بلا استئذان
ليختطفها وعندما لم يجدها قتلهم جميعاً! كرر الشاب همسه وطفق
يتعجلها قبل أن يعود الغجر للبحث عنها، قبضت يدها لصدرها عندما
تذكرت العهد الذي بينها وبين أبيها ألا يمسه رجل أبداً إلا في الحلال،
بينما خرجت ولملمت أطراف رداؤها، وقف الشاب وقلبه يختلج في
صدره، كانت تعلم أنه يحبها فقد أدرك أخوها بفراسته أن ذلك الشاب
متيم بها وأخبرها، فمال قلبها إليه وصار هذا سرها الدفين. سألته بصوت
كسره الحزن ونحله البكاء: «هل بقي أحد منهم على قيد الحياة؟»، نكس
رأسه فعلمت أنها فقدتهم جميعاً فشرعت تبكي بحرقة من جديد، شق
قميصه لتربطه على عينيه حتى لا ترى أشلاءهم الممزقة، وضعت يدها
على الجدار وسارت وهي تتحسس خطواتها، وهو يزيح عن طريقها
جثة تلو الأخرى، مرّت من بين دماء ذويها وهي تكتم أنينها، عندما
خرجوا من البيت هرولاً تجاه البستان القريب، خلعت الرباط عن عينيه
وطالعه بعين حسيرة ووجه مخضب بالدموع، خرجت جوقة من الأنين
من صدرها، حدّثته بالعبرات التي لا تعرف الحروف والكلمات، فانساب
إليه حزنها دون أن تنبس بينت شفة، كانت تشعر بالتيه ولا تصدّق أن
أباها قد مات للتو، وأن أشقاءها قُتلوا تباغاً فداء لها، أي مصيبة تلك! وأي
فاجعة ألمت بها!

لم يكن ذنبها أنها جميلة! لم تختتر تلك الملامح العذبة التي تخطف
قلب كل من ينظر إليها، حتّى الملكة عندما رأتها وهي تسير في موكبها
بُهِتت بجمالها الأخاذ فألقت عليها وشاحها الملكي وأصرّت على تزويجها

لابنها، أما ابن الغجر فقد عشقها حد الجنون فقتل وذبح ومضى. تلفتت نحو دار أبيها وشملته بعينيها وكأنها تودعه للمرة الأخيرة، دار بينهما حديث قصير كان بمنزلة دثار لقلبها المهترئ، وانسابت معه بين أشجار الغابة كيمامة رهيبة ضالة، فقد عقدا العزم على الذهاب إلى الأمير في قصره في الحال. بينما القتال يدور في ساحات المدينة أدارت الشمس وجهها وغربت، أريقت الدماء هنا وهناك فارتجت الأرض، وكان زلزالاً يرجرجها، ثم هبت عاصفة شديدة حملت كل شيء معها، الأحجار، والأشجار، والكثير من الناس، وفرقت كل حبيب عن حبيبه.



الإسكندرية

كان الحلم يذوب من بين أصابعي، انشق الحجاب الذي يغلف روعي فقامت من الفراش وتركت على الوسادة ظلال أحلامي الباهتة بقاء والدي التي أترقبها كل ليلة كما يترقب الظمان قطرة الماء، أيقظتني «مديحة» بصوتها المزعج، فتحت عيني فوجدتها تلصق وجهها بوجهي فأبعدتها واستدردت، لن أتركها لتخدعني بعينيها الخضراوين. أشعر أنها مكتئبة بسبب زيادة وزنها بعد الحمل ولكن ما ذنبي أنا! كما أن شهيتها لتناول الطعام قد ازدادت، صارت تأكل الأخضر واليابس ولا تشبع أبداً! بقيت أيام قليلة وستضع حملها بإذن الله، وهذا يعني المزيد من الإزعاج بالبيت، ابتعدت وهي تؤرجح قوامها الممتلئ يميناً ويساراً وعندما وقفت أمام باب الغرفة حانت منها التفاتة نحوي بكبرياء الأنثى ورمتني بنظرة عامرة باللوم والعتاب، وكان لدي ما يكفيني بل ويثقل كاهلي من اللوم والعتاب لنفسى، فاضطرت إلى النهوض لأعد لها الطعام وأبدي الاهتمام وأحدثت بصوت شاعري دافئ ليوحي بتأثري لضعفها ومراعاة

لحالتها المعنوية، ولكي أشبع عاطفتها فهرمونات الحمل تؤثر سلبيًا على مزاج الحامل، يا الله!

بعض الرقائق المجففة، علبة من التونة، صحن للحليب وآخر للماء، ربّتُ رأسها ومسحت على ظهرها، تناولت طعامها وعادت للنوم على الأريكة، يا لها من قطعة كسولة! منحتني المزيد من المواء امتنانًا لما فعلته، لولا وجود تلك القطعة بمنزلي لأصبت بالجنون، فهي حقًا تخفف عني كثيرًا، ودّت أُمي أن تطلق عليها اسمًا لطيفًا يشبه أسماء القطط المعتادة، «بوسي» أو «توتي» أو «مشمشة»، لكنني قررت أن أطلق عليها اسم «مديحة» لأنه قريب من اسمي، ماتت أُمي وبقيت «مديحة» لتحتل أريكتها.

كان عبق البخور الذي اعتادت أُمي أن تشعله كل مساء لا يزال عالقًا بالغرفة، في الممرّ الضيق وأنا ذاهب لغسل وجهي لمحت خطوات أبي مطبوعة على سطح البلاطات الملونة، وكنت حريصًا ألا تُمحي، يُخال إليّ من آن لآخر أن صوته الرخيم وهو يُرتل القرآن فجر الجمعة يتردد صداه في الصالة الواسعة فأفزع إليها لأفتش عنه فيردني نورها الخافت ويهمس لي أنني كنت أتوهم. ألقيت بجسدي على الأريكة التي غطتها أُمي بقماش مزخرف طرّزته بيديها، مررت بأصابعي حيث كانت تُقبّل القماش كلما عقدت غرزة لتقطع الخيط بأسنانها الشفيفة فرجف قلبي، فتشت بأنفي عن رائحة أنفاسها فيه فلم أجدها، الخيوط المفككة عند الحافة، التي كانت تنوي إصلاحها، أخبرتني أنها لن تعود مرة أخرى.

لا يزال المذياع القديم واقفًا على الطاولة القريبة كجنديّ عجوز؛ بصمات أصابع أبي لا تزال مطبوعة على أزراره، حيث كان يأتي حاملًا لكوب الشاي من المطبخ ثم يجلس بجواره وينصت باهتمام شديد لبرنامج الإذاعي المفضل. قررت إعداد كوب من القرفة فدخلت المطبخ

حيث كانت أُمِّي تصنع الطمأنينة وتطعمها لنا، رائحة النعناع الجاف عانقت أنفِي، علبة السكر التي لم تُملأ منذ رحيلهما طالعتني بشوق من علِّ، الكوبان اللذان اعتادا استخدامهما كل صباح راقدان على الرِّف يُحدِّقان إلى السَّقْف، لمست أحدهما فشعرت ببرودته، كأنَّ الفراغ بداخله نال من قلبه كما نال من قلبي، أمسكت به وصببت فيه القرفة الساخنة لعلَّنا نتدفأ بالذكريات معًا. عدت إلى الأريكة وبقيت ما شاء الله لي أن أبقي وأنا صامت وكلُّ خلية في عقلي تتثرثر، ثمَّ عدت إلى النوم فقد كان ملاذًا أجد فيه السَّلام الذي لم تمنحني إيَّاه اليقظة، وأفقتُ في المساء.

خطوات وثيدة على الدُّرج، خشخشة مفاتيح، صرير باب يتحرَّك ببطء، ثمَّ صوت جاري الجَهْوَرِيُّ وهو ينادي ابنه قبل أن يُغلق الباب خلفه، هذا ما كُنت أسمعُه يوميًّا في المساء منذ أن انتقل هذا الرَّجل إلى بنايتنا القديمة. لم يُحبني جاري هذا قط، فهو لم يبتسم في وجهي ولو لمرة واحدة، وكيف يُحبني وأنا أبدو في هيئتي الرُّثَّة تلك، وأنفي العجيب يُطلُّ من فوق شاربي الذي صار يُشبه فرشاة التنظيف، عندما عرَّفته بنفسي لم يُصدِّق أنني طبيب بيطريُّ، بل لم يُصدِّق أنني في أواخر الحقبة العشرينية من عُمرِي! ربُّما لديه الحقُّ في هذا فهيتني غير المرتبة بشعري المجعد الكثيف، ولحيتي التي شعنت، بالإضافة إلى ملابسِي غير المتناسقة تُضفي على عُمرِي الحقيقي عشرة أعوام إضافية.

اليوم قررتُ أن أذهب إلى الحَلَّاق فقد دعنتني خالتي لحفل زفاف ابنها الذي يصغرني بخمسة أعوام! لقد تخرَّج «مروان» في كُلية التربية وها هو مقبل على تكوين أسرة، ما زلت أذكر ذلك الماكر وهو يسخر من دخولي كلية الطب البيطري، كان حينها غلامًا لم ينبت شاربه بعد، لا بدُّ أن ألبِّي الدُّعوة فهو غالٍ على قلبي. كنت أرزح تحت وطأة الوحدة وجاءت دعوة خالتي لتنتشلني مما أغرق فيه من كآبة، عليَّ أن أُسرع

فمُوعِد القطار بعد الفجر مباشرة حيث إن حفل الزفاف بعد غدٍ، سيكون نهارًا في حديقة شهيرة، وكانت تلك هي المرة الأولى التي سأحضر فيها زفافًا من هذا النوع، وخالتي ترجوني أن أكون معهما قبلها بيوم كامل لأتابع معه كل صغيرة وكبيرة، فـ «مروان» ليس لديه أشقاء وقد توفي والده وهو في الخامسة من عمره، ما زلت أذكر صوت بكائه حينها وأنا أحتضنه وقد بلل كتفي بدموعه ثم استسلم لحزنه ونام بين يديّ، حتّى أنا كُنت صغيرًا وهزّني هذا الموت بشدّة! ولكن لا بأس، حان الوقت لكي يسعد قلبه.

تفحّصت ساعتني وكانت العاشرة والرّبع مساءً، والحلاق في العادة يُغلق صالون الحلاقة عند العاشرة والنّصف مساءً، كدت أراجع فقد نشأت علاقة وطيدة بيني وبين لحيتي، حتّى كتلة شعر رأسي صارت كوسادة صغيرة أستند إليها أحيانًا وأنا على مقعدي، على أيّ حال سأجرب، لقد تأخّر هذا القرار جدًّا حتّى إنني صرت أضلّ الطريق إلى فمي لأضع فيه اللقمة، فلحيتي وشاربي المتعانقان صارا يُشبهان حشائش «السّافانا». خرجت مهرولًا على الدّرج، ثمّ بدأت أتجوّل في الشّارع الخالي من المارّة وأنا أتعجّب من سكون الحيّ، وكأنّ الموت حلّ بينايتنا أوّلًا بعد موت أبي وأمّي ثمّ بدأت الرّوح تُنتزع من أطراف حيّنا بالتدريج. وصلتُ إلى الحلاق وكان على وشك إغلاق الباب لينصرف، وعندما رأيته رُحّب بي على مضض، شعرت أنّه يرتاب منّي كما يرتاب أغلب سُكّان الحيّ، لا ريب أنّهم يرونني مجنونًا أو ملبوسًا.

لم يكن صالون الحلاقة ذاك مجرد دكان صغير في الحيّ، بل كان أشبه ببوابة بين عالمين، بينما واجهته الزجاجية تعكس تفاصيل الشارع كبلورة سحرية لامعة، يتدلّى على بابه مصباح له ضوء أصفر يرتجف كلّما عبر زبون جديد من تحته وكأنّه يصفّحه. الهواء في الداخل مشبّع برائحة كريمات الحلاقة ودهانات الشّعر والصابون المعطر، ونفّس

بشريّ محبوس بين الجدران منذ سنوات بعيدة، المرايا المعلقة على الحائط لا تعكس الوجه كما هو، بل تضيف إليه ظلًا خفيًا لا يشبه صاحبه، كأنّها التقطت في أعماقها ملامح من جلسوا أمامها على مدار سنين مضت، لتلقي بظلالهم على وجه الزائر الجديد بلا استئذان. كان صوت المذيع القديم في الركن ينساب بآيات من القرآن ويملأ الفضاء فلمست الطمأنينة صدري، جلست على كرسيّ الحلاقة فأصدر أنينًا خافتًا وكأنّه يتألم، حين اقترب الحلاق بمقصّهِ من رأسي خفتت كلّ الأصوات حولي فجأة، وكأنّ هناك سحرًا غامضًا يسري في هذا المكان يجعلك تستسلم وتشعر بالاسترخاء وتبدأ في إجابة جميع الأسئلة التي توجه إليك، التي يطرحها عليك الحلاق وعيناه تلمعان في ذكاء ساكن، فيبدأ بجرّ الكلمات من فمك فتبوح بكلّ شيء وتعتزف، وقد تفتح عينيك من آن لآخر لترسل نظرة سريعة لصور قديمة معلقة على الحائط لرجال لم يعد لهم وجود، بدأ يحصد شعري كما تُحصد محاصيل القمح في الحقول، أغمضتُ عيني ومرّت لحظات خاطفة من حياتي في خاطري، تخرّجي في كلية الطبّ البيطريّ، فترة الخدمة العسكرية، الحصول على شهادة «الماجستير»، وفاة أبي وأمي، الكثير من الحزن، هجرة أخي الأكبر مع زوجته وأولاده إلى أمريكا، المزيد من الألم والوحشة والوحدة، الصّمت المطبق، وأيام طوال لا أحد يطرق فيها بابي، اكتئاب عانيت حتّى أجتازه وأظن أنّني لم أفعل، ما زالت قدماي مغروزتين في مستنقع الكآبة، لكنني اليوم أشعر ببصيص حماس يدبّ في جسدي ولكنه يسري بسرعة السّلحفاة.

كدت أغرق في النّوم لولا أن الحلاق فرّق بإصبعيه بجوار أذني لينبّهني، ففتحتُ عيني لأرى وجهي في المرأة بعد حلاقة شعر رأسي ولحيتي، يا إلهي! لم أر تلك السّحنة منذ شهور، للأسف برزت أذناي مرّة أخرى، كان هذا هو الشّيء الوحيد الذي ورثته عن أبي، أذنين بارزتين

تسببتا لي في الكثير من التئمر من رفاق الدراسة وبخاصة في المرحلة الإعدادية، بالإضافة إلى أنفي بالتأكد. لاحظت ابتسامة الحلاق، فقد أخرج للتو هذا الشاب المخبأ خلف كتلة الشعر التي أزالها للتو، قال بعفوية:

- حمدًا لله على السلامة يا دكتور، لماذا كنت تختبئ منّا؟

لا أدري هل كان يقصد اختبائي بالمنزل، أم اختبائي خلف شعر رأسي ولحيتي. يبدو أن اعتزالي بالبيت لفترة طويلة بعد أن قدّمتُ استقالتني وعزوفي عن الذهاب إلى عيادتي البيطرية جعلاني كالحاضر الغائب، مُسافر على الرغم من بقائي بوطني ومسقط رأسي، أضاف وهو يطالعني بفضول:

- تزوّج يا دكتور «ممدوح»، زوجة تُحبك ستُخفف عنك كثيرًا، أنجب الكثير من الأولاد.

حرّكت رأسي يسارًا وأنا أتأمل وجهي في المرآة قبل أن أقول له:
- بأنفي هذا؟

هزّ كتفيه وأجابني بثقة:

- وما به أنفك!

مرّ بإصبعه على انحناءة أنفي البارزة وقال وكأنه يتفحص تحفة فنية:

- إنّه أنف قائد، أسألني أنا، مررت بالكثير من الأنوف.

- وبأذنيّ هاتين؟

أغمض عينيه وقال بهيئة الخبير الفاهم:

- بالتأكيد! الأذان البارزة دليل على الذكاء.

راقني لطفه معي، استدار مبتعدًا فهمست قائلاً ويبدو أنّه سمعني:

- من سترضى بالزواج بي؟
- عُد إلى عملك أولاً، ثم رتب أمورك، وأخبرني حينها وسأرشح لك عروساً مناسبة من بنات الحي.
لم أفتح فمي، ليس لأنني لم أرغب في الكلام معه، ولكن لأنني لم أقدر، فقد كان الحديث في هذا الأمر ثقيلاً على نفسي. قال أخيراً وهو يهز رأسه في أسى وينفض المنشفة التي كانت بين يديه:

- رحم الله والديك.
وددت لو عانقني، لم يُعانقني أحد منذ فترة طويلة، وكُنت هشاً وخاوياً، رفض الحلاق أن يأخذ مني المال، رفع عينيه وأطال النظر إلى وجهي وقال:

- إن كنت قد نسيت فأنا لم أنس قط!
فشلت محاولاتي معه، تركت المال على طاولة جانبية وخرجت مسرعاً لأختبئ بين جدران بيتي مرة أخرى، مرّت تسعات الهواء البارد على عنقي ووجهي فشعرت بامتنان لها، لا بأس، تلك هي البداية.
التقيت جاري في الحي «جلال»، شاب لطيف وروحه مرحة، تأبط ذراعي وسار معي فأنسنني قليلاً، قبل أن يفارقني أمام البناية التي يسكن بها أخبرني أنه صار يعمل في توصيل الناس بسيارته الخاصة وأعطاني رقم هاتفه لأقترحه على من يبحث عن سيارة أجرة، وقال إنه يستطيع توصيل أي شخص إلى أي مكان يطلبه، وعده بفعل هذا وأكملت الطريق إلى بيتي.

بينما أحتُ الخطى لاحظتُ اتساع بنطالي، يبدو أنني فقدتُ بعضاً من وزني، لكنني ولله الحمد ما زلت أحتفظ بلياقتي البدنية على الرغم من انقطاعي عن ممارسة الرياضة التي كنت أمارسها بانتظام. وصلت إلى البيت وبعد دقيقتين كُنت أقف والماء الساخن يهطل على رأسي

وكتفي بالحمام، وددتُ لو غسّلت قلبي وعقلي المُتعبين، ليتني أستطيع
فركهما بالماء والصابون حتّى تُزال أدرانهما، أو أعصر عقلي عصراً
فتخرج الذكريات منه بسهولة ويسر، ثم أنفضه بقوة لتتبعثر أحزاني
في الهواء كرزاذ الماء، وأنشره ليتلاعب الهواء بتلافيفه ويجري بينها،
ليت هذا يحدث.

مرّت ساعة ثقيلة، والصمت يتكاثف حولي، اشتاق إلى أبي وأمي
وأخي، لدي حنين شديد لأصواتهم وأنفاسهم، أشعر بالفراغ والخواء
وكأنني في صحراء مترامية الأطراف وموحشة، دقّ جرس الباب، كنت
أعلم أنّها جارتنا وعلى نحو مألوف ستضع علبة بلاستيكية بها أيّ شيء
مما أعدّته من طعام، وكالعادة أفتح الباب فتطلُّ برأسها من خلفه على
استحياء ومن بين تجاعيد وجهها تطل ابتسامة فتَهزُّ رأسها وأهزُّ رأسي
وأعود إلى قوقعتي، هذه المرّة استأذنتها لتستضيف «مديحة» حتى
أعود من زيارة خالتي لأنها على وشك الولادة فوافقت وحملتها معها.
أغلقت الباب وعدت إلى غرفتي، هبّت رياح هزّت النُجود^(١) المُنسدلة،
وحركت دفتي النافذة، كانت السّماء ملبّدة بالغيوم قبل وقت الغروب
اليوم، لا ريب أنّها ستُمطر الليلة، أطفأت الأضواء وتركت النوافذ مفتوحة
لتسرب ضوء القمر الشّاحب، مع بصيص من ضوء مصباح الشارع الذي
يرتجف باستمرار، وسريعاً ما اعتادت عيناى الإضاءة الشّاحبة، انسابت
الرياح ودارت بأركان البيت، كُنْتُ أترقب رائحة التُّراب المبتلّ بزخات
المطر، وعبق الشّتاء الذي يُذكّرني بأخي. توجّهت إلى فراشي وكُنْتُ قد
أعددتُ لنفسي كوباً من القرفة الساخنة، كدت أمدُّ يدي لأتناوله وأرشف
منه أوّل رشفة عندما بدأ المطر يهطل بغزارة على سقف البناية، وكان
الصّوت قوياً هذه المرّة، فأنا أقطن في الطابق الأخير منها، أضاءت

(١) نُجود: سُودٌ تُعلّق على جدران البيت ليُزيّن بها.

أرضية غرفتي المظلمة بضوء البرق الذي شق صفحة السماء فجأة
فداهمتني الذكريات. منذ سنوات وعندما كنا صغارا، كان أخي الأكبر
دائما يُناديني لنصعد معا إلى سطح البيت عندما تسقط الأمطار، وكُنَّا
نقف معا لنستقبل الماء بصدور مفتوحة، أبسط ذراعي كما يفعل أخي
وأرفع وجهي نحو السماء وأغمض عيني وأخرج لساني، نضحك معا
بصوت عالٍ ونقهقه، تُغرقنا السماء بمائها ونعود وثيابنا تقطر مخلقة
غدراناً صغيرة على الدرج، ثم ندلف شقتنا ونحن نختلج من شدة البرد،
فتوبخنا أمي لأننا قد بللنا الأرض وما عليها من أبسطة، وتُردد وهي
غاضبة أننا سنُصاب بالحمى، فنبدل ملابسنا ويتكور كل منا في فراشه
والسعادة تغمرنا، أحيانا كُنَّا نمرض بالفعل وعلى الرغم من هذا كُنَّا
نُكررها، فعلناها معا ونحن صغار، ثم قبل دخولنا الجامعة ثم ونحن
ندرس فيها، ثم بعد تخرجنا، وحتى قبل أن يُسافر أخي مع زوجته
وأولاده الشتاء الماضي، وكأنها طقوس الوداع. أغمضت عيني لأجتر
الذكريات، ليت أخي هنا الآن، قررت أن أصعد إلى السطح وأقف تحت
المطر، لعل قطراته تُزيح الهم عن صدري. سعدت بالفعل ولم أبال
وقد خرجت منذ دقائق من حمام ساخن، بسطت ذراعي ورفعت وجهي
نحو السماء فغمرني المطر وابتلت ملابسني كلها، لمع البرق المعقرب
في عرض السماء كقلم غضوب يشق صفحة الليل، ثم راحت الومضات
تنحني وتتقوس كأنها تُمسك بيد خفية، تخط في العتمة حروف كلمة
تتلاها للحظة ثم تتلاشى، وكأنه يحاول تذكيري بسر كدت أنساه!

حاولت قراءتها قبل أن تختفي!

ترو... ترو...

عاد يُكررها، حاولت جمع حروفها لأنطقها لكنني فشلت، لا ريب أنني
أتوهم! بعد قليل توقف المطر وعم السكون، نزلت من السطح وعدت

إلى بيتي ورأسي عامر بالذكريات، وسريعاً ما ناداني الفراش لأغرق في
سُبَات عميق.



محطة القطار

الرابعة فجراً، كانت محطة القطار خالية إلا من قلّة دفعتهم ظروف
عملهم ودراستهم للسفر في هذا الوقت، وأنا ممن يفضلون السفر في ساعة
الفجر، فالزحام يكون أقلّ والضجيج أخف، ونظرات الفضول تتلاشى،
فلا أحد مشغول بمراقبة الآخرين، وعندما يهتزّ القطار يستسلمون
للنوم سريعاً. البرد قارس! كيف سيكون حفل زفاف «مروان» في تلك
الظروف؟ ماذا لو أمطرت مرّة أخرى؟ لا ريب أنّه مجنون ليعدّ زفافه في
مكان مفتوح في فصل الشتاء! ألقيت بجسدي على أحد المقاعد بعيداً
عن الآخرين، بدأ ذلك الشعور المقيت يزحف إلى أوصالي مرّة أخرى،
وكانّ أكياساً من الزّمال قيّدت بساقي، لماذا سأسافر الآن؟ لا أرب
في لقاء أحد، سيسألونني لماذا لم أتزوج، ولماذا قدمت استقالتني! وما
مشكلتي! سيفتشون في نفسي وينقبون عن أجوبة لأسئلتهم الفضولية.
حسناً، لن أسافر وسأعود الآن إلى غرفتي وفراشي، وقفت بصعوبة
وكانني في الستين من عمري، أدركت أن أخطبوط الاكتئاب يزحف
بأذره على عاتقي من جديد، حملت حقيبتني على كتفي، ألقيت
بتذكريتي خلف ظهري وقبل أن أخطو خطوتي الأولى أتاني صوت عميق
من خلفي، كان ثمة رجل يسرع نحوي وهو يلوح بيده قائلاً:

- انتظر. لقد سقطت منك التذكرة.

التفتُ فوجدت رجلاً أشيب الشعر بيد أنّه مفعم بالحياة، كان مديد
القامة ونحيفاً، يرتدي قميصاً سماوياً اللون وفوقه سترة زرقاء، ويتوشّح

بوشاح ملون، بينما إطار عويناته يبرق وهو يقترب، كان يعكس الضوء
على زجاجها ألوانًا عجيبة، وقف أمامي ودفع عويناته على أرتبة أنفه
بطرف إصبعه وقال وهو يتمعن في وجهي:

- تفضل.

- لا أريدها.

- سيفوتك القطار!

- لن أسافر.

قال وهو يغرز عينيه في عيني:

- قد لا تجد قطارًا آخر.

- وإن كان!

- القطارات لا تنتظر ركابها، نحن من يجب علينا أن نتأهب وننتظر
وصولها.

- ما عدت أرغب في السفر.

رفع حاجبيه هامسًا:

- ما زلت في ريعان شبابك يا بني! ما الذي فعلته بك الأيام؟

- لا شيء!

صمت هنيهة ثم قال:

- حتمًا ستنتظر أن يتغير ما حولك وأنت لا تبرح مكانك؟

دس التذكرة في يدي ومضى مسرعًا، علقت عيناى به وهو يبتعد،

استدار وصاح قائلًا:

- إياك أن تلقيها، سافر لتعثر على نفسك من جديد.

شعرت بثقل في يدي فتأملت التذكرة، فوجدتها وقد استُبدِلَ بها بطاقة من الورق المقوّى، عليها صورتني واسمي وبجوارهما مكتوب: «تروقيانتس».

غريب!

ما هذا!

كيف حصل ذلك الغريب على صورتني؟

بل كيف عرف اسمي!

وما هي «تروقيانتس»؟

رأيتُه يتوجّه نحو مقطورة قطار متهالكة وقد علاها الصُّدأ، ترسو عند آخر الرصيف كحيوانٍ خرافيّ يختبئ تحت جناح الظلام الدامس، طلاؤها المقشور يكشف طبقاتٍ من أزمنةٍ تليدة، على نوافذها يلمعُ غبارُ فضيٍّ تخاله رماد نجمٍ قد انطفأ للتوّ، كان هناك أربعة أرقام مضيئة محفورة على هيكلها وترتعش وكأنّها شيفرة تركها أحدهم لغرض ما، ١٤٤٠ ترى ما الذي يعنيه هذا الرقم! كما لو أنّها وُجدت هنا من تلقاء نفسها لتحمل سرّاً غامضاً، حين اقتربت منها أصدر بابها صوتاً أقرب إلى شهقةٍ حذرة، تحسب أنّها تتنبّه لمسافرٍ جديد! صحت في ارتياب:

- انتظرا من أنت؟

قفز برشاقة وتعلّق بباب المقطورة ودلف بخفة، هرولت نحوه لأسأله عن تلك البطاقة العجيبة وأسترد تذكرتي، وعندما وطئتها بقدمي وصعدت خلفه تبدّلت الأجواء! انبثق ضوء قويٌّ أعمى عيني وكأننا صرنا وسط النهار، واهتزَّ كلُّ شيءٍ حولي وتحركت المقطورة فجأة! وانسحب العالم خارج النوافذ مثلما تُسحب الأوراق من بين دفّتي كتاب، فضربت صاعقة الخوف صدري.

كان جسدي كله يختلج وقلبي يرتج بين أضلعي، توقّف عقلي عن العمل، كادت عيناى تخرجان من محجريهما، فأنا على يقين أنني دلفت مقطورة قديمة ومتهاكة، وها هي الآن تنطلق بأقصى سرعة والحقول الخضراء تمتد أمام عيني إلى ما لا نهاية، جفّ حلقى تمامًا، ازدردت ريقى بصعوبة وسألت بصوت يرتجف:

- أين أنا؟

التفتُ فلم أجد الرجل الغامض الذي التقيته، فتشت بعيني فلم أجد أحدًا معي، كانت المقاعد كلها شاغرة، داهمتني نوبة انفعال هستيري وظللت أصرخ وأستغيث حتى أحرقني حلقى، أخرجت رأسي من النافذة وفوجئت أنها ليست مقطورة واحدة بل هو قطار طويل انبثق من شرخ خفي في الهواء ليلتهم المسافات قبل أن أفهم ما يحدث!

أطلق القطار صفيحًا فانسحق قلبي بين أضلعي وعدت إلى الصراخ دون جدوى، لفظ سحابة كبيرة من الدخان فأدركت أنه يسير بالفحم فازدردت خوفًا وحيرة، جلست على أحد المقاعد وتشبّثت بحقيبتي أطلب منها الأمان، أخرجت هاتفى الجوال فوجدته عاطلاً، تفحصت ساعتى وإذا بعقريها جامدان وكأنّ الزمن يقف بي على رأس أحدهما فعلمت بين ثانيتين.

ما الذي يحدث؟

هل أنا في حلم!

أين الرجل؟

وهل هناك آخرون في المقطورات الأخرى؟

كان هناك ضباب كثيف لكنّه لم يحجب ضوء الشمس وسريعًا ما تلاشى ذلك الضباب لتظهر السماء مكتظة بالغيوم البيضاء كندف القطن تزاحم بعضها بعضًا، بدأ جسدي يتمايل مع القطار وهو يسير،

والصَّفير يعصر قلبي عصرًا عندما يداهم مسامعي من آن لآخر فأزداد
عناقًا لحقيبتني، مرُّ وقت ثقيل قبل أن يُهدئ القطار من سرعته، أخرجت
رأسي من النافذة فرأيت أحدهم يترجل منه، صحت بكل ما أوتيت من
قوة لعله يسمعني لكن صوتي لم يصل إليه، كان يتلفت وقد بدا عليه
الخوف والفرع، حاولت الخروج من الباب لأنضم إليه لكنني حُجبت،
كنت كلما أقترُب من الباب يدفعني شيء خفي بقوة، كررت المحاولة
عدَّة مرَّات وطرحتنني الدفعة الأخيرة أرضًا، عاد القطار إلى المسير
وتوالى المحطَّات، مرَّ القطار بغابات وجبال وأودية وأنهار، وترجل منه
ثلاثة كل منهم في محطة مختلفة، وكنت أصيح وأصرخ في كل مرة
كالمجنون ولم يسمعوني، الجميع يترجلون ثم يختفون خلف الضباب
الذي يقبل عليهم وكأنه يلقيهم وعندما يعود القطار إلى المسير. وبعد
حين، توقَّف القطار فجأة! شعرت بجدران المقصورة تقترب نحوي من
كل الجهات ودُفعت دفعا نحو بابها لتلفظني فترجلت منها وركضت
وقلبي يوشك أن يقفز من فمي، سقطت على ركبتي وأنا أراقب القطار
وهو ينصرف وصفيره يزلزل كياني، جلست على الأرض وأنا لا أعني ما
يحدث!

ما الذي يجري هنا؟

أين أنا!

ماذا سأفعل؟

هل أبقى في مكاني حتى يظهر القطار مرة أخرى؟

أم أبحث عن الناس؟

ماذا لو حلَّ الليل وأنا هكذا وحيد هنا؟

ولكن هل يوجد بشر هنا؟

هل تلك ممالك الجنِّ وقد اختُطفَت للتو!

رددت كل الأدعية التي أحفظها وشرعت في تلاوة ما أحفظه من آيات، سرت بساقين من عجين وكأنهما تحاولان الهروب مني ولا ترغبان في الماضي إلى ما ينتظرني، رأيت الضباب يقبل نحوي ثم يدور حولي في دوامات، لم أعد أرى يدي أمامي، كما لو أنه يسرق شيئاً من وجودي مع كل لحظة صمت، كأنه كائن حي يمدُّ أصابعه الباردة نحوي، وأنا لا أعرف ما الذي يختبئ خلفه، ثم انقشع لتتبدى لي الحقول الخضراء كبساط واسع وفي الأفق تلوح أطلال بيوت وقمم أشجار باسقة، فاستبشرت بالبيوت لعلِّي آنس بصحبة آخرين ويساعدونني. أسرعت نحو أطلال البيوت وكنت كلما أقترب منها أشعر أنها تبتعد وكأنني لم أخط خطوة واحدة تجاهها، مررت بكثبان رملية بيضاء وعندما اجتزتها أطلت غابة من أشجار الصنوبر، توغلت فيها وبينما أسير تحولت فجأة إلى أحراش كثيفة من الخزامى البرية، كنت أرى صور تلك الأشجار والنباتات على شبكة الإنترنت ولم أتخيل يوماً أنني سأراها بألم عيني. أصابني الإرهاق والتعب فجلست تحت شجرة أستظلُّ بها لألتقط أنفاسي، حمل لي النسيم رائحة ريحان قوية فخفقت عني، كنت أسمع أصواتاً ودمدمات من خلف أغصان الأشجار وهي تهتزُّ، كأن شيئاً يختبئ خلفها ويتردد في الظهور، اقشعرَّ جلدي واستحال جلد إوزة، فهناك شيء يتغيَّر شكله كلما رمشت، كأن أحدهم يرسم صورته ويمحوها في اللحظة نفسها، بدا كومبُض من الضوء الملون؛ خطوطه شفافة تتشكل في هيئة كيان حركته لا تشبه حركة المخلوقات التي أعرفها، ركضت في هلع خارجاً من الغابة وقلبي يسبقني على الطريق، كنت ألتفت وأنا أبتعد عنها، خشيت أن يداهمني الغروب وأنا وحيد هنا، وكنت لا أدري كم الساعة، عندما ابتعدت بمسافة كافية توقفت عن الركض وعدت إلى المسير تجاه البيوت لعلِّي آنس بصحبة البشر.

الأحجار الحية

بدأت الأرض تنحدر تحت قدمي ولم أنتبه لهذا، انزلقت قدمي وتدرجتُ بحقيبتَي حتى وصلت أخيرًا إلى أرض مسطحة، ألمني جسدي للغاية، عدت إلى السير بعد راحة قصيرة وأصبح أيسر من ذي قبل نظرًا لانبساط الأرض تحت قدمي، كانت ملساء وخالية من العشب ولا أثر لزراعة فيها كما كان في تلك المساحات التي قطعتها للتو، بيد أن هناك بعض الصُخور غريبة الشكل تنتشر هنا وهناك، شعرت وكأنَّ قدمي ملتهبتان ووددت لو خلعت حذائي، وفجأة! صدر هسيس مخيف من الأرض وكأنَّ هناك وحشًا يحمم ويقترّب، بدأت الصُخور تتحرّك في خطوط مستقيمة وتوجّهت نحوي وصارت تُلاحقني فبدأت أركض هاربًا منها، ترصّدتني وكأنَّها كائنات حيّة ترى وتشعر، سقطت حقيبتَي وأنا أحاول تفادي تلك الصُخور بأحجامها المختلفة، لم أجد مفرًا من القفز لأتفادها، قررت الوقوف فوق واحدة منها ففتشت بعيني عن حجر عريض منها لأعتليه، عانيت بسبب سطحه الأملس والمقوّس، كانت قدمي تنزلق بالحذاء مما أدى إلى سقوطي مرارًا وتكرارًا وأنا أحاول الوقوف فوقها لأنَّ عددها كبير وحركتها سريعة جدًا، ظللت أهرب منها

كالمجنون، صدمني حجران في آنٍ واحد وكان الألم شديدًا مما أثار غضبي! وعزمت ألا أترك تلك الأحجار الصفيقة تنال مني، تخلّصت من سترتي ثم خلعت حذائي، لكن الجورب أعاقني هو الآخر وانزلت قدمي من جديد، فخلعته وقفزت حافيًا فوق حجر آخر فالتصق باطن قدمي بسطحه وتوقّف عن الحركة ثم توقفت جميع الأحجار تباغًا، عجيب!

سرت قشعريرة في جسدي وكأنّ ألف إبرة رُشقت في جلدي.

رحت أتساءل عن كنه هذه الأحجار! أيعقل أن تكون حيّة؟

سألت نفسي بصوت مسموع: «هل هذا حلم؟».

كنت أشعر بدقات قلبي المتسارعة في حلقي وصدغي، وكأنّ أطنانًا من «الأدرينالين» تغرق خلايا جسدي الآن! وقطرات العرق تجري على طول عمودي الفقريّ.

لماذا أتعجّب وأنا وصلت على متن قطار عجيب إلى مكان أعجب!

ضربت جبهتي بيدي وصرخت فتردد صدى صوتي في الأجواء، أنزلت قدمي اليمنى بحذر وأنا أراقب الأحجار فلم تتحرّك، فحمدت الله وهرولت بينها وأنا أتلّف لألتقط حقيبتني وحذائي وجوربي، كنت أنتظر منها غدرة، لكنّها بقيت ساكنة وكأنّ لمسها لباطن قدمي كان كافيًا لإبطال سرّها الذي لا أعرفه. لم أستطع كبّح جماح فضولي فوقفت أتحمس سطح تلك الأحجار بأصابعي، كانت دافئة، وضعت أذني على سطحها فسمعت الهسيس الذي أفزعني فور دخولي تلك الأرض لكنّه كان بصوت خفيض، اعتدلت واقفًا وتأملتّها بجملة النظر من بعيد، كانت موزّعة في مجموعات، بل في صورة عناقيد، وبعضها يبدو وكأنّه قد تبرعم.

انتفض جسدي وكاد قلبي يقفز من بين أضلعي عندما شعرت بحزام من النار يدور حول ساقيّ عدّة مرّات قبل أن يجرّني أحدهم وكأنّه ولد

من قلب الظلام للتو، كان رجلاً فارح الطول يتشبح بالسواد، حتى جواده
بدا كقطعة من الليل، كيف لم أسمع صوت سهيل أو هملة جواده وهو
يقترب!

ترجل عن جواده واقترب مني وكنت ممدداً على الأرض بعد سقوطي،
وجه بلون الرَّمَاد المبلل وأنف غليظ به حلقة من نحاس، ومن إحدى
أذنيه يتدلَّى قرط أحمر! كان يتمنطق بحزام جلديّ عريض تتأرجح منه
عظام ملساء صغيرة، وعلى صدره قلادة نحاسية محفور عليها رمز
غريب، بدا وكأنه من الفجر!

حاولت تحرير ساقَيَّ من سوطه الطويل الذي لفلفها به ففشلت،
فجررته بكلَّ قوَّتي من السُّوط وأسقطته أرضاً فزار بحنق قائلاً:
- أيها الوغدا! كيف تجرؤ!

استلَّ خنجرًا من ياقة حذائه وكاد يغرزه في قلبي لولا سهم أتى
من حيث لا أدري وأصابه في كفه فالتفت كالذئب الذي حُرِم للتو من
فريسته ونذت منه صيحة غاضبة قال بعدها:
- «سهيل»^(١)!

- ارفع يدك عنه.

- أيها الأحمق. لقد عبث بالأحجار المقدسة!

رنوت تجاه الرّامي فوجدته شاباً مديد القامة مجدول الذراعين، له
شعر طويل ومتموج، كان يربط جبينه بشريط مارونيّ اللون ويتمنطق
بحزام من جلد النمر، وكان لا يزال يرفع قوسه وسهم جديد يستقرُّ في
كبدته وموجه نحو صاحب الخنجر، قال وهو يشدُّ السهم للخلف:

(١) سهيل: نجم سهيل هو ثاني ألمع نجم في سماء الليل بعد الشعرى اليمانية، يعتبر
ظهوره علامة على بداية انكسار حرارة الصيف واعتدال الطقس في الثقافة العربية.

- حرره حالًا يا «ظَلِيم»^(١)، ألم تشيع من الذَّبْح والقتل؟

قال «ظَلِيم» ساخرًا:

- هذا ليس من شأنك أيُّها العرَبِيد.

- سأقتلك. وسيُسعد هذا الجميع!

شدَّ «سُهَيْل» سهمه للخلف فصاح «ظَلِيم» قائلًا في غضب:

- من هذا؟ ولم تحميه؟

- انظر إلى وجهه!

تمعَّن «ظَلِيم» في ملامحي فاتسعت عيناه وقال في سخط:

- سحقًا لك!

- أرايت؟ حرر ساقيه ولا تمسَّه بسوء.

بدا لي أنَّ هناك سرًّا بينهما لم أتبيَّنه! حررني «ظَلِيم» وأسرع نحو
فرسه ومضى مُخلِّقًا وراءه سحابة من الرُّمال أعمت أبصارنا، اقترب
«سُهَيْل» ومدَّ يده ليصافحني، رأيت وجهه المليح عن قرب، رفع حاجبيه
قائلًا:

- وقفت حافيًا فوق الأحجار. لقد رأيتك!

- ما قصَّتْها؟

- أرايت كيف شعرت بقدميك؟ إنها حيَّة.

- لهذا يظنُّها صاحبك أحجارًا مقدَّسة.

عقد حاجبيه وقال في ضيق:

- اسمه «ظَلِيم»، وليس بصاحبي.

- عجيب أمر تلك الصُّخور!

(١) الظَلِيم: ذكر النِّعَام، والجمع: ظُلَّمان.



@ART_OF_BOOK

- لا تتعجب فهذا أبسط ما ستراه هنا.
- كيف هذا؟
- لا تسأل حتى ترى بعينك يا «ممدوح».
- اخترق صوته أذني عندما نطق باسمي فأجفلت! سألته متعجبًا:
- كيف تعرف اسمي!
- جميع من بالمدينة هنا يعرفك، وكلهم ينتظرون وصولك!
- سألته وأنا في حيرة:
- كيف تعرفونني وأنا لا أعرفكم؟ ولماذا نظر إليّ «ظليم» هكذا؟
- وأني مدينة تتحدث عنها؟
- أجاب عن سؤالي الأخير قائلًا:
- مدينة «تروقانتس».
- تذكّرت البطاقة التي أعطاه لي الرجل بمحطة القطار، سألته وقد طاف بذاكرتي ضوء البرق وهو ينقش هذا الاسم على صفحة السماء:
- «تروقانتس»! وماذا تعني؟
- مال برأسه تجاه الصُخور وقال:
- تلك الصُخور! ذاك هو اسمها!
- خلع حذاءه وسار نحو الأحجار بحرص شديد وكأنه يسير على حدّ سيف وأشار لي لأقترب، اختار حجرًا صغيرًا منها وضربه بقبضته فانفلق ليظهر جوفه المكون من طبقات متتالية حول قلب صلب، قال وهو يشير إليها:
- قلب صلب تحتضنه الرمال، يتحرك وينمو ويتكاثر.

ترك «سهيل» الحجر فرأيت بأُمّ عيني الحجر وهو ينمو سريعًا ويللم
شئاته ويعود فيتكؤر من جديد، همس «سهيل» وعيناه على الحجر:

- كلُّ طبقة من الرّمال تحفظ سرًّا وتسجّل وقتًا وكأنّها سجلّ
للتاريخ، حياتنا تدوّن بحبّات الرّمال هنا!

ازدادت حيرتي وكدت أهرب منه، لكنني كُنت في حاجة إلى شخص
آخر أتحدث إليه قبل أن أفقد عقلي، فقد سرت لمسافة طويلة وكنت
منهكًا للغاية، كما أنّه أنقذني وأيضًا يحمل سهامًا وقوسًا وأنا لا أحمل
سلاحًا، استدار ليبتعد عن الأحجار فاستوقفته قائلاً:

- حسنًا. لديّ الكثير من الأسئلة.

- لننحدّث في الطريق، فالجميع في انتظارك.

دارت طواحين الهواء في رأسي، المزيد من الغموض يتكاثف حولي.
كانت الرّمال ساخنة! كيف لم أشعر بحرارتها عندما خلعت حذائي
لأهرب من الأحجار؟ لا ريب أنّ الخطر خدّر حواسّي، انتعلت حذائي
وسرت بجواره، رفض أن يُخبرني عن شيء حتّى نصل إلى المدينة التي
أخبرني عنها، أدركت من حوارني معه أنّه لا يعرف شيئًا عن القطار الذي
أقلّني لتلك البقاع، لكنّه يُدرك أنني أتيت من خلف الضّباب.

وصلنا إلى ربوة مرتفعة ووقفنا لنستريح فبدت المدينة أمامنا
بأكملها وكانت موزعة في وادٍ كبير ومترامي الأطراف تحفّه الجبال من
الشرق، لاحت بحيرات وردية اللون ينعكس لونها على سفوح تلك الجبال
الشرقية، أمّا اليسار فكان يجري بموازاته نهر يبرق ماؤه كاللجين،
ويلقي بشذرات لامعة على قمم أشجار غابات الضنوبر الغربية فيوشّوها
بتيجان من فضة، أشار «سهيل» تجاه النهر وهو يقول:

- كان النهر القضي يجري هنا وسط مراعي خضراء واسعة ويصب في بحر «فاغ» الذي كان يقبع جهة الشمال بشاطئه البديع.
- يبدو ساحراً.

- ما هوا

- النهر. يبدو ماؤه فعلاً وكأنه لجين يسيل.

- أتراه؟

- أراه بالطبع. وكذلك زُرقة البحر تلوح في الأفق وكأن هناك من سكب الحبر الأزرق عليه للتوا

فغرفاه وشخص نحوي قائلاً:

- ماذا! هل تراهما حقاً؟

- نعم!

بدا عليه ارتباك تشوبه فرحة، وكنت أتعجب من عدم رؤيته لما أراه، قال وهو يعقد حاجبيه:

- نحن لا نرى ما تراه منذ أن أصابنا ما أصابنا.

- وما الذي أصابكم؟

كاد يُخبرني لولا وصول فيلق من الجنود بخيولهم وكان معهم جوادان لنا، وبطبيعة عملي كطبيب بيطري كنت أمارس الفروسية في بعض المزارع والأندية التي أزورها من آن لآخر لعلاج خيول السباق، ركض الجنود أمامنا لكنني لم أفعل فلاحظ «سُهيل» وتأخر ليُرافقني، فلم تصل مهارتي إلى حد الركض بتلك السرعة، كنت أهملج بالخيول لا أكثر. كانت تلك المراعي التي أشار إليها ولم يرها بينما رأيتها مكسوة بخضرة سندسية خلابة، جُلت بناظري في الوادي وعلى الرغم من الجمال الذي صافحته عيناى بدأ الخوف يمج بين أضلعي.

وصلنا وعبرنا حدود المدينة وفوجئت بسكانها يُقبلون من كلِّ حدبٍ
وصوب ليستقبلوني، صاح أحدهم:

- أهذا هو حقًا؟

قال آخر:

- لم يكن حليق الرأس!

قال ثالث:

- كانت له لحية طويلة وشعر كثيف.

ترجلتُ عن جوادي والحيرة تنهش عقلي، قلتُ وأنا أنقل عيني بين
وجوههم وثيابهم:

- يا إلهي! من أنتم؟ وأين ومتى رأيتموني؟

اقتربت امرأة أربعينيّة بدينة لها وجه أبيض مشربّ بحمرة وقالت
وهي تمسح يديها في وزرتها لتتخلص من أثر العجين:

- هو «ممدوح» لكنّه حلق شعر رأسه ولحيته، أعرف تلك الأذنين
البارزتين.

أشعلت كلماتها قتيلاً في رأسي، لكنني كظمت غيظي فأنا لا أعرف
حتى الآن في أيّ بقعة أنا. التفتُ نحو «سُهيل» وقلتُ وأنا أضيّق عيني:

- يجب عليك أن تخبرني الآن بحقيقة ما يحدث قبل أن أفقد صوابي.

برز رجل خمسينيُّ بدأ الشَّيب ينقش جانبي رأسه وكانت عيناه
العميقتان تفيضان نباهة، تفرّس في ملامحي وقال:

- وأخيراً أتيت.

- وكأنني وعدتكم بالزيارة!

- نحن نعلّق عليك آمالاً كبرى!

- أيّ آمال!

التفت نحو «سُهيل» وسأله:

- ألم تُخبره؟

رنا نحوي وقال:

- نراك كل ليلة في أحلامنا، نتشارك جميعًا الحلم نفسه بتفاصيله وأحداثه، نجلس كل صباح لنصف لبعضنا بعضًا هيثك وما فعلته، نراك وأنت تعيد إلينا ما فقدناه.

ثم صاح «سُهيل» قائلًا لهم:

- لقد خضعت له أحجار «تروفانتس»، رأيت هذا بأُم عيني.

علت همهماتهم، أضاف في حماس:

- لقد رأى النهر الفضّي وبحر «قَاغ» وحتى المراعي الخضراء!

ازداد صخبهم، قال شيخ كان يستند إلى جدار قريب:

- لعل ما رأيناه في أحلامنا يتحقق.

وصل المزيد منهم وتكاثف الحشد حولي، سألتهم ودقات قلبي

تتزايد كطبول حرب:

- لماذا ترونني أنا بالذات في أحلامكم؟

أتى صوت أنثوي قوي لفتاة من خلفهم فقطع حوارنا عندما قالت:

- لأنك فارس أحلامنا.

أفسحوا لها الطريق ووضعوا أياديهم على صدورهم لأداء التحية لها، أخبرني «سُهيل» أنها الأميرة «الثريا»^(١)، الابنة الصغرى لحاكمة المدينة.

(١) الثريا: أحد ألمع وأشهر العناقيد النجمية المفتوحة، كان العرب يُسمونها باسمها لأنهم كانوا يتبركون بها ويقولون إن المطر الذي يصاحبها يجلب الثروة. وهي المنزل الثالث من منازل القمر، وقد كانت تُميّز بالعين المجردة مع نجوم أخرى فكانوا يشبهونها بعنقود العنب لتقاربها.

سكنوا جميعًا وكانَ على رؤوسهم الطير، دار الحرس حولنا في حلقة
وأبعدوا الناس فبقيت معها في المنتصف، فتاة شديدة الجمال وساحرة
يحمل وجهها وقارًا وهيبة، وعلى رأسها تاج يزيّنه حجر زمردنيّ كلون
عينيهما العميقتين، قلت وأنا أتأمل خضوع الناس أمامها وتوقيرهم لها:
- لست فارسًا.

- لعلك نجم!

- يا إلهي! ما الذي يدعوكم لرفعي لتلك المكانة!

- أنت حلم جميل يطوف برؤوسنا.

- قد أكون كابوسًا من الكوابيس التي لا تحسبون لها الحساب.

قالت بصوت به رنة انكسار:

- عليك أن تحقق ما رأيناك تفعله، نحن في كربٍ شديد، يجب أن
تساعدنا لرفع ما حلّ بنا من لعنات، ما عدنا نرى الجبال ولا
البحيرات وتلاشت من أعيننا الألوان كلّها، واختفى أفضل شباب
مدينتنا وكأنّهم تبخّروا في الهواء، أرجوك كن عونًا لنا وأعدهم
إلينا.

- من أين سأعيدهم؟

- أنت وحدك تعرف.

- وأنّى لي هذا؟

- علمنا أنّك تستطيع.

- من أخبركم؟

- رأيناك تفتح بوابات لا نعرف كنهها!

- متى؟

- في أحلامنا!

- تلك أوهام وخرافات! أنا لا أعرفكم ولا أدري ما الذي حدث لكم،

حتى إنني لا أدري هل أنتم حقيقة أم أوهام!

صاح أحدهم في غضب وهو يلوح بقبضته:

- أيُّها الوجد! اختفى ولدي من بين يديّ وتقول إنَّ هذا وهم.

توالى الأصوات تباعا من أفواههم وكنت أنقل عيني بين وجوههم

وهم يخاطبون بعضهم قائلين:

- سنحتجّزه هنا رغم أنفه حتى يفعلها، ولندفع به نحو الأحجار.

- نعم، فلنجرّب ولن نخسر شيئا.

- ولو مات! ماذا سنفعل؟

- لن يموت لأنّه لم يمت في أحلامنا.

- ربّما سيموت وتطحنه الأحجار طحنا، وهذا مجرّد حلم!

- كيف تقول هذا وهو أمام أعيننا الآن.

- عليه أن يُنقذ أبناءنا ويُحرر المدينة من تلك اللعنة التي أصابتنا.

- سنقتله إن لم يفعلها.

علت الأصوات وتشابكت، كانوا جميعا يتحدثون في آن واحد،

ضوضاء شديدة أحاطت بي من كلّ الجهات، علا طنين شديد في رأسي

وشعرت بدوار شديد، ضاقت أنفاسي وانسحقت روحي فسقطت على

الأرض، وفقدت الوعي في الحال.

فتحت عيني بصعوبة لأجد أمامي سبعة رؤوس لفتيات صغيرات

يطالعن وجهي بفضول، صاحت إحداهن بحماس:

- لقد أفاق يا «سُهيل».

أقبل «سُهيل» مستبشراً، يبدو أنني كنت مجهّداً بعد السير لفترة طويلة لأصل إلى هنا وهذا ما تسبب لفقداني للوعي على أثر ذلك، جلست والفتيات الصغيرات يحطن بي وهن فرحات بوجودي في بيتهن البسيط، ثلاث توائم في السادسة من أعمارهن، وتوأمتان في الثامنة، وتوأمتان في العاشرة، هكذا أخبرنني. بدأت يحضرن لي الحلوى والفواكه، كانت تلك هي المرة الأولى التي أبتسم فيها منذ وصولي، فقد كان لحضورهن أثر لطيف في نفسي، علمت أنهن شقيقات «سُهيل» وكنّ يشبهنه كثيراً، بدا لي جلياً كيف يُحِبُّبُه وكيف يحنو عليهن، سألته عمّا حدث بعد فقداني للوعي فقال بعد تنهيدة طويلة:

- كاد أهل المدينة يلقونك في السّجن ليستجوبوك.

- معقول!

- استطاعت الأميرة إقناعهم بتركك لتعيش بيننا وتختار بنفسك أداء المهمة.

- بالتأكيد عليّ وحدي أن أقرر هل سأفعل هذا أم لا. وفي الحقيقة أنا لا أعرف ما هي المهمة أصلاً!

هزّ رأسه في أسى وقال:

- للأسف أمامك خياران يا صديقي، أن تساعدنا باختيارك، أو تساعدنا رغم أنفك، ولا يوجد خيار ثالث ولا أظنّ أن أهل المدينة سيتركونك، ولتعلم أنّ تلك المهام لا يقوم بها إلا الفرسان.

- أيّ مهام!

- التطوُّع لتقديم المساعدة للآخرين إن كُنْتَ تقدر على هذا.

- ومن قال إنني أستطيع!

تلاقت نظراتنا للحظات واكتفى كلانا بالصمت، قلت حانقاً:

- المصيبة أنكم تطالبونني بفعل شيء مبهم، وترجون رفع لعنة لا أعلم سببها.

- لماذا ظهرت لنا في أحلامنا؟

- لا أدري! فليأت هذا الشبح الذي يشبهني وينقذكم.

- كنت أنت، أنا على يقين من هذا!

اقتربت واحدة من شقيقاته وسألته:

- هل سيستطيع إعادة أخي «زُهير»؟

- لا تُخبرني أنه توأمك!

أوما «سُهيل» برأسه موافقاً، يا لها من عائلة غريبة! الأم لا تُنجب إلا التوائم! بدأ في سرد تجاربهم ومحاولاتهم لتخطي حقول أحجار «تروكانتس» وفشلهم في هذا، وكيف كانت الأحجار تحفر أخاديد أحياناً، وكيف اصطكَّت ببعضها وأطلقت شرارات فأحاطت بهم حلقة من نار ظلت مشتعلة ليومين كاملين. يبدو أن لا مجال للهروب من تلك المدينة، كان القلق ينهش رأسي بينما الفتيات الصغيرات لا يزلن يراقبنني ويُدرن رؤوسهن بين وجهي ووجه أخيهن كالهرد الصغيرة، سألته لكي أشبع ظمأ فضولي:

- حسنًا. كيف بدأ الأمر؟

- بدأ الأمر عندما أراد «ظليم» الزواج بـ «القيثارة»^(١) أجمل بنات شعبنا ورفضته، وقالت إن قلبها معلق بالأمير «السُمهري»^(٢) ولي العهد.

- ولي العهد وماذا عن تلك الأميرة التي التقيناها!

- تلك شقيقته الصُغرى «الثريا»، وهي تتولّى أمور المدينة حتّى يعود، فقد فقدت الملكة «ذات الكرسي»^(٣) أربعة أمراء في معارك ضارية دفاعًا عن المدينة، ولم يبق لها من أبنائها غير «السُمهري» و«الثريا»، لهذا حُجب عقلها عندما اختفى ومرضت مرضًا شديدًا، وابنتها ترعاها وتتولى الأمور حتى يعود أخوها.

- وهل كان «السُمهري» يعلم بحبّ «القيثارة» له؟

- نعم وأصرّت الملكة على أن تزوّجها له، أرادت أن تزوّجه بأجمل بنات شعبنا فخطبت له «القيثارة» بالفعل، وأقيمت الاحتفالات من ضفاف النهر الفضيّ وحتّى شواطئ البحيرات الوردية.

- لا تخبرني أن «ظليم» هذا أفسد كلّ شيء.

أوما برأسه وأكمل قائلاً:

- أقام مذبحة في بيت «القيثارة»، قتل أباه وأشقائها، فقاتله «السُمهري» وقتل من شاركوا من عشيرته في تلك المذبحة، لكنّه لم يتمكّن من إنقاذ العروس.

(١) القيثارة: كوكبة نجمية، وهي عبارة عن مجموعة من النجوم مرئية كشكل في السماء، ويطلق الاسم أيضًا على آلة موسيقية.

(٢) السُمهري: الرمح الصلب العود منسوب إلى سَمَهَر: رجل كان يُقوّم الرماح.

(٣) ذات الكرسي كوكبة نجمية أطلق عليها العرب هذا الاسم لأن نجومها اللامعة تشكل هيئة امرأة تجلس على كرسي.

- هل أسرها؟
- لا. أحاطت بها أحجار «تروقانتس» حين ركضت بينها فرارًا منه.
- وأين هي الآن؟
- لا أحد يدري. أخفتها الأحجار!
- وماذا حدث بعدها؟
- أعلنت عشيرة «الظُّلمان» تمردًا على الحكم بالمدينة، وتمركزت جهة الجنوب، فاشتعلت الصراعات في المدينة وأريقَت الدِّماء، وكان هناك قتال ودماء بالفعل على الحدود الغربية حيث غابات الصنوبر وهؤلاء الغرباء الذين سكنوها، عشنا أيامًا مظلمة فزحفت الأحجار وأحاطت بالمدينة وحوَّقتها، وظلَّت الأرض ترتفع وتنخفض بينما الأحجار تدقُّها، حُجب الكثير من معالم المدينة وبيوتها وقصورها، كانت الأحجار تطارد الشباب كما طاردتك، وتدور حولهم لتصنع دوامات ويختفون أمام أعيننا، وما عدنا نرى ما حولنا من جبال وبحيرات، حتَّى النهر الفُضِّي وبحر «قُاغ».
- كيف نجوت من هذا يا «سُهيل»؟
- رنا لشقيقاته قائلًا وهو يبتسم:
- شقيقاتي! أحطن بي فلم تنل الأحجار مني، فهنَّ كما ترى يتبعنني دائمًا في كل مكان، ويشعرن بالخطر قبل حدوثه، عندما أراهنَّ يبحثن عني أدرك أنَّ هناك خطرًا وشيكا.
- التفتُ نحوهنَّ فرأيتهنَّ يجلسن في سكون ويراقبنه، كان ذاك الشاب محاطًا بالحبِّ من كلِّ جانب، سألته وأنا أغبطه على حبِّ شقيقاته له:
- كم عمرك يا «سُهيل»؟
- عشرون عامًا. ولتعلم أنَّ السؤال عن العُمر محظور في مدينتنا.

- لماذا؟
- توقُّفنا عن حساب أعمارنا فلا حاجة لإحصائها، فلنعش الحياة وحسب.
- لكنكم بينكم وبين أنفسكم تحسبونها، حتَّى أنت أخبرتني عن أعمار شقيقاتك!
- قد فعلت، ولكن لا تسأل أحدًا عن عمره هنا.
- كان جادًا فيما يقوله فأومات له بالإيجاب وعدت أسأله:
- شقيقاتك لم يستطعن حماية أخيك، أليس كذلك؟
- بلى، كان «زُهير» يسبح في بحر «فاغ» كعادته، أخي متمرّد وليس طوع أبي وأمِّي، ظلَّ يتبع حوريَّات البحر ويلهو معهنَّ عندما سحبته الأحجار.
- سألته راجيًا ما يبث الطمأنينة لقلبي:
- ألم يظهر لكم شيء غريب ومميّز في أحلامكم؟ أقصد ذلك الحلم الموحد الذي ترونني فيه؟
- نراك فقط تفتح بوابات، وكلّما كنت تفتح بوابة منها ينقشع الضباب.
- هل كنت أحمل سلاحًا أو شيئًا ما؟
- لا.
- غريب أمر تلك الأحلام! ولكن هل تلك عادتكم؟ أن تروا أحلامًا موحدة وتشتركون جميعًا في رؤيتها؟
- لم يحدث هذا إلّا في ذلك الحلم الخاصّ بك، الذي صار يراودنا منذ حدوث تلك اللعنة.

أطرقتُ قليلاً ثم قلت له بعد تردد:

- لعل من فُقدوا منكم...

- ماتوا! أليس كذلك؟

- بلى.

- ظننا هذا بعد مرور عام، لكنك أخبرتنا في الحلم أنك رأيتهم،

ورددت أسماءهم.

- أنا!

- نعم أنت.

- لكنني لا أعرف أسماءهم! هذا عجيب!

- كُف عن التعجب فالحلم يتكرر منذ عام وأكثر، كنا نعرف أنك

ستصل في بداية شهر قمري، ولكن أي شهر؟ لم نعرف قط.

ظللت علينا صمت قصير، بدأت الأمور تتضح أكثر، قلت وأنا أتفُرس

في وجه «سهيل»:

- إذا كنت تترقب وصولي لتحميني.

- نعم، «ظليم» الأحمق كاد يقتلك حين أسقطته أرضاً.

- يا إلهي! لقد أنقذت حياتي حين طلبت منه أن ينظر إلى وجهي

ليتعرف عليه، فهو أيضاً يراني في الحلم.

- لعله لم ينتبه في البداية بسبب شعرك المملوق، لولا أن الأحجار

أخفت عشيرته أيضاً لقتلك في الحال، تركك فقط لأنه يرجو أن

تعيدهم كما نرجو منك إعادة الغائبين منا، فقد اختفت أخته و

شديد التعلق بها.

- أنا مدين لك بحياتي.

- لم أراقبك وحدي، جنود المدينة كانوا ينتشرون على حدود الضباب
فالיום هو بداية الشهر القمري، لكنني توقعت أن تصل من جهة
أحجار «تروقانتس» الحرّة، تلك التي مررت بها وخضعت لك.

- ولم توقعت هذا؟

- لأنها الأحجار نفسها التي حمت «القيثارة» وأخفتها!

- لماذا تتركون «ظليماً» هكذا؟ ألا يوجد بينكم من يردعه؟

- لديه عصبية قويّة، عشيرته من الغجر وهؤلاء ليس لهم نواميس
تحكمهم، ونحن نخشى على البنات منهم، وكما ترى، غياب الأمير
يُضعف شوكتنا.

ابتلعتني فقاعة من الصمت، توافدت الأفكار إلى رأسي كأسراب
الحمّام.

هل حقاً أنا من يظهر لهم في أحلامهم؟

أم هم من يظهرون لي الآن في حلمي؟

أو ربّما هذا عالم الجنّ وأنا اختطفت هناك!

فرقع «سُهيل» بإصبعيه أمام عينيّ وقدم لي قدحاً من القرقة وقال:

- علمنا من الأحلام أنّك تُحبّ القرقة.

تناولته متعجباً من معرفته بأدقّ خصوصياتي وسألته:

- ماذا تعرفون عني بالتّحديد؟

- الكثير من الأشياء، لكنّ ما أعجبني فيك حقاً هو حبّك لأخيك، فأنا

أيضاً أحبّ أخي وكنت ألهو معه تحت المطر كما فعلت مع أخيك
وأنتما صغار.

- يا إلهي! حتى هذا تعرفونه عني؟

شعرت بتوترٍ قلديّ من الخبايا ما لا أرغب في كشفه على الملا بتلك
الطريقة الفاضحة، لا أحد منّا يرغب أن تُعرّض خواطر نفسه وندبات
قلبه على عقول الآخرين ولو في الأحلام، لقد رأوني فقط من الخارج، ماذا
لو اطلعوا على روعي المهترئة؟ هل سيستمرون في وصفي بالبطولة؟
سألت سهيلاً وأنا أقرب قدح القرفة من فمي:

- أين والداك؟

- أبي هو الكهل الذي كان يُحدّثك في السُّوق، وأمّي تلك التي أقبلت
علينا حين عبرنا الحدود.

- التي تعرّفت عليّ من أذنيّ البارزتين.

ضحك «سُهيل» وشقيقاته، شاركتهنّ الضحك، فقال وهو يشير إليهن
ليتوقفن عن الضحك:

- ليستا بهذا السوء.

- لم أشعر قط أن بهما سوءاً يا «سُهيل»، لكنّ الناس لا تكفُّ عن
الحديث عنهما.

- كل صنيع الله جميل! وعلى أيّ حال أنت لطيف المُحيّا يا «ممدوح».

أوماً إلى شقيقاته فطفقن يحركن رؤوسهن الجميلة موافقات على
كلامه، ثم سألتني إحداهن في فضول:

- هل ولدت «مديحة»؟

- تركتها في أمانة جارتني، وهي على وشك الولادة.

سألت أخرى:

- كم عدد القطط التي ستنجبها؟

- الله وحده يعلم! لعلهم سبع قطط مثلكن!

ضحكتُ وأنا أراقبهنَّ والفضول يملأ أعينهنَّ، تناولت معهن «حلوى الخطمي الممزوجة بشراب السعادة»، و«كعكة الضحكات الصاخبة»، أخبرتنني أنَّ أمهن تستطيع خبز تلك الأشياء بمهارة، والعجيب أنني شعرت بالسعادة ترشح في نفسي بالفعل بعد تناولها! وضحكت معهن من قلبي، فما عدت أعرف هل تلك مزحة أم عجيبة من عجائب «تروثانتس».

أعارني «سهيل» ثيابًا تناسبني فقد كان بنطالي في حالة سيئة، وكنا في الطُّول والحجم نفسه، في تلك المدينة كان الرجال يلبسون سراويل واسعة وقمصانًا من الكتان المغضن، ويتمنطقون بأحزمة جلدية مزخرفة برموز غريبة، فوق القمصان معاطف لها أربطة فضية لامعة، وأكمامها تتسع عند المعصم. أما النساء فكانت ثيابهن متعددة الطبقات كالأمواج، يلففن رؤوسهن بأوشحة تحمل نقوشًا بارزة تلقي عليهن ضبابًا هشًا، أما الفتيات الصغيرات فكانت ثيابهن تحمل نقوش أزهار بارزة تبرز عندما يلمسها الضوء وترقص مع حركاتهن، وكانت الأحذية من الجلد المخملي، مزينة بأربطة متشابكة، تمنح مرتديها خفة في الخطى رغم ثقل الزمن الذي يحيط بالمدينة، لكنني لم أحبها، فانتعلت حذائي الرياضي نفسه، وكان «سهيل» يتعجب منه، خرجت معه وتبعتنا شقيقاته بأثوابهن الملونة كما يتبع صغار البط أمهم، كن هادئات لا يصدرن صوتًا ولا يقمن بشغب، باقة من سبع زهرات ساحرات لا يملُّ من النظر إليهن أبدًا، علمت أنهن يتركنه فقط على الحدود ولا يتبعنه حينها، لهذا عندما التقيته أول مرة كان وحيدًا.

سوق الخواطر

كنا في آخر ساعات النهار، طفنا بأروقة المدينة ورأيت كيف يعيش هؤلاء القوم، أعجبتني ثيابهم ولاحظت اختلافها، عندما سألت «سهيلاً» أخبرني أن كل جماعة يتمسكون بطرازهم الخاص في الملبس اعتزازاً بأصولهم، فهم أجناس مختلفة وفدت واجتمعت من جهات الأرض الأربع في هذا المكان منذ عهد بعيد، لاحظت الكثير من الحراب المتصالبة على الأبواب العريضة، وكانت الرماح الصغيرة والكبيرة مسندة على جدران البيوت، بعضهم كان يحمل سيوفاً ثقيلة، ومررنا برجال يحملون فؤوساً ومطارق، وكأنهم على أهبة الاستعداد لحرب وشيكة! وجدت لتلك المدينة العتيقة سحراً خاصاً، البيوت ملونة وأسقفها رمادية اللون وبعضها مزركش. الآن هم محرومون من رؤية تلك الألوان الجميلة، ترى لماذا حُجبت أعينهم عن رؤية الألوان؟

كانت هناك بيوت طرازها مميزٌ محفوفة بسور مؤطر بأحجار بيضاء، وقد تعانقت عرائش العنب واللبلاب المتسلق وتشبثت بجدران تلك البيوت، رأيت الكثير من السُناجب تتسلل هنا وهناك في الأزقة المتعرجة. كانت الأجواء نابضة بالحياة ربّما لكثرة الغلمان والأطفال الذين تملأ

ضحكاتهم المكان، وبقيت سحابة من الحزن تظلل وجوه الكبار، لعل هذا بسبب غياب أبنائهم من الشباب فهم عصب الحياة وروحها. مررنا بالعديد من الحوانيت لصانعي الشموع، ومُجلّدي الكتب، والخيّاطين، وورش للحذّادين، وكان الخبّازون يحتلّون جزءًا خاصًا بهم بعيدًا عن كل هذا.

ليتنى أعرف لماذا وكيف أتيت إلى هنا، لم يتوقّف عقلي عن التفكير، كنت أبحث عن طريقة للخروج من تلك المدينة سالمًا دون أن أسبب الضرر لأحد، فتلك مشكلتهم وعليهم حلّها بأنفسهم! لكنني اكتشفت أنّني مراقب من الجميع، كلّ العيون تتبعني وتحصي أنفاسي.

مررنا بساحة واسعة أخبرني «سهيل» أنّ هذه «سوق الخواطر»، أكبر أسواق المدينة، كان الباعة يجلسون على كراسي عالية من خشب الأبنوس وعلى رؤوسهم عمامات وقبّعات غريبة الأشكال والأحجام، والناس يتوافدون عليهم ويقفون في صفوف، جلت بعيني بينهم فلم أجد بضاعة معروضة، والتفت نحو من ينصرفون عنهم فلم أجد أيًا منهم يخرج بمشتريات يحملها بين يديه! سألت «سهيلًا» والفضول يقتات على رأسي:

- أين البضائع؟

لاحت على شفتيه ابتسامة ساخرة وهو يقول:

- في الرؤوس والصُّدور.

- ماذا تعني؟

أشار إليّ لأتبعه ووقفنا أمام أحد الباعة وكانت هناك امرأة في عقدها الخامس تتحدث إليه وآثار المرض تبدو عليها، قالت بصوت كانت تعافر لتخرجه من حلقها:

- أريد شراء البعض من السكينة.

- وماذا ستمنحين في المقابل؟

- الكثير من الألم.

أغمض التاجر عينيه وفتح يديه ووضعهما بجوار بعضهما وكذلك فعلت هي بيديها، وظل كل منهما ينفخ في كفيه فتناثر غبار أبيض من يديه وآخر أسود من يديها واختلطا في الهواء فبينما تغيرت ملامح البائع وبدا وكأنه مرض للتو، تبدلت ملامح المرأة وراق وجهها فابتسمت، ألقت عليه التحية وانصرفت وهي تهوول فرحة بعد أن زال عنها الألم. لم أتمكن من كبج جماح فضولي فسألته مستنكراً:

- وماذا ستفعل بالألم!

هز كتفيه قائلاً:

- أبيع له لمن يرغبون في البكاء.

- وهل هناك من يرغبون في البكاء؟

- بعض النفوس تكتم حزنها فتضيق الصدور وتكاد القلوب تتفتت وتتصدع ولا يريحها إلا الدُموع.

- والمرض، كيف تشتريه؟ ألا تخشى الموت؟

- لم أشتِ المرض! اشتريت الألم وحسب، يبدو أنك لا تعرف شيئاً

عن سوقنا، ألم يُخبرك أحد أن في الدُموع شفاء؟ وأن البكاء يُسرّي

عن الفؤاد المحزون؟

لكزني «سهيل» في كتفي ووقف أمام البائع وقال له:

- حسنًا يا سيدي، أريد أن أبيعك بعض الحماس.

- وماذا تريد في المقابل؟

- القليل من الحكمة.

بسطا كقوفهما وتبادلا الحماس والحكمة كما يزعمان، كانت الأفكار تتدافع في رأسي كأمواج هائجة لا تهدأ ولا تستقر، لكنني أثرت الصمت، فكلُّ شيء غريب وما حولي يزداد غرابة. ابتعدت مع «سهيل» ومررنا برجل يحمل قدحاً فيه ماء، يُبلل إصبعه ويكتب في الهواء شيئاً، عندما وقفت لأنصت وجدته يُردد أشعاراً بليغة، سألت «سهيلاً»:

- ماذا يفعل بالماء؟

- يكتب الأشعار التي يؤلفها في الهواء وتصل الأبيات إلى من يحتاج إليها.

- وكيف تصل؟

- يحملها الهواء إلى أذن المُرسَل إليه، تلك المرأة التي تقف أمامه وتحمل طفلها تأتي إلى السوق كلَّ يوم وتطلب من الشاعر إرسال الأشعار إلى زوجها.

- وأين ذهب زوجها؟

- الله وحده يعلم أين ذهبت به أحجار «تروقانتس»!

- وماذا يأخذ مقابل أشعاره؟

- الهدوء وراحة البال! الشعراء في صراع دائم مع وجدانهم، يشكون الحزن دوماً.

- تولد الأشعار من تلك المساحات المعتمدة في صدورنا، لا ريب أنه يُعاني، هكذا المبدعون.

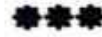
مررنا برجل آخر يعضُّ على يديه بكلِّ قسوة ويكاد ينتزع لحمهما بأسنانه فهمس لي «سهيل»:

- ذلك الرجل يأتي دائماً ويتهاقت عليه التجار لشراء الندم منه.

- وماذا سيفعل الناس بالندم؟
- يطلبه أصحاب القلوب القاسية أحيانًا لتلين قلوبهم، وقد تشتريه النساء لأزواجهن ويمنحنه لهم.
- وماذا يبيعون أيضًا؟
- الكسالى يأتون لبيع النوم ليشتريه المصابون بالأرق، والعباقرة يأتون لبيع حفنة من الذكاء وبعض الأفكار المفيدة ليشتريها من يعانون قلة الفهم وشح الذكاء.
- وقعت عيني على ثلاثة من التجار قبّعاتهم عالية وملونة وقد علّقوا فيها الأجراس، بينهم امرأة لم أتبيّن لها إلا عندما اقتربت أكثر وكان أمامهم زحام شديد، فسألت «سهيلًا» عنهم فقال:
- هؤلاء يشترون الأخبار والأسرار والفضائح وأخبار الموتى.
- وما الذي يمنحونه في المقابل؟
- تلك الأشياء غير قابلة للمقايضة، الناس يتبرّعون بها للخلاص منها وبعضهم يأتي خصيصاً ليفضح الآخرين وحسب.
- ماذا يفعل بها التجار؟
- يدفنونها في «مقبرة الأسرار»، لكنهم يبيعون القهر والقصص الحزينة والكوارث التي تأتيهم للنساء.
- يا إلهي! حتى نساء «تروفانتس» يعشقن النكد!
- فهقه «سهيل» ضاحكًا فالتفت إليه من حولنا وراحوا يُحدّقون تجاهنا، اكتشفت أن «سهيلًا» يُعدّ عملة نادرة، فهو شاب عشريني يجول في مدينة مليئة برجال وكهول أصغرهم تخطى الأربعين من عمره، والغلمان قليلون، حتى جنود المدينة كانوا في عقدهم الثالث تقريبًا، لا

ريب أنه يفتقد أترابه، سألته عن خريطة دقيقة للمدينة، فقال بتصميم وهو يستدير:

- لنذهب إلى حانوت أبي.



كان السيد «نعش» في أواخر العقد الخامس من عمره، لا يزال يحتفظ بلباقة الأربعينات بيد أن الحزن قد جعل تقاسيم وجهه توحى بعمر أكبر مما كان عليه، حزنه على اختفاء ولده «زهير» الذي لا يختلف عن حزن باقي الآباء والأمهات من أهل المدينة كان يقسم ظهره، فهو يعلم أنه على قيد الحياة في مكان ما لكنه لا يملك الوصول إليه.

هرولت «بنات نعش»^(١) نحوه، هكذا يطلق الناس عليهن، فالشبه الشديد ليس بين وجوههن ولون شعورهن الذهبي فقط بل في أسمائهن أيضاً، «تالا ولارا» توأمتان، «دنيا ولينة» توأمتان، «ديالا، دانية، ديمة» الأصغر بينهن كذلك لهن أسماء متشابهة! وذاك شيء يشلّ العقل! وكنت أتعجب من اسم أبيهن، فالنعش هو سرير الميت، لكنني علمت من «سهيل» أن أهل «تروقانتس» يتفاءلون بسرير الميت لأنه يُحمل عليه إلى حيث يبدأ رحلته للقاء خالق الأكوان.

هشّ وبشّ الرجل لبناته ورخب بنا، أخبرني «سهيل» أن حانوته يُعد مقهى ثقافياً لسكان الحي الذي يقطنون فيه، الرُفوف من خشب الجوز وتستقرّ عليها مجلدات الكتب ولفائف المخطوطات، هناك درج خشبي يقود إلى طابق سفلي وكأنه مخزن، المصابيح الزيتية تملأ الأركان، كان يُجالس ثلاثة من الرجال في عمره نفسه، عندما انضمت إلى مجلسهم

(١) بنات نعش هو اسم أطلقتته العرب على كوكبة الدب الأكبر، التي تتكون من سبع نجوم رئيسية؛ الأربع منها تشكل «النعش» أو سرير الميت، والثلاث التي تتبعها في الذيل تسمى «البنات». تُعد هذه الكوكبة من أشهر المجموعات النجمية.

سكنوا جميعًا وتعلقت أعينهم بوجهي، أربكني هذا فقال «سهيل»
ليصرف أنظارهم عني:

- لدينا خريطة للمدينة، أترغب في رؤيتها؟

- بالتأكيد.

أسرع أبوه وجلب خريطة من الجلد ملفوفة بعناية وعليها أحرف
عربية مدموغة وبسطها على الطاولة وأخذ يُشير إلى معالم المدينة
ويُحدثني عنها، وكنت أحاول رسم الطرقات في مخيلتي لأحفظها لعلّي
أستطيع الفرار منهم لاحقًا، فما زلت أشعر أنني لا أنتمي إلى هذا المكان
وليس عليّ إلقاء نفسي في أتون قضايا وألغاز غامضة لا أعرف كنهها
ولا أدري سببها من أجل قوم لا أعرفهم، لست مجبورًا على هذا أبدًا.
انتهى من وصف المعالم وسألني:

- أين البوابات التي كنت تفتحها في أحلامنا المتكررة؟

بدأت دقات قلبي تتواثب، لزمت الصمت، سألني أحدهم وهو يبتسم
راجيًا:

- هل ستساعدنا في البحث عنها لإنقاذ أبنائنا؟

- لا أدري.

تلاشت ابتسامته وكأنه مسحها بمنديل وقال بغضب:

- كيف لا تدري!

- ضع نفسك مكاني يا سيدي، أنا غريب عنكم ولا أعرفكم، والآن
تسألونني عن ألغاز غامضة ومبهمة، وبوابات قد تكون الجحيم
بعينها!

ضرب الرجل الطاولة بقبضته وقد شغلت حدقته القزحية بأكملها
وقال:

- لو استطعت الوصول إلى تلك البوابات لأخرجت ولدي منها وما اضطررت إلى تسؤل هذا منك.

- لكنني...

- صه.

خرج الرجل غاضبًا وهو يهدر ويسبني، قال آخر وهو يرشقني بنظرة احتقار:

- تتسبّد علينا ولعلك أرعن وفاشل ولن تستطيع فعل شيء.

تبع رفيقه للخارج وانضمّ إليهم الثالث في صمت، وبقيت مع «سُهيل» ووالده الذي قال وهو يلفّ الخريطة مرّة أخرى:

- أعتذر منك، ما كان ينبغي لهم وصفك بتلك الكلمات القبيحة.

- لا عليك يا سيّدي.

- لا ألومك على رفضك، لكنك الأمل الوحيد لنا، فقد تحررنا من الأغلال التي تأسرنا وتكون سببًا في انكشاف تلك الغمّة.

- لا أرى في نفسي القدرة على هذا، أنا شاب عادي!

- امنحنا فرصة.

- وددت هذا لكنني عاجز حتى عن إنقاذ نفسي مما أنا فيه.

هزّ رأسه متفهمًا وقال:

- رأيناك تتألم كثيرًا وتبكي في أحلامنا، الفقد موجد، والوحدة مؤلمة.

- حقًا؟ إذا تعرفون أنني غارق في حزني وكأبتي.

- لعل جراح نفسك ستشفى هنا.

- كيف؟

- أحيانًا يكون علاج أرواحنا في منح الآخرين فرصة ما، برفع المعاناة أو تخفيف الحمل عنهم، رؤيتهم بخير تنزح الحزن عن صدورنا.

- كنت كذلك، لكنني بعد فراق أبي وأمِّي وهجرة أخي صرت أشعر بالخواء.

- أخشى عليك من...

دلف الحانوت غلام أمرد، نظر إلى وجهي وكانت عيناه تُنبئان بالخطر، سأله «سُهيل» فور أن رآه:

- ما بك يا «سُبروت»^(١)؟

- القوم غاضبون.

أخرج من كم قميصه ثلاثة تروس من نحاس وأعطاهم لي وقال هامسًا:

- يقول أبي إنَّ عليك أن تبقيهم معك.

تناولت التروس متعجبًا، خرج الغلام مسرعًا وكأنَّه يهرب من أحد يُلاحقه، سألت «سُهيلًا» عنه فقال إنَّ اللعنة طالت أباه وقد اختفى لكنَّه يسمعه وهو يحدثه دائمًا، سألته متعجبًا:

- كيف؟

- يسمع صوت أبيه في عقله.

- تقصد بالتخاطر؟

- نعم. ولكنَّه يسمعه فقط، فقد جرَّب أن يُجيبه لكنَّه يشعر أنَّ أباه لا يسمعه، تستطيع وصفه بأنَّه تواصل من جانب واحد.

(١) السُبروت هو القليل من الشيء، وكذلك يُطلق على الفقر.

تناهى إلى مسامعنا صوت جلبة تقترب، خشينا أن يعود الغاضبون
للجدال، قال السيد «نعش» بهدوء شديد:

- حسنًا يا «ممدوح»، هيّا لنخرج معًا وكأننا سنتجول في أروقة
المدينة.

- فليكن هذا يا سيدي.

التفت نحو بناته وأوماً إليهنّ فأحطن بنا، تقدّمتنا التوأمتان
الكبيرتان، وسارت على يميننا واحدة منهن وتوجّهت توأمتها ليسارنا،
وتبعتنا الصغيرات الثلاث في صمت مهيب.

دسستُ التروس في جيب قميصي وخرجت معهم، كان أهل المدينة
بالفعل أمام الحانوت ينتظروننا، دوى في الأجواء صوت غريب وكأنّ
هناك جمرّة تنطفئ في الماء وكان عاليًا ومهيّبًا، أجفّلت فأمسك «سهيل»
بذراعي وقال:

- لا تقلق، تلك جذوة النّهار تنطفئ في ماء بحر «قاغ» المحجوب
عنا وهذا صوتها.

أظلمت السّماء فجأة، وكان هذا أقسى غروب رأيتّه في حياتي، أدركت
حينها أنّ من لطف الله تدرج انسحاب الضوء في الأفق بألوانه البديعة
كلّ يوم حتّى لا يفزع البشر من الظلمة التي تكسو السّماء فجأة، ولكن
أين نحن الآن؟

وكيف تنطفئ جذوة الشّمس!

هذا مستحيل!

لعلّه نجم آخر غيره!

أو لعلّ النّهار هنا يتنفس بهذا الصّوت!

يا إلهي! أين نحن الآن؟

همست وأنا أحدِّق أمامي فسمعني «سهيل» وأنا أقول:

- مستحيل! الشمس لا تنطفئ!

- أدري، ولكنه صوت يتزامن مع لحظة الغروب.

- منذ متى وأنتم تسمعونه؟

خَفَضَ من صوته وقال:

- قبل أن تحدث اللعنة بعام.

- لماذا تُخَفِض من صوتك هكذا؟

- لأنني سأحدث عن الزَّمن، ألم أخبرك أنَّ أهل المدينة يكرهون الحديث عنه.

طفقوا يشعلون المصابيح والشُّعل، رأيت على جبين «سهيل» رمزًا غريبًا يضيء ويزداد بريقًا ووضوحًا، وكان لجناحين مبسوطين لطائر لا يظهر رأسه، وإذا بجباههم جميعًا كذلك تحمل رمزًا أخرى مختلفة بعضها نقاط وخطوط وأشكال هندسيَّة غير مكتملة، وبعضها صور لزهور عجيبة وطيور وكائنات غريبة، وكأنَّ أحدهم رسمها على جباههم بقلم من نور، قلت وأنا أمرر يدي على جبين «سهيل»:

- ما هذا الرَّمز الغريب!

- أيُّ رمز؟

- هذا الذي يضيء على جبينك!

فرك جبينه وقال وهو مذهول:

- أترى شيئًا على جبيني؟

- نعم.

توقَّف أبوه عن المسير والتفت نحوي وسألني:

- ماذا تقول؟

- هناك رمز على جبينه، وكذلك أنت!

دارت رؤوس «بنات نعش» فرأيت الرموز تتوهج على جباههن فقلت
وأنا أكاد لا أصدق ما أراه:

- بل جميعكم كذلك!

تعاليت الهمهمات وبدأ أهل المدينة يطالعون وجوه بعضهم بعضاً
ويتساءلون فهم لا يرون شيئاً مما أصفه، كنت أنا فقط من أرى تلك
الرموز كما أرى الألوان حولنا وكل شيء لا يرونه لأنه حُجب عنهم منذ
أريقَت الدماء على الأحجار، أقبلوا عليّ يسألونني لأصف لهم شكل كل
رمز طُبع على جباههم، الذي لم يظهر لي إلا بعد غروب الشمس أو
ذاك النجم الذي ينير الأجواء هنا! أقبلت «الثريا» مع حراسها فرأيت على
جبينها رمزاً عجيباً! قضينا الوقت وأنا أرسم على الرمال لكل منهم رمزه
ليحفظه، لكنني توقفت فجأة ورفعت يدي فسكتوا وسكنوا وكأنّ على
رؤوسهم الطير، فقد كان في عقلي طابورٌ لا نهائي من الأفكار، كلُّ
واحدة منها تنتظر دورها وتنخر في جمجمتي، عليّ أن أفعل شيئاً!

قررت أن أصنّفهم واقترحت عليهم تسجيل أسمائهم في سجلات
لكي أستطيع ترجمة ما ترمي إليه الرموز ولأربط بينها بأيّ شكل من
الأشكال، وحتى أعرف ما يتكرر منها، راقهم هذا وأسرعوا بجلب الأوراق
والمحابر، وقضينا الليل كلّهُ في تسجيل الرموز، ولأنني الوحيد الذي
يراها كان عليهم أن يفدوا إليّ ويقفوا أمامي، مررت بعيني على وجوههم
فردّاً فردّاً ورأيت وجوههم جميعاً وسمعت أسماءهم وهم يملونها على
السيد «نعش» ورفاقه، أسماء أصلها عربيّ، وأخرى أصلها فارسيّ،
وهنديّ، وصينيّ، ورومانيّ، وعلمت أنّهم جماعات وقبائل رُحّل أتوا إلى

تلك البقعة بالفعل ويعيشون فيها منذ أمد بعيد، بدت ملامحهم مختلفة بالفعل، كلُّ عرق له ما يميّزه من علامات.

أصابني الإرهاق والتعب وكذلك الكتاب فطلبنا أن نكمل في الغد، لكنهم خشوا ألا أرى الرّموز مرّة أخرى وأصرّوا عليّ أن أكمل وتطوّع كتاب آخرون، شعرت بعطفة كبيرة ورثاء نحوهم فقد وجدوا بصيص أمل في تلك الرّموز، لعلّها أحجية وسنحلّها معاً، أو لغز يحتاج إلى حيل وعمل وتدبير، والآن يأملون أن تُرفع تلك الغمّة عنهم ليعود إليهم أبنائهم وتتلوّن الحياة من حولهم من جديد، بقيت معهم لساعات طويلة حتى انتهينا من تدوين كلِّ شيء في آخر ساعات الليل، انصرفوا أخيراً وعدت مع «سُهيل» وأهله إلى دارهم، قدّمت أمّه لي خبزاً طازجاً وبيضاً وكانـ تنظر إلى وجهي برجاء وهي تقول:

- يجب عليك أن تأكل جيّداً، أرجو أن يُعجبك البيض المخفوق بالحماس.

- الحماس! كيف تخفّيقينه بالبيض؟

- كما أدسّ السعادة في الكعكات! ألم تأكل منها؟

- بلى! وضحكت كثيراً مع البنات.

- لعلّ ذاك الحماس يعينك على إتمام رحلتك.

- شكراً لك يا خالة.

- اسمي «رِشاء»^(١)، هل أعد لك قهوة ممزوجة بالحنين؟ أم تفضّل مشروب القرفة خاصّتك؟

- يبدو أنّ كلَّ أسرارِي كُشِفَتْ في أحلامكم يا خالة «رِشاء».

ابتسمت وهي تمسح يديها في وزرتها وقالت:

(١) الرِشاء: نجمٌ نَيّر، وهو الأخير من منازل القمر.

- ما أعرفه أنك تبذل الكثير من نفسك وروحك حتى صرت كقتيل
المصباح وهو في نزعته الأخير قبل أن ينطفئ.

- ماذا تقصدين؟

- لا عليك، تناول طعامك ونم قليلاً فقد أتعبوك اليوم، لا يزال أمامك
الكثير يا مسكين، ولنؤجل القهوة الممزوجة بالحنين للغد.

انصرفت وتركتني مع «سُهيل» وكان يأكل وهو مغمض لعينيّه، أنهى
طعامه وألقى بنفسه على الفراش، تناولت الخبز والبيض وتكوّرت على
الفراش الآخر وأنا أتساءل...

هل سأنام الآن حقاً؟

أم سأستيقظ الآن من ذلك الحلم الغريب.

كنت أهدق إلى سقف الغرفة عندما توالى الرُّموز التي رأيتها تباغاً
في ذاكرتي، شيئاً فشيئاً انطفأ سراج عقلي واستسلمت للنوم لأول مرة
في مدينة عجيبة وصلت إليها بقطار يسير بالفحم وله صفير مهيب،
أتاني من الأزمنة التليدة ليقلّني إلى هنا خلف الضباب، عندما طاردتني
أحجار حية يطلقون عليها «تروفانتس».



@ART_OF_BOOK

المزولة الشمسية

كانت قرون رؤوس الأياثل المتفرعة تُلقي بظلالها المخيفة على
الجدران فأجفلت وصحت قائلاً وأنا أقفز من الفراش:

- يا إلهي! أين أنا؟

انتبهت للتو أنه ليس حلمًا وأنتي بالفعل في مدينة «تروثانتس»،
وتلك الرؤوس قد صاها «سُهيل» بنفسه!

بينما جُلت بعيني في أرجاء الغرفة كانت قبسات الشموع تنبض
وترتعش على حواف الشمعدانات التي أغرقتها شلالات الشموع المتدفقة
بينما خيط الدخان الرفيع يتصاعد منها.

لا يزال «سُهيل» يغط في نوم عميق، خجلت أن أخرج من الغرفة
فانتظرته أن يستيقظ، كان هناك إناء من الفخار به ماء فتوضأت منه
وكنت لا أعلم إلى أيّ جهة سأصلي فاقتربت من النافذة وأزحت الستار
الكتيم فرأيت ضوء الفجر يلوح على استحياء من خلف الجبال البعيدة
فأدركت أن تلك جهة الشرق واجتهدت لأتحرى القبلة الصحيحة وصلّيت
فسكن قلبي وهدأت جوارحي، وبقيت على حالي حتى أزاحت الشمس
النقاب عن وجهها بأكمله.

دلف السيد «نعش» ليتفقدنا وعندما وجدني مستيقظًا دعاني للخروج من الغرفة وكان هو وزوجته يتناولان القهوة، داعبت أنفي رائحة جميلة تنتشر في الأجواء، أومأت إليّ السيدة «رشاء» وسألتني:

- قهوة ممزوجة بالحنين أم الأمل؟

- هل تلك رائحة الحنين؟

- نعم.

- فليكن هذا.

انضممت إليهما وكان مذاق القهوة رائعًا، علمت منهما أنّ البنات السبع لا يزلن غارقات في نهر النوم الجارف كشقيقهنّ، سألني السيد «نعش» بصوته الهادئ:

- هل رأيت حلمًا خلال نومك؟

- لا.

تبادل النظرات مع زوجته وقال:

- رأينا حلمًا جديدًا.

- ماذا! وكنت فيه؟

- بالتأكيد، وسيخبرك الجميع بهذا عندما يلتقونك.

- أخبرني عنه.

- بينما كنت تسير بيننا كان يحمل كلُّ منا إناء من فخار ممتلئ بالماء، وطلبت منا أن نصب الماء في أنية بعضنا بعضًا، وكنا نفعل ما تأمرنا به.

- وماذا بعد؟

١٠. «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»

١١. «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»

١٢. «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»

١٣. «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»

١٤. «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»

١٥. «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»

١٦. «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»

١٧. «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»

١٨. «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»

١٩. «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»

٢٠. «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»

٢١. «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»

٢٢. «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»

٢٣. «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»

٢٤. «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»

٢٥. «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»

٢٦. «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»

٢٧. «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»

٢٨. «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»

٢٩. «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»

٣٠. «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»

٣١. «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»

٣٢. «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»

הנהגות

הנהגות הנ"ל הן חלק מההנהגות הכלליות (1)

הנהגות הנ"ל הן חלק מההנהגות הכלליות

הנהגות הנ"ל הן חלק מההנהגות הכלליות

הנהגות הנ"ל הן חלק מההנהגות הכלליות

הנהגות הנ"ל הן חלק מההנהגות הכלליות

הנהגות

הנהגות הנ"ל הן חלק מההנהגות הכלליות

הנהגות הנ"ל הן חלק מההנהגות הכלליות

הנהגות הנ"ל הן חלק מההנהגות הכלליות

הנהגות הנ"ל הן חלק מההנהגות הכלליות

הנהגות

הנהגות הנ"ל הן חלק מההנהגות הכלליות

הנהגות הנ"ל הן חלק מההנהגות הכלליות

הנהגות הנ"ל הן חלק מההנהגות הכלליות

הנהגות הנ"ל הן חלק מההנהגות הכלליות

הנהגות

הנהגות הנ"ל הן חלק מההנהגות הכלליות

הנהגות הנ"ל הן חלק מההנהגות הכלליות

הנהגות הנ"ל הן חלק מההנהגות הכלליות

הנהגות

הנהגות הנ"ל הן חלק מההנהגות הכלליות

تيك تاك، تيك تاك.

نركض في رواق.

عبرنا المقابر ووصلنا إلى المزولة الشمسية، وكانت تتوسط المدينة لكن الشاخص الذي يُقام عليها لتحديد الوقت كان مكسورًا، بينما أسرع أهل المدينة يبحثون عن أدواتهم لإصلاحه، انشغلت بتفحص قاعدتها المقسمة بخطوط تتغير حسب زاوية وموضع الظل الذي يحدثه الشاخص عليها مع تغير موقع الشمس التي تلقي بضوئها عليه، رفعت عيني للسماء وتذكرت صوت انطفاء جذوة النهار الذي سمعته أمس...

كيف لهذا الصوت أن يصدر؟

ما زلت أتعجب!

ترى هل تلك الشمس نفسها التي تسطح في بلادنا؟

اشتدت حرارتها فانصرف بعض الناس، تعاون من بقي معي من أهل المدينة وأصلح الشاخص، وقفنا نراقب المزولة الشمسية وأعادوا سرد تفاصيل حلمهم الجديد عليّ مرّات ومرّات، قضينا النهار هناك وجلسنا على الأرض نُقلّب في الأوراق التي سجّلنا عليها الرّموز، طفقت كلّ عشيرة تحلل الرّموز الخاصّة بها، وكنت حائرًا، وسؤال واحد لا يزال يتلجج في رأسي...

لماذا أنا هنا؟

حان وقت الغروب فخيم علينا الصمت، دوى صوت انطفاء جذوة النهار كما يصفونه وأظلمت السماء فجأة، وأضاءت العلامات والرّموز على جباههم من جديد، وقفوا يثرثرون حولي، وعيونهم معلقة بوجهي ينتظرون إجابات للكثير من الأسئلة التي تطوف برؤوسهم، أمسك:

برأسي وتمتت بالدعاء، اقتربت إحدى بنات نعش مني ووضعت كفها الصغيرة على جبيني وسألتني:

- هل لديك رمز هنا؟

وثبت في مكاني! كيف لم يخطر ببالي أن أنظر إلى مرآة لعل هناك رمزاً على جبيني، صحت كالمجنون أطلب منهم أن يأتوني بمرآة، وعندما أحضروها تطلعت إلى وجهي فيها ورأيت رمزاً على جبيني بالفعل، تسارعت دقات قلبي بجنون، كان الرمز لرأس تنين عيناها تضويان على جبيني، سألتني الغلام الذي يحمل المرآة عن رمزي، عندما التفت لأجيبه رأيت الرقم اثني عشر يتراقص بين حاجبيه وهو مكتوب بالأرقام الرومانية، وكان هذا أكبر رقم ظهر حتى الآن فجمدت في مكاني!

تذكرت همس «قفزات الضباء»: «تيك تاك تيك تاك نحن في سباق»، فقلت وأنا أطوف بعيني بين وجوههم:

- الساعة، إنها الساعة!

رسمت دائرة على الرمال، وكان أهل المدينة لا يعرفون شكل قرص الساعة بتلك الطريقة فقد اعتادوا المزولة الشمسية قبل أن يحطموها، فأخذت أشرح لهم، وكان من اللافت للنظر أن هناك سبعة أرقام على جباه «بنات نعش» وأيضاً بالأرقام الرومانية القديمة، أوقفت كل واحدة منهن في مكانها، وأوقفت الغلام الذي كان يحمل المرآة على رأس الساعة الثانية عشرة، وبقي أربعة أرقام ليكتمل قرص الساعة، بحثنا في الأوراق فوجدناها قد ظهرت على جباه أربعة غلمان من أربع عشائر مختلفة، فاستدعوهم ووقفوا أماكنهم، وعندها رأيت ظلاً منيراً يطوف بنا، ثم انشق درب طويل جهة الغرب، أخبرتهم أنني أراه محفوفاً بالنور

وسرت نحوه وتبعوني فأكملت السير حتى وصلت إلى نهايته، كان هناك
كومة من أحجار «تروفانتس» مسحت بكفي على الحجر الذي يتوسطها
فدارت الأحجار بانتظام وارتفعت في الهواء وابتعدت عن بعضها لتطل
فجوة هائلة، صاح أحدهم قائلاً:

- تلك هي البوابات التي دخلتها في أحلامنا لتنقذ أولادنا.

بدؤوا ينادون أبناءهم، أشفقت عليهم عندما رأيتهم يفعلون هذا، لم
يجرؤ أحد منهم على اجتياز تلك البوابة، اقترب أحدهم وحاول الدخول
فتحرّكت الصُخور وضربت في ساقه، قال يائساً:

- ليتني أستطيع دخولها. والله سأفعل أي شيء لإنقاذ ولدي!

اندفع «سُهيل» وحاول اجتياز البوابة لكن دفعة قويّة من الهواء ألقت
به بعيداً، كرر المحاولة وفشل، قال أحدهم:

- لم نر أحداً منّا يجتازها في أحلامنا!

قال آخر موجّهاً كلامه إلي:

- هيا ادخل الآن!

أجفلت واقشعرّ بدني، قلت متلجلجاً:

- لكنني أحتاج إلى البقاء بينكم لوقت أطول، لا بدّ أن أعرف عنك
المزيد وأختلط بكم.

- أنت جبان.

قال السيّد «نعش» وهو يُهدّثهم:

- لنصبر قليلاً يا رفاق.

ضربني أحدهم على صدري قائلاً:

- قل إنك تخاف. قلها يا أحمق.

دفعته نحوها قائلاً:

- هل تجرؤ على الدُخول وحدك؟

خيم عليهم الصُّمت، قال أحدهم بنبرة استعطاف:

- أرجوك يا بنيّ ساعدنا، رأيناك تفعل هذا ونعلّق عليك آمالاً كبرى.

قالت السيِّدة «رشاء»:

- أنت هنا لأنك الوحيد القادر على منح الآخرين شيئاً من نفسك،

امض يا بنيّ والله سيحفظك.

- يبدو الأمر مخيفاً.

- الخوف الذي بداخلنا يبدو دائماً أكبر من الحقيقة.

- وماذا لو كانت تلك طريقة خاطئة وسأؤذيكم بدخولي!

قال السيّد نعش وهو يضع يده على كتفي:

- ليس من الضروري أن تكون كلُّ خطوة تخطوها وريّة، وليس

كلُّ طريق ستسلكه خاطئاً، ما دمت تتقدّم للأمام فالنّجاة مصيرنا جميعاً.

- سأكون وحدي!

برزت الأميرة الثُّريا من بينهم واستلّت سيفاً من أحد جنودها وحملته على كفيها وأحنت رأسها وقدمته لي وكأنّها تقدّمه لفارس وقالت:

- ربّما الطريق الذي تخاف منه هو الطريق الذي سيقودك للحقيقة، ولخلاصك مما يأسرك، ونجاحك للوصول إلى ذاتك من جديد.

- لماذا تحدثيني وكأنني سأفعل هذا من أجل نفسي وليس من أجلكم؟

جلست على ركبتيها لترجوني ففعل الجميع مثلها، شعرت بحرج شديد، كان قلبي يخفق بشدة فأهل المدينة جميعاً يُناشدونني وكأنني منقذهم الوحيد، همست قائلاً:

- سأذهب.

وقفوا جميعاً مستبشرين وطفقوا يُحفّزونني بكلمات حماسية، أعطاني «سهيل» قوسه وجعبة السهام وأنا لا أجيد استخدام أسلحتهم تلك لكنني حملتها لعلها تنفعني، ومنحني رجل آخر خنجره، كانت يداي ترتجفان، علّقت السيّدة رشاء حقيبة من قماش في رقبتني وكان فيها فطيرتان وكعكتان، أغمضت عيني لأحاول استعادة رباطة جأشي، لماذا عليّ أن أدخل وحدي؟

حاولت أن أبدو قوياً وأنا أقول:

- «تستطيع أن تفعل ما يحلو لك في أيّ وقت يروقك! فنحن لا نرغب في مراقبة الوقت»، أليس هذا شعاركم؟ والآن تتعجلونني! بسط الصّمت رداءه فوقهم، أضفت محاولاً إقناعهم:

- ما رأيكم أن ننتظر إلى الصّباح، لعلّ «سهيلاً» أو أحدكم يستطيع الدّخول معي.

فجأة! حملني الرجل الذي وبّخني منذ قليل ووصفني بالجبن وألقاني في غيابة تلك البوابة فانسحق قلبي، وسمعت أصوات الأحجار وهي تصطك ببعضها بعضاً وتغلق الفتحة خلفي.

المتاهة الأولى

بدت البوابة وكأنها فم لوحش كاسرٍ يلتهمني فدُفعت في دهاليز ملتفة، وقُذفت في أتون دوامات من دوائر متداخلة من الألوان ماغت ببعضها فانزلق جسدي وكنت أهوي بسرعة شديدة، تلاشت الألوان واشتدّ الظلام أكثر ثم سقطت على أرض رطبة تفوح منها رائحة العفن، انبثق ضوء خافت وكأنه ضوء شعلة تلوح في آخر ممرٍ كنت أقف على رأسه، سحقاً لهذا الرجل. لقد ألقاني في المتاهة ليلاً! حتى إنه لم ينتظر للصباح!

أجفلت عندما لاحت لي خيالات على الجدران، أشهرت السيف أمامي وسرت نحو مصدر الضوء ووجدتني ألتصق بالجدار وأنا أتحرك ببطء من مكان لآخر. كانت الممرات تدور كدوامة لا نهاية لها، كلُّ ممرٍ يقود إلى آخر بلا منطق، تتقاطع الممرات بغرابة وأعود أحياناً إلى المكان نفسه وكأنني في حلم بعقل لا يريد أن يصحو أبداً! هناك أصوات مكتومة لخطوات وثيدة، وهمس خافت يشبه الأنين وضحكات بعيدة، كانت الأرض ترتفع بالتدريج تحت قدمي والهواء يبدو ثقيلاً ومعبأً برائحة ملح البحر.

بينما بدأت المتاهة تتبدل وتتغير كنت أتقدم فيها، وكلما ازداد خوفي
ضاق، وعندما وقفت لأهدئ من روعي شعرت أنها تتسع وكأنها تختبر
صبري وثباتي وتسالني...

هل ستحمل؟

هل ستقدر؟

لطالما أحببت الوحدة، فما رأيك بها الآن؟

كان الضوء يخفت أحياناً فأفاجأ بحجرين يطيران في الهواء ويصطدمان
فينطلق منهما شرر وتُشعل نار يظلُّ لهبها متصلاً ومتقدماً وكأنَّ هناك غازاً
يتسلل من بينهما! أدركتُ أن تلك الأحجار تُرشدني بطريقة ما وتنير لي
الطريق. وصلت إلى بهو سقفه مرتفع ويطل من أعلاه لسان من اللهب،
كان يؤدي إلى اتجاهين وكان عليَّ أن أختار واحداً منهما.

يا إلهي! كلاهما مظلّم، كلاهما مخيف، ولن أستطيع العودة، ماذا
أفعل؟

لا أعرف كم مضى من الوقت وأنا أقف متخبطاً في حيرتي، اخترت
الممر الأيمن ودخلته وقلبي يخفق خفقاً، بدا وكأنه ينمو من رحم الحلم
لا رحم الأرض، فقد أضاءت الجدران فجأة وكأنها من أحجار البلور،
وبدأت الرموز والحروف تتلألأ عليها، لمست الحائط فشعرت بنبض
خافت يسري فيه، وصلت إلى طريق مسدود فرجف قلبي، كنت يائساً
وخائفاً للغاية، صحيح أنني وحدي لكن الله معي! ولن يتركني أبداً!

قلت «يا رب» فخرجت من قلبي كما لم تخرج من قبل، شعرت بدبيب
خفيٍّ لخيوط الرجاء وهي تُغزل بين جوانحي.

انشق الجدار وأطلت ساحة واسعة أرضها مليئة بأحجار «تروفانتس»،
وكانت مضاءة بلون سماوي شاحب، قفزت للداخل هرباً من الطريق الذي
سلكته للتو وكان مقيتاً، تنفست الصعداء وظننت أنني تجاوزت أصعب

جزء في المتاهة ولكن فجأة! بدأت الحجارة تتحرك وتغير من ترتيب أماكنها، كدت أسقط عندما فُتحت تحت قدمي فرجة واسعة فقفزت لأنجو بنفسي، وفور أن ابتعدت عادت ترتفع وتنخفض فأدركت أنني وقعت في الفخ، ظننتها ستسمح لي بالوقوف عليها كما حدث من قبل لكنها لم تفعل! رحت أهرب من الشراك التي تنصبها لي الأحجار، سقط مني السيف والخنجر وجعبة السهام فألقيت الحقيبة القماشية بما فيها، فتلك رحلة لن تنفعني فيها تلك الأسلحة، ليس هناك عدو لأقطع رأسه أو أطعنه في قلبه، العدو هو الطريق الذي أسلكه وعلي أن أهرب من عثراته وشراكه وأتقيها حتى أصل إلى بر الأمان. رأيت بروزاً في الجدار فتعلقت به لأرفع جسدي وحينها توقفت الأحجار عن الحركة، عندما أَلمتني يدي سقطت، عادت الأحجار تتحرك وتغير من تضاريسها، أصبت في ركبتني وذراعي وأنا أتسلق وأقفز وأهرب وأحلل حركتها لأتفادى السقوط، ازداد تركيزي في تقلباتها ونقلاتها الفجائية، لم أنتبه لدماثي التي سالت عليها فازدادت شراهة وكأنها وحوش تطاردني وتتغذى على حيرتي! زادت من سرعة تغييرها لتضاريسها لهذا قررت ألا أكتفي بالهرب منها بل سأتقدم للأمام بينما أفر منها، وكنت أعلم أن ابتعادي عن الجدار أكثر خطورة فلن أجد ما أستند إليه، بدأت أتقدم يميناً تارة، يساراً تارة أخرى، للأمام مرّة... أقفز ثم أقف! وقد أسقط وأحاول التملص منها.

أُصبت في ركبتني الأخرى، كاد أحد الأحجار أن يعصر ساقي فأوقفته بالقوس الذي سحبته بسرعة من فوق ظهري فقد كان آخر ما بقي معي وكنت قد فقدت سهامه بالفعل، بدأت أتقدم وتحملت الألم لأكمل الطريق، عندما اقتربت من البرّ الأمن من الساحة لاح لي باب من الفولاذ عليه تروس مختلفة الأشكال والأحجام، تذكّرت الغلام «سبروت» فتحسست جيب قميصي وكانت التروس لا تزال هناك ولم تسقط والحمد لله نظراً لحوافها التي تعلقت بالنسيج، وثبة أخيرة سقطت فيها على حجر

تسبب في جرح عميق بساقي فصرخت صرخة تردد صداها في الأجواء،
لم يكن هناك مجال لكي أقف وأتألم أو أتفحص جراحي، هربت من
اصطدام حجرين آخرين، وضربني ثالث في كعبي، وأخيرًا وصلت إلى
الباب، وقفت أمامه لالتقط أنفاسي ونبضات قلبي تدق رأسي كطبول
حرب، مسحت العرق عن جبينني بطرف قميصي وأخرجت التروس بيد
ترتعث وأخذت أفحص اتجاه انزلاق التروس على بعضها فوق الباب،
كان علي أن أضعها في المكان الصحيح لكي تدور مع البقية ويُفتح
الباب، أو لعلها ستدور ويحدث شيء آخر. لا أدري!

توقفت فجأة ودار في رأسي هاجس، ماذا إن لم يُعطني «سُبروت»
التروس؟ أو قد تكون لشيء آخر! لا ريب أن هناك حيلة أخرى لفتح
الباب، أعدت التروس إلى جيب قميصي، ووقفت أحل وأفكر كما كنت
أفعل دائمًا قبل أن يجمد عقلي وأعتزل الناس، فقد كنت شهيرًا بذكائي
في حل تلك الأحاجي. بدأت أتفحص التروس بأطراف أصابعي واحدًا
تلو الآخر، فتحرّك أحدها تحت إبهامي، حاولت خلعه من مكانه فتحرّك
ببساطة ويسر، أمسكته وبحثت عن مكان آخر يناسب قياسه ويسهل
دوران التروس كلّها، وعثرت بالفعل على مكان مناسب وعندها تراءى لي
مكان لترس آخر فبحثت عنه وبدلت مكانه، كنت كلما نقلت ترسًا انحل
آخر من مكانه وسهل نقله، وبعد محاولات عديدة انزلت التروس على
بعضها وأصدرت صوتًا مجلجلًا وانفتح الباب وأصدر أزيزًا وصريًا عاليًا.
كانت هناك ساحة أخرى واسعة ومن سقفها تتدلى خيوط من نور
سائل كان يسقط ويسيل كما يسقط الشمع المنصهر ويقطر على الأرض
كالندى الرقراق وكأنّ الوقت يسيل فوق رأسي!

خرجت من الساحة فوجدتني أخرج من فوهة كهف فوق جبل أيهم،
ضربت الرياح ثيابي فاقشعر جلدي من بردها، وقفتُ أتأمل صفحة
السّماء التي بدت كنسيج من القطيفة السوداء الموشاة بالنجوم الفضية،

خشيت أن أتحرك فأسقط ويدق عنقي فالعتمة شديدة، بقيت قرب فتحة الكهف لعل خيوط النور السائل تُضيء لي، داهمني شعور بالخوف والرّهبة فجلست أنتظر أن يللم ذلك الليل البهيم عباءته، بدأت أجفاني تتناقل فاستلقيت بجوار فتحة الكهف واستسلمت للنوم.

كنت قد تيممت وصليت ولم أنم إلا بعد أن لمس الفجر حواف الأفق بيده البيضاء، استيقظت بعدها وجسدي يؤلمني، وخصيصي ساقي فجرحها عميق ويحتاج إلى التقطيب، مزقت أكمام قميصي لكي أتمكن من تضميد ساقي بعناية، نظرت خلفي وكانت فوهة الكهف لا تزال مفتوحة وخيوط النور السائل لم تنقطع عن السيلان من سقفها على أرضها وكانت تُظلم فور أن تلمس سطح الأرض! سرت نحو الغرب باحثاً عن أي أثر لبشري هناك، وكانت الأرض تنحدر للأسفل كلما مضيت في طريقي، داعبت أنفي رائحة عطرية قوية فعطست وإذا بصوت يصيح فور أن سمعني أعطس وكان يقول:

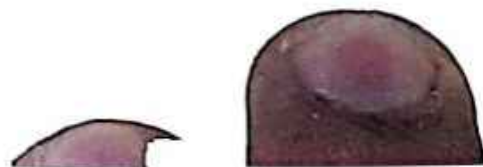
- يا صاحب العطاس، ساعدني أرجوك!

أجبتة وظللت أناديه لكي أستدل على مكانه، وعندما وصلت فوجئت بشاب عالق في صدع بالجبل وكان مقلوباً ورأسه للأسفل يتدلى منه شعره الغزير الناعم، كان يرتدي بنطالاً من الجينز وقميصاً صوفياً فأدركت أنه ليس من أهل مدينة «تروفانتس»، قلت وأنا أحاول الوصول إليه:

- منذ متى وأنت هنا؟

- قبيل الغروب أمس، رأسي يكاد ينفجر أرجوك ساعدني.

شعرت بالارتباك فقد يسقط في أي لحظة ولن أحتمل هذا! وعلي أن أفكر بسرعة، قلت له لأطمئنه حتى أبحث عن شيء أسحبه به:



- سنحتاج إلى حبل طويل فالصدع تحتك ضيق جدًا ولا بد من سحبك للأعلى.

- قدمي تؤلمني للغاية، أظنّها كُسرت.

كانت ساقه محشورة بين حجرين والأخرى عالقة بالحذاء في نتوء بارز، وكان هذا من لطف الله به فلولا هذا التعلق بالبروز لدُكَّت عنقه في الحال، قال وهو يغالب الألم:

- لديّ حبل طويل وخطاطيف بحقيبتني ستجدها بالأعلى، واحذر أن تنزلق قدمك فالأحجار هناك ملساء.

صعدت حيث دلّني فوجدتها أحجار «تروفانتس» التي بدأت تتحرّك فور أن وضعت قدمي عليها، فخلعت حذائي ووقفت عليها حافيًا فالتصقت قدمي بها فسكنت، سرت فوقها بأريحية ووصلت إلى الحقيبة وأخرجت الحبال وثبّتها بالخطاطيف في بروزات بالجبل ودليتها حتى وصلت إلى مستوى ساقيه، نزلت وربطتهما وكان سحبه تجاهي وللجانب صعبًا، بدا لي أنّ إخراجيه سيكون بسحبه للأعلى كما توقعت سابقًا، فصعدت مرة أخرى لأقف حافيًا من جديد على الأحجار وبدأت أرفعه لآيًا فلاّيًا، وفجأة تحرّكت الأحجار وتباعدت حول ساقه فطلبت منه مد ذراعيه باستقامة وكأنّه يقفز في الماء لكي يسهل سحبه من قلب الصدع فنجحت في مساعدته، عندما اعتدل شعر بدوار فأعنته على الجلوس، وكانت قدمه تؤلمه بشدّة، همس بخفوت:

- شكرًا لك يا...

- «ممدوح».

أمسك رأسه وشكا من صداع شديد، بدا لي أنّه شاب مرفّه وكان هذا جليًا من طريقة حديثه وحتى ثيابه وهيئته، قلت له:

- لا أصدق أنّك صمدت لهذا الوقت! لقد لطف الله بك.

- قضيت الليل على تلك الحالة، ظننت أنني هالك.
- رفع عينيه الكابيتين تجاهي وقال وهو يشير إلى الدماء على بنطالي:
- ما الذي أصاب ساقيك؟
- أصبت بجرح عميق.
- لا ريب أنك تعرضت لحادث.
- سرت في متاهة عجيبة.
- متاهة!
- عاد يطالعني بتعجب وقال:
- تبدو ملابسك غريبة! هل أنت من البدو؟
- البدو! لا، لقد استعرتها من أحد سكان المدينة هنا.
- مدينة!
- نعم! ألم تأتِ على متن ذلك القطار العجيب؟
- قطار! لا أظنُّ القطارات تصل إلى هنا وسط الصحراء!
- كيف وصلت إلى هنا؟
- سكت وكأنَّ كلَّ الكلمات هربت من فمه، دار بعينه يمينًا ويسارًا وقال:
- أشعر أنني مشوش.
- أطرق قليلًا وحاول أن يتذكَّر، قال بصوت رتيب وكأنَّه يشكُّ في صحَّة ما سيقوله:
- أظنني كنت أقود سيَّارتي وضللت الطريق.
- هل كنت وحدك؟
- صمت وجمد كتمثال من نحاس ثمَّ رفع عينيه تجاهي وقال والقلق يتذبذب في مقلتيه:

- أظنني كنت مع رفاقي في رحلة استكشافية حول جبل «أم شومر» في سيناء، لعل هناك مخيماً على مقربة من هنا.
- تسارعت دقات قلبي، هل عدت إلى عالمي ونجوت مما كنت فيه؟
- لم تكتمل فرحتي فقد خيب ظني عندما قال:
- ما أخافني بحق ذلك الصوت الذي سمعته وقت غروب الشمس، أظنني فقدت الوعي حينها لأنها أظلمت فجأة فأصابني الرعب الشديد.
- هل مررت بحقل أحجار «تروثانتس»؟
- شخص في ذهول وقال:
- أحجار «تروثانتس» هنا؟
- وهل تعرفها؟
- بالتأكيد!
- ثم أغمض عينيه فجأة وكأن أحدهم طرقه على رأسه بمطرقة، سألته
- وكنت أخشى أن يفقد وعيه:
- ما اسمك؟
- يا إلهي! لا أذكر اسمي!
- فتش في جيوبه وأخرج محفظته وأعطاهما لي، كان مستسلماً للغاية،
- اطلعت على بياناته وعندما أعدتها إليه نظر إلى بطاقته طويلاً وكأنه
- يحاول التعرف على وجهه ليجترّ الذكريات، قال بصوت واهن:
- اسمي «مازن الخولي».
- كان هناك العديد من البطاقات تركها بين يديّ وأمسك رأسه مر
- أخرى، قلت وأنا أتفحصها:
- أنت مهندس جيولوجي وتعمل في المركز القومي للبحوث
- الجيولوجية.

- يبدو هذا! وأنت؟

- طبيب بيطري.

جلسنا لنحو ربع الساعة حتى استعاد توازنه، أحضرت له حقيبتة وفتش فيها عن هاتفه الجوال ولكنه لم يجده، شعرت أن حالته تحسنت بعد أن تناول قطعة حلوى كانت معه وقسم الماء الذي كان يحمله بيننا، حينها قال:

- حسنًا يا دكتور «ممدوح»، أرني أحجار «تروفانتس» أرجوك، فأنا أتوق لرؤيتها، سيكون من الرائع إدراجها في أطروحتي، لا أصدق أنها في صحراء مصر.

- نحن في مدينة «تروفانتس»!

- لا توجد مدينة بهذا الاسم.

- ما دمت قد سمعت صوت انطفاء جذوة النهار فنحن فيها.

- جذوة ماذا!

- اسمع مني أولاً.

- هات ما عندك.

قصصتُ عليه ما مررت به بالتفصيل ووصفت له المتاهة، بدا الاضطراب على وجهه، تركني حتى انتهيت من قصتي وقال باستنكار:

- مستحيل! ما تصفه غير منطقي، هذا كلام عائم لا رأس له ولا ذيل!

- أقسم لك إن هذا ما حدث.

- كل هذا ضرب من الخيال، وجذوة النهار لا تنطفئ أبدًا! أظنُّها شعلة!

- أعلم هذا يقينًا، لكنني أعتقد أن ذاك الصوت لشيء آخر يتزامن مع غروب الشمس! وفيه سرٌّ سأعرفه لاحقًا.

- تقول إنك من الإسكندرية، وأنا كنت أسير في صحراء سيناء، كيف
تلتقي ببساطة هنا!
- ألم أخبرك أن القطار...

قاطعني قائلًا وهو يربت صدري:

- دعك من القطار الذي يسير بالفحم وتلك المدينة التي تحكمها
قيثارة! ساعدني لنصل إلى الطريق الرئيسي لعلَّ سيَّارة تمرُّ من
هنا، لا ريب أنَّك تعرَّضت لحادث وهذا اضطراب ما بعد الصدمة،
أنت تحتاج إلى شطيرة من اللحم يا صديقي ومعها كوب كبير من
القهوة وستكون في أفضل حال. صدقني.

حاول أن يقف فألمته قدمه فأسندته، طالع وجهي وتمتم قائلًا:

- هكذا نكون عندما تحتاج عقولنا إلى الكافيين والسكر، حتى أز
جائع للغاية.

سرنا معًا ببطء وهو يتكئ على ذراعي ويستند بيده الأخرى علم
غصن يابس انتقيته له ليكون عكازًا يعينه، كان جرح ساقي يحرقني
بشدة، أكملنا الطريق حتى وصلنا إلى بقعة وقع في نفسي أنَّها البقعة
نفسها التي وقفت فيها مع «سُهيل» وأنا أتأمل مدينة «تروقانتس»
أجفَلْتُ عندما جلت بعيني في المكان، سألني «مازن» عن سبب اندهاش
وقلتي فقلت والريبة تنقر صدري:

- لقد اختفت مدينة «تروقانتس»؟

- أتصدقني الآن؟ لا وجود لهذا الهراء.

- بل موجودة، تلك الثياب من هناك، لقد اختفى كلُّ شيء رأيت
النهر الفضي، البحيرات الوردية، سلسلة الجبال، غابات الصنوبر
حتى المراعي الخضراء تلاشت.

لكي أقطع الشك باليقين هرولت وأنا أغالب ألم جرح ساقي تجاه وادي أحجار «تروفانتس». وقف «مازن» يراقبني في صمت، وجدت الأحجار كما هي هناك، فور عبوري الحدود تحرّكت الأحجار فتراجعت. كان «مازن» مذهولاً مما يراه، خلعت حذائي وصعدت فوقها فدارت بي قليلاً ثم سارت في خط مستقيم وبعدها سكنت فوقف شاخصاً بعينيّه تجاهي، حاول الدّخول فطاردته الأحجار فسقط على الأرض وتألّم بشدّة، فأسرعت لأخرجه من حدود الوادي فانكبّ على وجهه، طلب مني أن أخرج له حجراً صغيراً منها ففعلت، أمسكه بوجل وحرص شديد وعينه تلمعان في إعجاب وقال:

- لا أصدّق أنني أحمل حجر «تروفانتس» بين يديّ.
- وما معنى تلك الكلمة بالتحديد؟
- كلمة غير عربيّة تعني الحجارة الحيّة، وهي ليست حيّة بأيّ حال، تلك تفاعلات جيولوجيّة وكيميائيّة!
- لا أظنّ أنّ الحجر الذي بين يديك كذلك، لقد سمعت هسيس تلك الأحجار وأحسست بنبضها ودقّها.
- نظر إليّ باستنكار وقال:
- هذا حجر رسوبيّ يا بكتور! قلب صخري صلب تحيط به الرمال، وتنمو بهذا الشكل بسبب امتصاص مياه الأمطار وتفاعلاتها مع المعادن لا أكثر.
- لا. تلك الأحجار تختلف، صدقني لقد عشت معها لحظات عصيبة في المتاهة.
- هذا جماد يا صاح!
- تلك الأحجار ليست كما تظنّ يا «مازن» فنحن في مدينة «تروفانتس».

- يا إلهي! ما زلت تردد تلك الخرافات، لا ريب أنك تعاني ضربة شمس أو مرتت بصدمة ما، ولكن لا تقلق سأعتني بك عندما نصل إلى المخيم.

- صدقني يا «مازن»، هناك سرٌ فيها وكأنها تريد أن تنطق وتتكلم، حلقات متتابعة تروي تاريخًا وحكايات.

- بالفعل هي تشبه السجلات الزمنية، ولكن هل رأيتها من الداخل؟

- نعم، عندما التقيت «سهيلًا» حطم إحداها ورأيت قلبها. هز رأسه في إعجاب وقال:

- الصخور الرسوبية تتشكل في حلقات، وهذا النمو يبدو أشبه بالنمو والتكاثر لدى الكائنات الحية لكنه ليس كما تظن!

- أنت لا تصدقني. أليس كذلك؟

- بلى.

أشحت بنظري عنه ورنوت تجاه الأرض التي رأيت عليها المدينة مر قبل، وإذا بها وقد ظهرت من جديد! الجبال الخضراء الزاهية، والنه الفضي يبرق كاللجين، وبحر «قاغ» يظل الأفق بزرقة اللازوردية والبحيرات الوردية هناك. صحت من فرط دهشتي:

- يا إلهي! لقد ظهرت مرة أخرى!

فغر «مازن» فاه عندما رآها أمامه، أسندته وسرنا معًا تجاهها وه يثرثر لكنني لم ألتفت لكلماته، كان يشغلني أمر واحد، لماذا البيو تبدو مختلفة! أدركت أن هناك غموضًا يكتنف تلك البقعة من المدب بالفعل، ولهذا عليّ أن أقتش عن السرّ، وقد أبحث عن شيء لا أعرف هو لكنه سيكون سببًا لحلّ ألغاز تلك المدينة.

حلقات الظلام التسع

دلفنا المدينة وكانت الطرقات خالية من البشر، سرنا ببطء وبدت المدينة مهيبة، مررنا بعجوز ضئيلة الحجم ونحيفة وكأنَّ جسدها جراب من الجلد يضمُّ هيكلها العظمي الواهن، كانت تجلس أمام بيتها وتضع سلَّة مليئة بالخبز الطَّازج وتغطيها بقماشة بيضاء، وكان هناك طفلان صغيران ينامان بجوارها وقد أُلقي عليهما دثار مرقع من الصُّوف الخشن، عقدت حاجبيها فجأة، وسألت بصوت تشوبه بحَّة خفيفة:

- من أنتم؟

- أنا «ممدوح» أتيت من... مدينة «تروفانتس»، وهذا «مازن».

- يا إلهي! هل أَلقت بكما الأحجار؟

- بل دخلنا بأنفسنا.

- أحقَّ دخلتم أرضنا بأنفسكم؟

- وما العيب في ذلك!

- «حلقات الظلام التسع»! ألم تخافا؟

- وما هي «حلقات الظلام التسع»؟

353 -

پیشکش:

سألتهم عن حالهم فقالوا: نحن في غاية البؤس والحرمان، ولا نملك من المال ما يكفينا، ولا من الطعام ما يملأ بطننا، ولا من الثياب ما يحمينا من البرد والحر.

[illegible][illegible]

الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

॥५॥ ॥५॥ ॥५॥ ॥५॥

قوله لم يزل ينادي أحثوا أحثوا أي ينادي بالاجتهاد في العمل -

၇၆၁ နက္ခတ်စာရင်း

האם תוכלו לומר לי -

- ବିଜ୍ଞାନାବଳିତା ନିବନ୍ଧ

॥ श्रीगणेशाय नमः ॥

ကျွန်ုပ်တို့အားလုံးအတွက် အကျိုးရှိစေရန် အားပေးပါ။

॥ श्रीगणेशाय नमः ॥

[illegible]

יְהוָה אֱלֹהֵינוּ -

3. ארבעה חביתות בזה ואלו מחציתן לטף -

॥ अथाहं? नन्विहः

אשר יצאנו ממצרים ונעלה אל הרי סיני ונעלה אל הר סיני ונעלה אל הר סיני

البركت انما ضريبة عندنا، بركات الله تعالى

- ၁၄။ ဂျာမနီ ဘုရားရှိခိုး အားဖြင့် အားရစွာ ရှိသည်။

အမှတ် ၅၇၁ ဂျာနယ်:

[illegible]

- ၆၅။ ဤအခန်းကွက်မှာ အောက်ပါအတိုင်း ရေးသားထားသည်။

[illegible]

- ཁོ་ཁོ་གི་གཞུང་ལ་ཕྱོད་པོ་ཆེ་ཆེ་

ॐ नमो भगवते वासुदेवाय -

۱۲۸ -

ဒါဟာ နှစ် ဂျာနယ် စစ်ဆေးတဲ့ စာအုပ်ပါ။

[illegible]

من اجلنا وحق الامانة والبرهان والعدل والصدق والحيثية

[illegible]

॥ श्रीगणेशाय नमः ॥ ॥ श्रीगणेशाय नमः ॥ ॥ श्रीगणेशाय नमः ॥

وإنك سار من أكرم النساء المدينة حمراء

وَجَنِّبِي

[illegible]

- ११५ -

ה'תשנ"ח י"ח שבט תשנ"ח -

- ४३५ -

ရွှေအင်္ကျီကလေးကို ချွေးချွေးနီနီ ဖြူလှူလှူ ဆွတ်ကမ်းလို့ ကျန်းမာလှစေရန် အထူးသတိပြုရမည်။

[illegible]

उत्तीर्ण

מכאן נראה כי המעורבות של הממשלה בפרויקט היא בעיקרה
- מניעה של פגיעה ברכוש המדינה.

(၁) အောက်ဖော်ပြပါ အချက်များကို စစ်ဆေးပါ။

[illegible]

(۱) *مَنْ جَاءَكَ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ فَقُلْ إِنَّكُمْ قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ الْكِتَابُ*

- ગાંધીજીનાં સંસ્કૃતિ અને જીવન -

ಶ್ರೀಮದ್ವಿಷ್ಣು ಪುರಾಣದ ೧೦೦ನೇ ಅಧ್ಯಾಯ

- இரண்டாம் பகுதி -

प्राणिः

بسم الله الرحمن الرحيم

॥ ॐ नमो भगवते वासुदेवाय ॥

- “ပြည်သူ့”^(၁)၊ “အမျိုးသား”^(၂) ဝါဒီတို့၏ စာတမ်းများကို ကြည့်ပါ။

[illegible][illegible]

ਸ੍ਰੀਮਤੀ ਜਗਦੀਸ਼ ਕੌਰ, ਪਤਨੀ ਸ੍ਰੀ ਭਗਤ ਸਿੰਘ, ਪਿਤਾ -

[illegible]

لکھنؤ، ۱۵ مارچ ۱۹۴۷ء -

|| ॐ नमो भगवते वासुदेवाय || -

- ဆွေမျက်နှာ ၂၂ နှစ် ၆ လ ၁၀ ရက်၊ နေ့စဉ် စာတတ်ရန်။

- ၆၇ ရာခိုင်နှုန်း

- ကိုရီးယားနှင့် ကိုရိုယာ ကျော့

- ရှေ့ဘက်

- ۱۰۰٪

- ୩୩୩

هذا الشراب رلضت تناوله وأخبرتها أنني سأتحمل الألم فهزّت
كتفها وابتعدت وهي تنذّر.
أقبل «السُمهري» وجلس أمامي وقال:
- أخبرني عن «ترومانتس».

رأيت الحنين في عينيه، فبدأت بسرّد كلّ ما رأيته، وأخبرته عن حال
المدينة وحال شقيقته وأمه، انضمّ إلينا الشّباب فبدأت أنقل لهم أخبار
ذويهم، علمت أنّ الطفلين الصغيرين ولدا هنا فقد نقلت الأحجار بعض
الأزواج ومنهم عروسان منذ ثلاث سنوات وتلك ثمرته، وأنّ الشّباب
والفتيات يرعون النساء المسنّات ويعتنون بهن، وفجأة! مدّ الليل رواقه
المُعتم، وسمعنا صوت انطفاء جذوة النّهار، حينها انتفض «مازن»
وفزع، أحدث ذلك الصوت رجيفاً في قلبي وإنذاراً أنّ هناك يوماً آخر
مضى من عمري ولن يعود. شعر «مازن» بدوار من جديد فاستلقى
بجواربي وقال وهو يُحدّق إلى جيبيني:

- أيقظني عندما تظهر تلك الرّموز التي أخبرتني عنها.

ثمّ تمتّم قبل أن يغمض عينيه:

- أرجو أن يظهر لي رمز قويّ لمقاتل أو مُحارب.

غرق في نوم عميق، أدركت أنّه أثر الدّواء الذي سقته له «الكفّ
الخضيب». عندما التفتّ الشّباب والفتيات حول النّار التي أوقدوها برزت
لي الرّموز على جباههم، التفتّ نحو «مازن» فرأيت رمزاً على جيبينه
يضيوي، تفحصته فوجدته رأس فيل، تعجّبت من هذا الرّمز لكنني
ابتسمت، كان مازن لطيفاً حتّى في الرّمز الذي ظهر على جيبينه.

عدت أتمعّن في وجوه الشّباب وبدأت أروي لهم كيف ظهرت الرّموز
على جباه أهاليهم، وكيف أراها الآن على جباههم فأخذوا يتلفّتون في

اندهاش، ولأنَّ عددهم أقل بدأنا ندوّن الأسماء والرُّموز، وفجأة انتبهت
لشيء مهم!

كانت النساء المسنَّات بيننا فقد حملهن الشباب لمجلسنا وبدأ لي
توقيرهم الشديد لهن، بأجساد ضامرة نحلَّتْها الأيام، وعيون تطفر بحنان
بليغ فكان لحضورهنَّ هيبة، وكنت لا أزال أذكر أسماء العائلات في
مدينة «تروقانتس» والرُّموز التي ظهرت على جباههم وكيف صنَّفَتْها،
أدركت أنَّ الشباب المخطوفين من تسع عائلات عريقة، وهم أحفاد أبناء
هؤلاء المسنَّات التسع، وكانت الرُّموز واضحة، دللت كلاً منهم على جدَّة
أبيه التي تخطَّتْ مئة عام من عمرها، وأخبرت النساء بأسماء من بقي من
أبنائهنَّ هناك فتُبْتُ كلامي بإقرارهنَّ بما ذكرته من أسماء، فحمدت الله
على ذاكرتي التي لم تخذلني، وأدركت أنَّ جهودي في حصر الرُّموز لم
تضع سُدى، ضجَّ المكان ببيكاء الجدات التسع، أدركت حينها أنَّ أحجار
«تروقانتس» جلبت الأحفاد لجداتهم في معزلهن هنا بالركن المهجور
من المدينة، ليكون هذا درساً بليغاً لبعض أهل المدينة الذين هجروا
أمهاتهم. أفاق «مازن» وجلس وقد انتفش شعر رأسه وأخذ يُحدِّق إلى
جبيني وقال:

- هذا هو التنين!

ثم سألني بتلَّهف عن الرَّمز على جبينه فقلت له:

- فيل.

- أنت تمزح!

- والله فيل.

- كذاب!

- ولمَ سأكذب عليك؟

أصيب بإحباط وجلس واجماً للحظات، لكنه حمد الله أنني فقط من
أراه على حبيته، طالع وجوههم لبنت له الرُّموز وهي تضيء وتضوي،
ثم عاد إلى النوم وهو ينعتم؛
- لعله قيل خارق.

أضحكني وجهه وهو يقولها، راقبت للحظات والابتسامة لا تفارق
لحي.

ظلت النار تفرقع وترسل شراراتها ونحن حولها، انتهينا من حواراتنا
قبيل الفجر، وأمر الحوار بقرار اتفق عليه الجميع، سنعود معاً إلى
مدينة «تروفانتس» من خلال بوابة المتاهة التي سأقودهم إليها، ولعل
الأحجار تستقبلنا هذه المرة بسلام على الحدود ولا تمنعنا من الخروج،
خلدت للنوم أخيراً وكنت متعباً للغاية، كنت أتساءل أين «زهير» شقيق
«سهيل»؟ وأين ابن الرجل الذي قذفني في المتاهة؟ ظننت أن عودتي
إلى موطني قد اقتربت، لكن الأمور تعقدت للغاية.

أيقظني الأمير «السُّمهرى» فخرجت معه، وكنا قد خلدنا للنوم في
بيت الجدة التي التقيناها أول دخولنا أنا و«مازن»، ابتعدنا عن البيوت
التسعة وجلسنا تحت شجرة وارفة الظلال لتبادل الحوار في هدوء،
لمست فيه حنكة وتواضعاً كبيراً، قال بجديّة شديدة:

- هل أنت واثق من أن بوابة تلك المتاهة التي قادتك إلينا قريبة؟

- نعم، أعلى التلال بالخارج، لا تقلق فذاكرتي جيّدة.

- أخشى أن تدركنا قبائل «بني الأحمر».

- ومن هم؟

- قبائل تعيش في جماعات خارج حدود مدينة «تروكانتس» في غابات الصنوبر منذ زمن طويل، خضنا معهم معارك ضارية مات خلالها العديد من أشقائي.

- علمت أن والدتك فقدت أربعة من أبنائها في بعض المعارك في أثناء حمايتهم للمدينة.

هز رأسه في أسى وتابع قائلاً:

- أرادوا السيطرة على المدينة، وأظنهم لا يرون المدينة الآن فقد تكون محجوبة عنهم كما حدث معنا، فأنت لم تخبرني عنهم عندما حدثتنا أمس وأراك لا تعرفهم.

- لم يُخبرني «سهيل» عنهم، فقط أخبرني عن موت الأمراء الأربعة في الحروب التي خاضوها بشكل عام.

- سيدبحنا «بنو الأحمر» لو رأونا ونحن قلة.

- حدثني عنهم.

- قوم غلاظ القلوب والأبدان، الرجال طوال القامة والنساء حليقات الرؤوس، يتزينون بالرّيش ويرسمون على أجسادهم علامات ورموز حمراء، يسيرون في جماعات ولهم لغة خاصة فيها نقر وطققة، يغطّون وجوههم بالتراب وكأنهم جزء من الأرض، يبنون بيوتهم فوق الأشجار الكبيرة. اعتادوا مُطاردة الحيوانات في الأدغال، قانون البقاء هو السائد عندهم. يربون أولادهم أن يكونوا مقاتلين بالحرب منذ الصُّغر، يلعبون بها ويرقصون بها ثم يصطادون بها كل شيء حتّى البشر، وقد يأكلون لحومهم أيضًا. يُطعمون الذئب والضّباع ويحبّونها حتّى صارت حيواناتهم الأليفة! وتلازمهم طوال الوقت. عندما دخلوا المدينة من جهة

الغرب قتلوا كل من صادفوه من رجال ونساء وأطفال وشيوخ حتى أضحت الشوارع مملوءة بالدماء. لجأ كثيرون للاختباء في المستنقعات والآبار، وتجمع آخرون في الحوانيت والبيوت وأغلقوا أبوابها على أنفسهم، لكن محاربي «بني الأحمر» اقتحموا بيوتهم وتتبعوا الفارين وصعدوا فوق أسطح البيوت حتى سالت الدماء من الميازيب فتحرك جيش المدينة لقتالهم وأخرجوهم للغابة مرة أخرى.

- يا إلهي! علينا أن نحذر منهم ولنراقب الأجواء حولنا.
- لهذا أردت التحدث إليك، هل أنت واثق من معرفتك للطريق؟ ولن يكون خروجنا مجازفة؟
- ما رأيك أن أخرج مع «مازن» لتفقد الطريق.
- أخشى ألا تتمكننا من الدخول والعثور علينا مرة أخرى، فقد حاولنا خلال السنوات الثلاث الخروج من «حلقات الظلام التسع» أكثر من مرة وكان الضباب يحجبنا، وحتى عندما تخطينا كانت الأحجار تدفعنا فنعود.
- حسنًا لنظل معًا ونتحرك معًا.
- تذكّرت أنني لم أنزع الحبوب من جرحي فحلت رباط ساقي وفوجئت بنبية خضراء تخرج منه فتعجبت، قال «السُمهري» وهو يتفحصها:
- ألم أخبرك! ستزهر سريعًا خلال ساعات وعندما يلتئم جرحك تمامًا ستذبل وتسقط.
- هل قلت خلال ساعات؟
- نعم. لا تتعجب من سرعتها.

- ليس هذا ما أتعجب منه. أتحسبون أوقاتكم بالساعات؟ ظننتكم تفعلون كما يفعل آباؤكم بالمدينة، لقد حطموا المزولات الشمسية الموجودة بالمدينة.

- أعرف هذا، لكننا عدنا لحساب الوقت منذ وصولنا إلى هنا، كان آباؤنا على خطأ، لن تستقيم حياتنا إن لم ننقبه للوقت، إنما أعمارنا لحظات وتمضي، وعندما تمضي لا تعود أبدًا.

- الوقت يقتلنا بهدوء، صار صوت انطفاء جذوة النهار يخيفني، ما حقيقة هذا الصوت؟

- لا أحد يدري.

- أشعر أن كل غروب للشمس يأكل من عمري، نحن نذوب كل لحظة! تلك حقيقة واضحة مجردة لكننا نصرف أبصارنا عنها.

- لا ترى بنصف عين يا صاح، منحنا الله الحياة لنقذرها، عش حياتك واستمتع بها قبل أن تذوب وتنطفئ.

استيقظ «مازن» وجاء وهو يتضجر من النبتة الخضراء التي نبتت من قدمه، خرجت الجدة خلفه وقالت بصوت واهن:

- أشم رائحة الفراق!

قال الأمير «السّمهري» وهو يهرول نحوها ليُجلسها:

- اطمئني يا جدة، لن نفترق أبدًا.

- رائحة الفراق والألم تفوح من فؤاده.

كانت تقصد «مازنًا» وأدرك هذا فسألها وهو يهز كتفيه:

- ألا تشمّين رائحة أبنائك مثلًا؟ أو رائحة العودة إلى قلب مدينة «تروقانتس»، وطنك؟



- حلقات الظلام صارت موطني.
- قبل «السُمهري» رأسها وقال بحنو شديد:
- أعلم أنك حزينه يا جدّه، لكنني أعدك بعقاب كل من أساء إليك وإلى باقي الجدّات.
- مالت على كتفه وشمّتها وقالت بصوت أقرب للهمس:
- أشم رائحة الخطرا

كانت «حلقات الظلام التسع» على أطراف المدينة معزولة لكنّها كانت قريبة من بحر «فاغ». عمل الشباب ليعمروها قدر استطاعتهم خلال السنوات الثلاث، فاعتنوا بالبساتين القليلة فيها وكان لديهم من ألوان الطيور والحيوانات ما يكفيهم، ولم تبخل عليهم أشجار البساتين بثمارها. أعجبني فيهم أنّهم كانوا يلتقون حول الأمير «السُمهري»، وكانوا يكتنون له المحبة والتقدير لكونه متواضعا وقريبا منهم.

جلس «مازن» بجواري وكنت أشعر بقلقه وتوتره وضجره، قال وهو يعبث بالنبته الخضراء البارزة من قدمه:

- ما عدت أشعر بالألم.
- لا ريب أنّ هذا تأثير الزهور.
- أنستني الألم كما قالت تلك الفتاة.
- اسمها «الكفّ الخضيب» ويقولون إنّها نطّاسيّة بارعة.
- صمت هنيهة وقال لي بصوت مفعم بالحزن:
- تذكّرت بعض الأشياء عن نفسي.
- هذا جيّد، لماذا أراك حزينا؟
- لا شيء.

ظللتنا غيوم الصمت المطبق، أحببت أن أعيده إلى حسّه الفكاهي
فقلت أمازحه:

- كان عليك أن تطالع وجهك في المرآة لترى الفيل وكيف رُسم
بزخرفات بديعة.

- كيف غابت عن رأسي تلك الفكرة؟ سأفعل. سأفعل الليلة عندما
يظهر الرّمز مرّة أخرى.

مرّت سحابة الحزن التي كانت تُظلل وجهه البريء وعاد إلى مزاحه
مع الجميع، كان علينا أن نخطط جيدًا لرحلتنا، وكنا لا نعرف هل
سيستطيعون الخروج معنا وتخطي الضباب أم لا. أمضينا ثلاثة أيّام أصرّ
«السّمهريّ» خلالها على تدريبنا أنا و«مازن» على رمي السّهام والرّماح
وصد الضربات وحماية أنفسنا، فتذكّرت قوس «سهيل» وسيفه اللذين
فقدتهما في المتاهة، حدّثنا «السّمهريّ» عن «بني الأحمر» ووصفهم
لنا وأخبرنا كيف يروضون وحوش الغابة المفترسة ويستخدمونها في
مهاجمة الآخرين.

في الليلة الرابعة كنا نجلس حول النّار نستمدّ منها الدّفء وكان
«مازن» في كرب شديد ولا يتحدّث إلينا، قالت الجدّة وهي ترنو إليه:
- أشمّ رائحة فؤاد مكلوم.

طلبت الجدّة استدعاء عجوز أخرى من رفيقاتها، فاستندت الأخيرة
على عكازها واقتربت من «مازن» وكنت أجلس بجواره فرأيتها والرّمز
يتوهّج على جبينها، جلست أمامه ووضعت كفّها على صدره، وكان
الرّمز على جبينها يزداد توهّجًا، لم يُلْق لها بالًا ولم يتحرّك من مكانه
قيد أنملة، حرّكت أصابعها على صدره وكأنّها تخطط شيئًا ما، وكنت أرى
خيوطًا من نور تخرج من أناملها وتتذبذب على صدره وكأنّها تخطط

جراح قلبه بالفعل، سالت الدموع من عينيه في صمت، ثم انفجر باكياً
في نسيج مسموع واستدار ودس رأسه في حضني، لم أدري ما به! لكنني
كنت على يقين أنه تذكر شيئاً مفاجئاً فطر فؤاده، ولم أحب أن أسأله
لعله يخبرني بنفسه، عندما انتهى من بكائه قامت العجوز وهمست في
أذنه قائلة:

- لا بأس على قلبك الطبيب، ستكون بخير.

كان «السّمهري» يجلس على جانبه الآخر، قال وهو يمسح على رأسه:
- لطالما ضغدت تلك الجدة جراح قلوبنا، وما زالت.

- هكذا كفوف الأمهات، ترياق لأوجاع أرواحنا، ويلسم لنفوسنا
المجروحة، تنزح الهم من بين الضلوع، وتعيد الأمان إلى صدورنا.
راقبت العجوز وهي تبعد بقامتها المحنية، أدركت أن للجيدات
التسع شأنًا وسراً غريبًا! مضت ساعات الليل سريعًا وعندما استيقظنا
في الصباح كان «مازن» في أحسن حال، عقد شعره المتموج خلف
رأسه فأضاء وجهه فاطمأنت أنه بخير. كان الشباب قد أعدوا عربات
خشبية تجرّها الخيول لحمل الجدّات والنساء والأطفال، وقفنا على
الحدود فتكاثف الضباب وكأنه يرانا ويشعر بنا، التفت نحو «السّمهري»
فوجدته يراقبني بعينه المتقدتين، خرجت مع «مازن» وكنا نتشارك
الجواد، وخرجوا خلفنا تباغًا بخيولهم ولأول مرة من «حلقات الظلام
التسع» التي حبسوا في نطاقها لسنوات، كانوا فرحين كفرحة طائر فتح
له باب القفص الذي سُجن فيه طويلاً. أمّا أنا فأجفلت لأن الطريق لم
يكن الطريق نفسه الذي التقيت فيه أنا و«مازن»، فقد كانت هناك أشجار
كثيفة أمامنا فأصابني الخوف من «بني الأحمر»، أخبرت «السّمهري»
فقال:

- لا أظنُّها غابات الصنوبر الكبرى، فهي تقع على الضفة الغربية للنهر الفضي ولا أثر للنهر هنا، أمَّا تلك البساتين العامرة بالأشجار نفسها فأظنُّها تلك التي تمتد بعد جسر النسيان الذي أقمناه فوق النهر منذ سنوات من جهة الشرق لهذا أظننا في أمان، ولو عبرنا تلك البساتين سنصل إلى مدينة «تروقانتس».

كنت مرتابًا وأشعر بالخطر، قلت وأنا أوقع كل كلمة أنطق بها:
- علينا أن نحذر، فقد وصلت إليكم خلال متاهة، وقد تكون تلك غابات الصنوبر بالفعل.

ران عليهم صمت مطبق، لكنهم من فرط الحماس لرؤية ذويهم صمموا على التوغُّل بين تلك الأشجار حتى وإن كانت غابة الصنوبر، قالت الجدة بصوت مرتعش:

- أشم رائحة الخطر!

أخذ «السُّمهرِيُّ» يهْدِي من روعها، في البداية سرنا في طريقنا دون معاناة، توغلنا ببطء ونحن نترقّب ما حولنا، بدأت الأشجار تتعاقب بغصونها أكثر فحجبت الكثير من الضوء، كنت أدور بعيني باحثًا عن تلك البيوت الخشبية التي أخبرني «السُّمهرِيُّ» أنَّ «بني الأحمر» يبنونها فوق الأشجار ولم أجدها. تناهى إلى مسامعنا صيحة طويلة، ارتجّ قلبي بين أضلعي واستيقظت كلُّ حواسِّي، أكملنا الطريق ونحن نجوس بأعيننا في المكان، وفجأة برزوا لنا من بين الأشجار بإهابهم المحترق من الشمس، ورؤوسهم المغبرة والمحلوقة من الأمام بينما وجوههم موسومة بعلامات حمراء ومن خلف ظهورهم تتدلَّى صفائر طويلة، أخرج كلُّ منّا سلاحه وتأهّبنا لقتالهم، أطلقوا صيحات ارتجّت لها الأجواء حتّى إنَّ الطيور خرجت من أعشاشها وأحدثت جلبة حولنا.

شرح «السّمهري» يملّنا بصوته الواثق، لكننا فوجئنا بجدة من
الجذات النّسج لترجل من عربتها وتبعنها رفيقاتها في صفّ واحد ووقفن
خلفها، وكلّ منهنّ تضع يدها على كتف من بجوارها من رفيقاتها، وكأنّ
هناك حوارًا خفيًا بينهنّ، التفتت إليهنّ وأومات برأسها ثمّ ضربت الأرض
بعضاهما فبدأت الأرض ترتجف وتتحرّك لتبرز حولنا حلقات تسع كانت
تتسع في فطرها للخارج، ثلاث من رمال، وثلاث من نور، وثلاث من نار.
تراجع محاربو «بني الأحمر» في خوف وفزع لكنّهم لم يتوقفوا عن رمينا
بالسّهام فبدأت النيران تحرق سهامهم وتسقطها، وكلّما زادوا الرّمي
كان نطاقها يتسع بشكل أكبر ليصل إليهم، أطلقوا ذئابهم فأحرقتهم
النّار وكانت تقسم أجسادهم وهم يقفزون فوقها وتشطرها إلى نصفين
وكانها شفرات سيوف متّقدة. عندما يتسوا منّا ابتعدوا وهم يطلقون
صيححات غاضبة، وظلّت الحلقات مشتعلة ولم تنطفئ إلّا عندما اختفى
أثرهم تمامًا. جلسنا وعلى رؤوسنا الطير، سحابة كثيفة من الغموض
حلّقت فوقنا، قضينا نحو ساعة ونحن في المكان نفسه، اقتربت من
«السّمهري» وقلت له:

- علينا أن نسرّع لكي نخرج من الغابة قبل حلول الظّلام، فالرّموز
المضيئة على جباهنا ستجعلنا فرائس سهلة لهم.
- لكنّك أنت فقط من يراها.
- وما أدراك أنّهم لن يروها؟ هؤلاء القوم يبدون وكأنّهم ليسوا من
البشر، علينا أن نستعدّ لكلّ شيء فنحن لا نعرف حقيقتهم.
- اتفق معك يا «ممدوح»، وأرجو ألا يروا الرّموز على جباهنا أبدًا.
- هل كنت تعلم أنّ الجذات يقدرن على فعل ما فعلنه؟

- اعتدنا منهم بعض الأشياء الغريبة، فهذه تستطيع شم رائحة المشاعر، وتلك تخطط القلوب المجروحة، لكننا لم نر حلقات الظلام التسع إلا اليوم!

- وقع في نفسي هذا الأمر عندما لاحظت ذهولكم، هل ستسألهم عن هذا؟

- أخشى أن يكون أهل المدينة قد أبعدوهن لسبب لا أعرفه. لكنني على يقين أنهن يحبيننا ولن تقدم أيّ منهن على إيذائنا.

- لنُسرع إذاً، وليربط كلُّ منّا شيئاً على جبينه ليُخفي الرمز إن حلَّ الظلام علينا قبل أن نغادر الغابة.

عدنا إلى سيرنا وقد غطى الجميع جبهته، رأينا الكثير من السناجب تتسلل هنا وهناك، وسمعنا الكثير من الأصوات لطيور وحيوانات رأينا بعضها ولم نر الآخر، داعبت أنوفنا رائحة اليود وملح البحر فأدركنا أننا سرنا شمالاً حيث بحر «قاغ»!

وأخيراً أطلُّ بزرقته فنزح الخوف عن قلوبنا، تبعثرنا على رماله وتنفسنا الصُّعداء، خلعنا الأريطة عن جباهنا وجلسنا لنتراح بعد أن شعرنا بالأمان، قال «السُّمهرى» وقد طارت نظراته في الأفق البعيد:

- أظننا ابتعدنا عن بوابة المتاهة.

- بالتأكيد، فقد كنت أرى البحر بعيداً وأنا أقف على مقربة من بوابتها.

- وما الحلُّ؟

- لعلَّ هناك بوابة أخرى، أو هناك أحجية عليّ أن أحلّها كما حدث مع أرقام السّاعة التي كانت على جباه الفتيات والغلمان، سأحاول مراجعة الرُّموز.

كان «مازن» ينصت إلينا فهمس لي وهو يرنو للجذات:

- ربّما هنّ الأحبية!

- ربّما!

- هل هنّ ساحرات؟

- الله وحده يعلم. وأرجو ألا يكنّ كذلك.

كان الغروب يقترب، وأنا أنتظر صوت انطفاء جذوة النهار، ويريق الرموز على جباههم. خلع «مازن» قميصه وقرر أن يسبح قليلاً وانضمّ إليه بعض الشباب، وقفت أراقبه وأنا أتساءل:

لماذا أنا وهو هنا؟

ما الذي يجعلنا مختلفين عنهم؟

ولماذا لا يظهر «مازن» في أحلامهم كما أظهر لهم؟

وما الذي أبكاه أمس؟

وأين البوابة التي خرجت منها وكيف سأعود إليها؟

وما سرّ الجذات وحلقات الظلام التّسع؟

خرج «مازن» من البحر وهو يحمل شيئاً وركض نحوي كالمجنون وهو يقول:

- سرطان حدوة الحصان.

- معقول!

- وما المعقول هنا؟

أقبلوا علينا وجلس «مازن» وكان قد تمكّن من اصطياد السّرطان وهو يطفو فوق الماء وأخرجه في الحال.

بنو الأحمر

بدأت أفحص سرطان حدوة الحصان، ذاك الكائن الوحيد الذي لون دماؤه أزرق ويباع اللتر الواحد من دمه بسعر ثلاثة عشر ألف دولار، كان مازن يراقبني وأنا أتفحص الكتل الصغيرة التي تجلطت سريعاً من دماء السرطان الكبير الذي اصطاده فقال:

- أرايت كيف تجلّط سريعاً؟
- وهذا دليل على وجود الكثير من البكتيريا، فالمادة التي فيه تتجلّط فور ملامستها للبكتيريا.
- تخيل لو معنا خمسة لترات من دماؤه الآن!
- سينافس سعرها سعر النفط.
- سنكون من الأثرياء.
- ولكن للأسف طريقة جمعها مؤلمة، لأنهم بينما يجمعونها منه يكون السرطان حياً ثمّ يعيدونه إلى الماء وقد يموت لاحقاً.
- كان «مازن» في غاية الحماس وهو يحكي لأربعة من الشباب الذين بقوا معنا بعد خلود الآخرين للنوم عن مادة «الهيموسيانين» التي تجري

في دماء هذا السرطان وتجعلها زرقاء، وكيف أنها نوع من البروتين المضاد للبكتيريا، بدا لي أنهم لا يهتمون بهذا، فبعض الأشياء تكتسب قيمتها من اهتمام الناس بها، وكلما ازدادوا علماً بحقيقة الأشياء زاد تقديرهم لها، وهم لا يعرفون ما هو الهيموسيانين لكنهم يعرفون دموع الغمام التي تنبت أزهارها في الجروح، همست له وأنا أراقب الدماء الزرقاء التي تجلطت في شكل قطع جيلاتينية غير منتظمة وكيف أصبحت تشبه الأحجار الكريمة:

- صارت كقطع الأحجار الكريمة.

- وكأنها حجر «الهيميمورفيت»!

- وهل لهذا الحجر اللون نفسه؟

- تمامًا!

- سبحان الله!

- أعشق جمع تلك الأشياء، عليّ أن أغوص وأسبح في هذا البحر لاكتشاف المزيد.

- الوقت غير مناسب لهذا يا «مازن».

- لا تقلق، الجدّات معنا، سيشعلن الشاطئ هنا بالحلقات إن لزم الأمر.

- يبدو أنك بدأت تستمتع بالمغامرة.

رأيت ابتسامة ترتعش على شفتيه، لم يهتم بما نفعله من النساء سوى «الكفّ الخضيب»، وقفت تتابع كل ما أفعله وأنصتت لكل كلمة قالها مازن بتركيز شديد، كان الرّمز المرسوم على جبينها قد بدأ في الظهور فقد غربت الشمس وكان لزهرة الثالوث، سألتني وهي تتفحص المادة المخاطية على جلد سرطان حدوة الحصان:

- وكان عليه غراء لزجاً.

- تلك المادة اللزجة يحمي بها جسده من الخدش.

- لقد تخرّرت الدماء سريعاً! كان قوامها أخفّ من قوام دماننا، وأظنّها تختلف عنها تماماً!

قال لها «مازن»:

- نعم تختلف، ولا بدّ أن تُعالج بطريقة خاصّة قبل أن تُستخدم في المعامل، فهي تحتوي على الكثير من النحاس وليس للعلاج المباشر بل للكشف عن التلوث.

ثمّ أضاف وهو يشير إلى كتل الدماء الزرقاء التي أصبحت تشبه الأحجار الكريمة:

- تستطيعين صنع عقد منها قبل أن تتيبّس.

ابتسمت «الكفّ الخضيب» وقالت:

- أظنني فتاة تافهة!

ثمّ قلبت شفتيها وقالت قبل أن تنصرف:

- لا أظنني سأرغب في ارتداء عقد من الدماء المتخثّرة.

- أمّا أنا فسأفعل قبل أن تتيبّس، هل لديك خيط ومثقاب؟

- سأعيرك خيطاً ومثقاباً أيّها المسكين.

- عليك أن تُعالجي جرحي هذا أولاً.

رفع قميصه وكان هناك أثر لجرح أصيب به من سرطان آخر كان قد أصابه وفّر بعد أن نال منه. فحصتُ جرحه وطمأنته وأخبرتني «الكفّ الخضيب» أنّها ستعالجه، فمضى معها وتركني وأنا أتساءل كيف

سأعيدهم جميعًا إلى المتأمة؟ وهل هناك طريق آخر للعودة إلى مدينة «تروفانتس»؟

كان نومي غريبًا ومتقطعًا، وأظنُّ أنني لم أنعم بساعة كاملة، فقد كنت أشعر وكأنَّ أحدهم يُغطِّس رأسي في الماء فأفريق كلَّ مرَّة ودقات قلبي تتواثب فألتقط أنفاسي وأشهوq وعندما أكتشف أنَّه حلم أهدأ وأغمض عيني وأغيب عن الدنيا من جديد، وأخيرًا استيقظت مع الجميع. جلست أتأمل أمواج البحر وهي تتوالى على الشاطئ وتتتابع، تنال من رماله شيئًا ثم تنسحب وتتراجع بنعومة وهي تحمل الرمال فتتيه فيها وتتشتت، راودني شعور أنني كرمال البحر وأنَّ دقائق عمري وساعاته أمواج تتوالى عليَّ فأأكل وتذوب روحي شيئًا فشيئًا فيها.

اقترب «السُّمهرى» لينتشلني من شرودي وهو يقول:

- علينا أن نرحل ونستغلَّ ساعات النهار.

- ليكن هذا.

- سوف نيمُّ يسارنا تجاه البحر ونسير بمحاذاة شاطئه حتى نبتعد عن غابات الصُّنوبر، وعندما نصل إلى منطقة الأمان سندخل أرض مدينة «تروفانتس»، وأرجو أن تظهر لنا.

- بإذن الله، أثق أنكم ستعودون إلى دياركم قريبًا.

- أرجو هذا من كلِّ قلبي لي ولك، لا ريب أنَّك أيضًا تشتاق إلى الديار. بدأنا المسير وكانت الخيول تسير على الرُّمال ببطء وهي تجرُّ العربات، وفجأة! خرج «بنو الأحمر» من كلِّ حذب وصوب، حتَّى البحر خرجوا منه وهم يرفعون حراهم ولا أدري متى غاصوا فيه ليتربَّصوا بنا، كانت خطُّتهم ذكيَّة فقد فرَّقوا بين العربات حتَّى لا تجتمع الجدَّات معًا،

لم يقتلوا أحدًا لكنهم فرّقونا عن بعضنا بعضًا، وعندما وقعت أعينهم على «مازن» وكان قد صنع عقدًا من كتل الدماء المتخثرة وارتداه، وقفوا أمامه يسألونه عنه، أرادوا انتزاعه منه فأبى وقاومهم فخفق قلبي، رفع «السّمهري» صوته قائلاً:

- اتركه لهم يا «مازن».

- لا!

بدأ مازن يُحدّثهم بلغتهم فتعجبنا! كان يتحاور معهم ببسر وسهولة ولكنهم بدوا وكأنّهم يزجرونه، رفع صوته وبدأ لي من تعابير وجهه غضبه الشديد، ظننتهم سيقتلونه في الحال فصحت في هلع:

- لا قيمة لهذا الهراء اتركه الآن وإلا سيقتلونك!

- ليفعلوا!

دار بين هؤلاء المقاتلين حوار لم أتبيّنه، قال «السّمهري»:

- كيف يتحدّث بلسانهم!

- لا أدري!

التفت «مازن» تجاهنا وصاح قائلاً:

- يبدو أنّ لديهم أمرًا بالّا يقتلوا أحدًا منّا!

انتزعوا العقد منه وأمسكوه عنوة وأجبروه على الرُّكوع أمامهم وأمسك أحدهم بشعر رأسه ودفعها للخلف ولقموه حبّات العقد تباغًا وانهالوا عليه بالضرب، أشفقت عليه وحاولت دفعهم بكتفي لأصل إليه فحال بعضهم بيني وبينه ولم أتمكّن من تخليصه من بين أياديهم، سحبوه أمامنا وكان يتلّف ويسعل وهم يمسكون بذراعيه، دفعونا دفعًا إلى الغابة، وسرنا في طرق ملتوية ومحفوفة بأشجار عريضة حجبت أغصانها الكثيفة والمتعانقة ضوء الشّمس عن الأرض فصارت الطرقات

مظلمة، أدخلونا في أقفاص متجاورة بدا وكأنها أعدت للحيوانات وأغلقوها علينا وهم يطلقون صيحاتهم الغريبة. كان أول سؤال طرحناه جميعاً على مازن هو كيف تتحدث لغتهم؟ فقال وهو يُغالب آلام معدته: - يتحدثون الهندية.

- يا إلهي! وهل تُجيدها؟

أوما بالإيجاب ثم استلقى على الأرض وأغمض عينيه وتكوّر كالجنين في بطن أمه، بدا لي جلياً أنه لا يزال يتألم من أثر الضرب. مرّ الوقت ثقيلًا، كنت مع «السّمهري» و«مازن» والشّباب بالقفص ذاته، بينما النساء والفتيات في أقفاص أخرى، رفعوا أصواتهم وتبادلوا بضع كلمات لكنّ مقاتلي بني الأحمر منعوهم من إكمال الحديث. كانت طريقتهم في أسرنا تنمّ عن ذكاء شديد، فقد فرّقونا عن النساء، وحرصوا على فصل الجدّات عن بعضهن، ويبدو أنّهم لم يتعرّفوا على «السّمهري» ولم يعلموا بكونه ولي عهد مدينة «تروفانتس» فقد تركوه معنا. اقترب وقت الغروب وحلّ الليل سريعاً ولم يصل إلى أذني صوت انطفاء جذوة النّهار كالعادة!

لم يربط أيّ منا جبينه ليُخفي الرّمز فنحن الآن بين أياديهم بالفعل. كان «مازن» لا يزال يشعر بالآلام شديدة في معدته فاستدار وغرق في نوم عميق وكنت أخشى أن يُصاب بالتسمم! فأنا لا أعرف ماهيّة تلك الدماء الزرقاء!

أضاءت الرّموز على جباهنا جميعاً فضجّ المكان بأصوات «بني الأحمر» وطريقتهم في الحديث ذات النّقر والطقطقة وهم يتدافعون أمام الأقفاص ليروا الرّموز وهي تضيء على جباهنا، وكان ظنّي في محلّه، فقد رأوها بالفعل كما أراها أنا و«مازن». بعد نحو ساعة تركونا

في الأقفاس فخلدنا للنوم وكنت أراقب «مازنا» وأحاول إيقاظه لكنه بدا وكأنه مخدر.

- «ممدوح» استيقظ!

كان «مازن» يهزني بقوة وهو يكرر اسمي، فتحت عيني بصعوبة وفور أن وقعت عيناى على وجهه وثبت في مكاني وقلبي يخفق بشدة، فقد استحال وجهه أزرق! بل وجميع جسده! وفوجئت بالبقية يحلقون حولنا وعيونهم عالقة به، سألته في ذهول:

- هل تشعر بأي شيء؟ أخبرني!

- أنني أزرق مثلاً؟

- أقصد ألماً أو حرقاً أو تشوشاً أو...

- لا أشعر بأي أعراض أخرى سوى ذلك اللون الذي أيقظ من حولي مذعورين.

- لعلة الجرح الذي أصابك من السرطان الحي.

- أو الدماء الزرقاء المتخثرة التي أجبروني على ابتلاعها.

- ولكن هذا غير منطقي ولا طبيعي! نحن لا نكلون بما نأكله!

- وأي شيء هنا منطقي؟ لا تنس أننا في «تروكانتس»، ولا ريب أن هذا السرطان لا يشبه ما بعالمنا.

كنت أشعر تجاهه بشيء من المسؤولية وكأنه شقيقي الأصغر، قلت له لأطمئنه:

- لا تقلق، سيزول اللون بالتدريج اصبر فقط.

أوما برأسه موافقاً، ثم قال:

- أظن أنني سأتحول وأكتسب مهارات خاصة مثل الرجل العنكبوت؟

- الأمر بسيط فلا تبالغ في الخيال يا «مازن».

- مذاقه لذيذا يشبه حساء فواكه البحر الذي تعدّه أمي وتضيف إليه الكريمة البيضاء.

- أتمزح يا مازن؟

- ولم لا؟ سأنشئ جماعة «بني الأزرق».

لاحظ قلقي فوضع يده على كتفي وأضاف:

- لست قلقاً! لا أحد يعرفني هنا، سأكون من «السناقر» لبعض الوقت.

- أرجوك يا «مازن» أغلق فمك ولا تتحدّث حتى أخبرك.

مرد إصبعيه على قمه كأنه يُخلقه ثم اقترب مني قائلاً:

- بالمناسبة، أرى التنين على جبينك على الرغم من طلوع النهار! وأظنّ «قلقول» ظاهراً لك الآن على جبیني، أليس كذلك؟

شخصت عيناى تجاه جبينه، كان الرّمز ظاهراً بالفعل والتهيت عنه بتغير لون جلده، درت بعيني بين جباههم فلم أر الرّموز عليها! عدت أتأمل وجهه فرفع حاجبيه وقال:

- يبدو أنّ هناك تغييراً طرأ علينا يا صديقي!

بدأت الأفكار تملأ رأسي كطيور مذعورة، كلما هدأ واحد منها ارتفع صراخ الآخر، وكان أكثر ما يُقلقني أن يحدث مكروه لـ «مازن» وقد لاحظت اضطرابه الشديد ولجؤه إلى السخرية من نفسه ليخفف من توتره، اقتربت من عواميد القفص ودست وجهي بينها ثم رفعت صوتي وسألت «الكفّ الخضيب» إن كان لديها عشبة أو أيّ علاج لحالات مشابهة من التصبّغات، ووصفت لها ما حدث له باختصار بعد ابتلاعه



لدماء سرطان حدوة الحصان المتخثرة، وكان القفص الذي حُبست فيه على مقربة منّا، لكنّها أخبرتني أنّها لم تر مثل تلك الحالة من قبل. مضت ساعة وهو يجلس بيننا ويمزح وكأنّه لا يُبالي بما حدث له، سألته في فضول:

- متى تعلّمت الهندية؟
- منذ عامين.
- لماذا تعلّمتها؟ هل سافرت إلى الهند؟
- لم أسافر وتعلّمتها لأنّ تلك هوايتي. أعشق اللغات وأحاول تعلّم لغة جديدة كلّ صيف، تربيت على ألا أضيع إجازة دون هدف، والأمر الآن سهل بعد وجود الإنترنت.
- هل تعلّمت لغات أخرى غير اللغة الهندية؟
- الصينية والفرنسيّة والإيطاليّة بجانب الإنجليزيّة.
- خمس لغات! هذا رائع!
- عاد مقاتلو «بني الأحمر» وتزاحموا أمامنا عندما لاحظوا لون جلد «مازن»! قال لهم شيئاً ثمّ طقطق كما يطقطقون بلسانه وأشار نحوهم بيده لينصرفوا فانصرفوا، سألته بفضول:
- ماذا قلت؟
- سببتهم بالهندية.
- ظننتك مهذباً.
- أخبرتهم أنّهم فاشلون، وطقطقت مثلهم.
- وهل هذه أقسى سبّة تستطيع وصفهم بها؟

- لتعلم أنَّ الإشارة نحوهم بازدياد هي التي أَلَمَّتْهم أكثر من الكلمة،
والفشل لا يليق بالمحاربين والمقاتلين مثلهم.

- لديهم أفكار ومعتقدات غريبة.

- تعلَّمت الهندية من شاب هنديٍّ مسلم رائع، ليت هؤلاء مثله!

- رحم الله «محمد بن القاسم الثقفي»^(١).

- عفواً من هذا؟

- فاتح الهندا

سألته في فضول:

- لماذا يقطعون هكذا وسط كلامهم؟

- أظنُّها عادة لديهم لا أكثر.

داهمه صداع شديد فاستلقى بجواري وعاد إلى النوم، تركونا طوال
النَّهار دون ماء أو غذاء فبدأ الأطفال يبكون، وكنت أتساءل حتَّى
سيتركونا هكذا!

عاد الليل من جديد، وظهرت الرُّموز على جباه البقية، وتوهَّج رمز
القيل على جبين «مازن» بشكل غريباً وكان يُخبرني أنَّ التَّنين يكاد
يشتعل على جبیني، فهرول بعضهم وابتعدوا ليعودوا بعد وقت ومعهم
رجل غامض كحائط مُبهم علمت من هيئته وتوقييرهم له أنَّه زعيمهم،
فور أن رأى الرُّمز على جبين «مازن» أمرهم بفتح القفص وتحريره،
وعندما خرج من القفص وقف أمامه في إجلال وأحنى رأسه قليلاً وحيَّاه

(١) مُحَمَّد بن الْقَاسِمِ الثَّقَفِيِّ فاتح بلاد السُّند كونه آخر فاتح لها، وقد نشأ وترعرع في
العراق وتدرَّب على الجندية، حتَّى أصبح من القادة وهو لم يتجاوز السَّابعة عشرة
من العمر، حيث كان والده والياً على البصرة، وقد سبقه عدة قادَات لفتح السُّند
أشهرهم «سنان بن سلْمَة الهذلي»، و«عبد الله بن سوار العبدي». والده «القاسم» ابن
عم «الحجاج بن يوسف الثقفي».

بصيحة عالية ارتجت لها الأجواء ثم بدأ يتحدث إليه فطلبت من «مازن» أن يترجم لنا ما يقوله فكان يفعل بعد كل جملة يسمعها أو ينطق بها، قال له الزعيم:

- وأخيرًا أتيت يا «أبا الماء».

- أبو ماذا؟

- الماء. رأيك في أحلامنا وأنت تردد تلك الكلمة: «أبو الماء».

صحت قائلاً له:

- هذا معنى اسمك يا «مازن» السحاب الممطر.

التفت الزعيم تجاهي وثقب جيبيني بنظرة فأدركت أنه يتفحص وشم التين عليه، سأل «مازنًا» عما قلته له فأخبره فرماني بنظرة أخرى واستردها وعاد يخاطب «مازنًا» وهو يشير إلى جيبينه:

- ذلك الرمز.

- الفيل؟

- نعم، رأيناه في أحلامنا يبرق على جيبك، لكن لون جلدك لم يكن هكذا!

- وماذا فعلت في أحلامكم؟

- أخرجتنا من الغابة هنا وخلّصتنا من اللعنة التي أصابتنا.

- أي لعنة؟

- منذ ثلاث سنوات خرجنا لمعركة من معاركنا فضللنا الطريق إلى

بيوتنا، حينها طاقت بنا أحجار غريبة وعزلتنا عنهم، لم نتمكن

من الوصول إليهم قط، نحن ندور في دوائر في تلك الغابة ونعود

إلى المكان نفسه، في أحلامنا المتكررة كنت تعرف الطريق إليهم
ودللتنا على الطريق. عليك أن تُساعدنا.

التفت «مازن» نحوي وكان يترجم لنا ما يُقال أولاً بأول، بدا لي أنه
يتخبط في ارتباك، قال وهو ينقل عينيه بين الأقفاص وبين وجه الزعيم:
- أتدري ما الذي فعله جنودك بي؟ لقد أهانوني!

- سأقطع رؤوسهم.

رفع «مازن» رأسه في كبرياء وقال:

- لا داعي لسفك الدماء، فقط أطلق سراح رفاقي أولاً فأنا أحتاج إلى
مشورتهم، وسأبذل قصارى جهدي لأعيدكم إلى عائلاتكم.

بإشارة واحدة من زعيمهم أخرجونا جميعاً، علمنا أنهم عندما رأونا
في الغابة لم يرغبوا في قتالنا بل كانوا يرغبون في طلب المساعدة،
وأنهم رموا سهامهم عندما أطلقت الجذات عليهم حلقات النار، كان
«السّمهري» يراقبهم في صمت بوجه متجهّم فهؤلاء قبلة أشقائه الأربعة،
وكان لديه من الحكمة القدر الكافي لضبط النفس. انتقلنا إلى مكان آخر
 واجتمعنا في ساحة واسعة تتوسطها نار عظيمة، كنت أرافق «السّمهري»
وأقنعت أنه يلتزم الصمت حفاظاً على حياته، أشار إليّ «مازن» لأنضمّ
إلى مجلسه مع زعيم «بني الأحمر»، وعندما جلست أمامه سألتني وقام
«مازن» بدور المترجم بيننا:

- يقول «أبو الماء» إنك أتيت من بلاده.

- نعم.

- وإنك أول من رأيت الرّموز في مدينة «تروثانتس».

- صحيح.

- لماذا لا يرونها مثلنا؟

- لا أدري.

أشار إلى جيبني وقال:

- ماذا يعني رمز هذا الكائن على جيبك؟

- ما زلت لا أعرف معناه.

- لماذا ليس لدينا رموز مثلكم؟

- حتى هذه لا أعرفها، ما زلت أبحث عن إجابات للكثير من الأسئلة.

حك الزعيم رأسه وسألني:

- كيف ستساعدوننا؟

- أخشى أن تكون هناك متاهة لا بدّ من اقتحامها.

- متاهة!

- دعني أحكي لك قصّتي من بدايتها.

بدأت أحكي له بالتفصيل و«مازن» يترجم ما أقوله، فلا حاجة إلى إخفاء الحقيقة وجميعنا عالقون في أحداث لا نعرف تفسيراً لها، وقد حجبت كل طائفة هنا عن أحبابها، وكأنّ أحجار «تروفانتس» تعاقبهم على القتل وإراقة الدماء!

اخترق أذني صياح الجدة وهي تقول:

- أشم رائحة غضب يا «ممدوح»!

أجفّلت عندما نادتنني باسمي فأدركت أنّها تنبهني وتحذّرني من خطر وشيك! فالتفتُ ورأيت «السّمهريّ» يجلس محتقن الوجه وكأنّه يتلظى، ندت منه صيحة غاضبة ووثب في مكانه فأدركت أنّه سينقضّ على زعيم «بني الأحمر» فأسرعت نحوه واحتضنته، جلست بجواره وكانت الأعين معلّقة بنا، ذكّرت به بأُمّه المسكينة التي تنتظر عودته، وشقيقته

التي طلبت مني بالراح أن أبحث عنه. اقتربت إحدى الجدات منّا غير
مبالية بالحرب التي توجّهت نحوها لتكشف عن سرٍّ من أسرارها، صاح
الزعيم يأمرهم بتركها فوضعت يدها على جبين «السّمهري» فابيضّت
عيناه وظلّ يشهق وكأنّه يُنازع، فصحت فيها أن تتوقف فوضعت يدها
الأخرى على جبیني فانفصلت عن الزّمان والمكان ورأيت المعارك التي
خاضها الأمراء الأربعة تباغاً، ورأيتهم وهم يقتلون زعماء بني الأحمر
وجنودهم بكلّ قسوة، ويطردونهم من حدود مدينة «تروقانتس» حتى
لا يستوطنوا الضّفة الغربيّة من النّهر الفضّي، كان القتل من الجانبين،
والنزاع من الطرفين، أفقت عندما نزع يدها عن جبیني وكنت أتعرّق
بشدّة. أتعبني ما مررت به وشعرت بدوار شديد وتشوّشت عيني وما
عدت أميز الأصوات، أتاني صوت «مازن» من بعيد وهو يقول:

- أنت في أمان، حاول أن تنام، أنا معك وفي جوارك.

انطفأ سراج عقلي وغرقت في نوم عميق.

- «ممدوح».

كان «مازن» يوقظني وبدا لي أنني قد أطلت النّوم، سألته وأنا أمشط
المكان بعيني:

- ما الذي حدث هذه المرّة؟

- يبدو أنّ الجبّة الخارقة أرتكبا شيئاً مرعباً.

- لقد فعلت وليتها ما فعلت.

- ماذا رأيت؟

- رأيت المعارك التي دارت بين «بني الأحمر» وجنود «تروقانتس».

- حقاً!

- كان هناك الكثير من القتلى من الجانبين، ورأيتهم وهم يطردونهم من حدود المدينة، كانوا يخافون منهم بسبب هيباتهم وجلودهم التي لوحتها الشمس فبدت وكأنها محروقة بلون نحاسي غريب.
- من فضلك انتبه لكلماتك، لقد أصبح لون بشرتي غريباً مثلهم! تأملت بشرته الزرقاء وقلت:

- سنبحث عن شيء يزيل عنك هذا اللون، وكذلك عن يدي.
- أتدري! صرت أشبه «ميجا مان»!
- عندما رأيتك لأول مرة ظننتك منطويًا ولم أتوقع أن تكون مشاكسًا هكذا!

- كنت منطويًا بالفعل، أمّا هنا فأنا الشخص الذي تمنيت أن أكونه، حرٌّ بلا قيود، لا يهتمني رأي أحد، وليس عليّ أن أرضي أحداً، لن أخسر شيئاً هنا سوى... حياتي!
- نتحدث وكأن الحياة لا قيمة لها!
- وما قيمتها؟

- هي أثنى ما منحنا الله من نعم.
- وإن كنت أرى حياتي بلا قيمة؟
- كلامك ليس بصواب، حياتك في حد ذاتها نعمة، وكونك «مازناً» بكل تفاصيلك التي أحببتها نعمة، وتمكينك في الأرض نعمة، أنت ذكي وعبقري وماهر في التحدث بخمس لغات!
- أنا...

بتر كلماته ووقف عاجزاً عن التفكير، قلت محاولاً انتشاله مما أُلِّم به:

- لا أدري ما الذي مررت به وجعلك هكذا، لكنني على يقين أن كل عرق ينبض في جسدك وكل نفس تتنفسه شاهد بمنة الله وفضله عليك، وأنت لا تستغني عن ربك طرفة عين.

- وماذا لو حُرمت شيئاً رجوت أن أناه بشدة وتعلقت روعي به؟

- ومن قال إن كل ما نتمناه يصلح لنا وإن كان فيه خيراً

- لم أر فيه شراً قط... ليت...

- لا تقل ليت.

- وماذا أقول إذا؟

- قل لا بأس، لعله خيراً!

أطرق في حزن فسألته:

- هل سعت بجد لتنال هذا الشيء؟

- سعت بكل نرة في كياني!

- جُرب مرة أخرى عندما نعود.

قال في حسرة:

- مستحيل، نحن نُمنح الفرصة مرة واحدة فقط!

ثم نكس رأسه وقال بآلم:

- لا عليك، انس الأمر.

- لا تكن بائساً! أنت غارق في نعم الله عز وجل، تتقلب فيها أناه

الليل وأطراف النهار، ومعرفة هذه الحقيقة أول طريق للعودة إلى

نفسك قبل أن نعود إلى وطننا. ﴿وَمَا بِكُمْ مِّنْ يَّعْمَةٍ فَيَنَّ اللَّهُ ثُمَّ

إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ (١).

(١) [سورة النحل: ٥٣].

دمعت عيناه وهو يسألني بخفوت:

- هل تصدق أننا سنعود؟

- بإذن الله.

جلسنا كتمثالين من جليد، وجدت أنني أحوج إلى كلماتي التي قلتها للتو منه، وكان من الجيد أنني سمعت صوت نفسي وأنا أرددها. حاولت أن أخفف عنه فسألته عن قدمه والأزهار وخلعنا جواربنا، وفوجئت بسيقان الزهور تلتف حول ساقي، وكذلك هوا لكن زهوره كانت تزداد عددًا وطولًا وتزحف نحو جرحه الذي أصابه من سرطان حدوة الحصان وكان هذا غريبًا جدًا.

أطرقت مفكرًا في حاله وحالي...

أوجاع الجسد تُرَمِّمها الأيام، لكن أوجاع القلب تبقى مفتوحة كنوافذ لا تُغلق، فالطعنة التي تقع في الروح تعاود النزف كلما صبَّ أحدهم ملح كلماته عليها، لن نشفى إلا إن نسينا، فالنسيان دواء، وكلما ابتعدنا عن تلك اللحظات التي طُعِنَّا فيها سنتعافى، تارة بالإيمان، وتارة باليقين، وتارة بأنامل الذين يُجيدون تضميد جراحنا، وحينها فقط سنشفى.

كان لا يزال ساهمًا فسألته هامسًا:

- والآن، كيف ستُساعد «بني الأحمر» يا «سيد الماء»؟

ابتسم قائلاً:

- «أبو الماء» من فضلك!

ثم أضاف في قلق:

- في الحقيقة لا أدري.

- لن يطلقوا سراحنا إلا بعد أن يعثروا على ذويهم.

- أعرف هذا لكنني حقاً لا أدري كيف سأساعدكم! ولا أدري ما قصة الفيل الذي يربض على جبيني.
- أشعر أن وشم التنين والفيل لهما علاقة ببعضهما، وهناك سرٌّ وراءهما.
- وأنا على يقين من هذا. وما أنت قد دخلت متاهة والتقيت بعض الشباب الذين اختفوا، لكنك لم تُعدهم إلى أهاليهم حتى الآن.
- ولا يزال هناك غيرهم. «زهير» ليس بينهم، وكذلك ابن الرجل الذي قذفني في المتاهة، وحتى والد الغلام «سبروت» الذي يتخاطر معه ليس هنا!
- أخشى أن تظهر متاهات تُفرِّق بيننا.
- سنكمل الطريق معاً بإذن الله.
- أرجو هذا. ولكن إن فشلت في مساعدتهم علينا أن نهرب، وعليك إخبار «السُمهري» بهذا.
- إن كان قد رأى ما رأيته فقد رأى مشاهد ثقيلة على قلبه، لا ريب أنه في حالة يرثى لها.
- لا يزال نائماً. لعلَّ الجدة التي تخطط القلوب المكسورة تُساعده.
- لقد انخرطت في العالم هنا يا صاح، صرت تؤمن بأعاجيب الجذات وأحجار «تروفانتس».
- المهم أنني التقيتك، أرجوك يا «ممدوح» لا تكن حليماً ولا خيالاً، لم أحظ بصديق مثلك من قبل!
- غمرنا صمت مهيب، حتى أنا كان أخي هو صديقي الوحيد، ومنذ هجرته لم أجد من أتكى عليه، لكنني لم أجرو على قول هذا لـ «مازن».

ثلاثة أيّام مرّت دون أن نعثّر على الطريق لبيوت «بني الأحمر» التي ضلّوا عنها، كنّا نتحرّك في جماعات صغيرة لنستكشف الغابة وطرقاتها، لازمونا كظلالنا، كانت الضّباع والذّئاب تتبعهم كما تتبعنا القطط! اقتربت منها أكثر من مرّة ومسست فراءها بكفّي.

كان «السّمهريّ» ورفاقه يقسمون أنفسهم حتّى لا يتركوا النّساء وحدهنّ، شارك معنا في البحث على الرّغم من كرهه لبني الأحمر حتّى نتمكّن من العودة إلى قلب مدينة «تروفانتس» ولكي تنتهي المهمّة بسلام، وكانوا يدورون في حلقات كما كنا نفعل ويعودون إلى المكان نفسه كما يحدث معنا، ونظّل نتبع محاربي «بني الأحمر» ونسير معهم في دروب الغابة الخضراء التي اعتادوا سلوكها لنبحث عن أيّ علامة أو مخرج ولا نصل إلى أيّ شيء! أخبرتهم أنني لاحظت اختلافًا في الطريق خلال الأيام الثلاثة فلم يوافقني أحد، عصرت ذاكرتي وأخبرتهم أنّ هناك مجموعة أشجار غريبة رأيّتها في اليوم الأوّل ولم تظهر لي مرّة أخرى ووصفتها لهم فقالوا إنها مألوفة وهناك الكثير منها وإنّهم مروا بها، أقسمت لهم إنّ الطرق تختلف وتلك الأشجار اختفت فلم يصدّقوني جميعًا، كان الغريب على عيني مألوفًا لهم فهم يرونها كلّ يوم، أمّا أنا فلفتت نظري لأنني لم أر مثلها من قبل.

راودني شعور أنّ الزّمن توقّف في تلك الغابة وقد علقنا بين ثانيتين! ولكن هذا مستحيل! اجتمعنا من جديد وكان علينا وضع خطّة لنخرج من دائرة التّيه تلك ولا نظلّ عالقين فيها للأبد، وأخيرًا جمع لي شباب مدينة «تروفانتس» أوراقًا تصلح للكتابة من الكرانيف^(١) خلال الأيام

(١) الكرانيف: أصول تبقى في جذع النخلة بعد قطع السّعف وتصلح للكتابة عليها. وقد استخدمها الصّحابة في تدوين القرآن عليها.

الثلاثة وكنت قد طلبتها منهم، أحرق أحدهم الخشب وأضاف برادة حجر أسود وصنع لي حبرًا، وقلم آخر عودًا ليصبح قلمًا وكنت ممتنًا لذلك.

بدأت أرسم خريطة المكان الذي درنا فيه بكل دقة، فرسمت ثلاث خرائط وكنت أرى أننا سلكنا ثلاثة طرق مختلفة، أحاطوا بي من كل حذب وصوب وجلست بجوار النار لأستضيء بها. قال الزعيم شيئًا فترجمه لي «مازن»:

- لماذا يرسم الطريق معكوسًا!

- معكوسًا!

قال «مازن»:

- كلامه صحيح، هناك طريقان أحدهما صورة معكوسة للآخر وكأنك تنظر إلى مرآة، الطريق نفسه وفقط بدلت الأشجار وتلك التلال على أحد الجانبين.

رفعت يدي عن الأوراق فجأة وراودتني فكرة جعلتني أقفز في مكاني، تذكرت كيف كانت المتاهة، وكيف كانت أحجار «تروكانتس» تبدل أماكنها وتدور وترتفع وتنخفض حين كنت أهرب منها، صحت ودقات قلبي تتواثب:

- المتاهة!

- أي متاهة؟

- التي مررت بها، الغابة هنا تُشبهها تمامًا.

- كيف؟

- الأرض هنا تستدير نحو الجهات الأربع، المساحات تتبدل، فما يكون جهة الشرق اليوم سيكون جهة الجنوب أو الغرب غدًا.

- وماذا يعني هذا؟



- ستتحرك جميعنا في جمع واحد، ولن نسير طويلاً بل سننتقل إلى بقعة مجاورة كل يوم بالتوالي حتى تظهر البيوت.
- ومن أي بقعة سنبدأ؟ وفي أي جهة سندور؟ وكيف ستحددها؟
- ليست تلك المشكلة! ما أخشاه أن تدور باقي البقاع أيضاً كما تدور الأرض التي سنقف عليها، فلا نصل إليهم أبداً. لكن ما يطمئن هو أننا كنا ندور ونعود إلى المكان نفسه، وهذا يعني أن هناك مناطق مركزية وتلك هي التي تدور.
- أتقصد مكان الأشجار؟
- نعم.

أشرت إلى الرسوم وبدأت أحللها ومعني «مازن» وكان يترجم لهم كل كلمة أقولها، انتظرنا حتى الصباح واستيقظوا جميعاً وقلوبهم يملؤها الحماس، فالיום هو اليوم الرابع وستعود البقعة التي تدور إلى مكانها الأول وستظهر الأشجار الغريبة مرة أخرى، سرنا في الطريق ووصلنا حيث ظهرت الشجرة التي أخبرتهم عنها من جديد، فحلّقنا حولها فقمتم ووضعت العلامات وساعدوني في دق أوتاد خشبية كعلامات في الأرض ورسمت بيدي على الأشجار حولنا لأؤكد لهم أنني على صواب، وتقاربنا قدر استطاعتنا وأمضينا النهار ونحن نجلس حول الشجرة وعندما حلّ الليل شعرنا باهتزازات خفيفة في الأرض تحت أقدامنا، كانت الحركة بطيئة جداً وكأنّ الشجرة على قرص كبير، أخبروني أنهم لا يشعرون بشيء فرجوتهم أن يصبروا، مرّت الساعات ببطء وخلدوا جميعاً للنوم، حتى أنا غلبني النعاس وأنا أحدّق إلى الفراغ أمامي، أيقظنا المطر الشديد في الصباح وكان المشهد أمامنا يُشبه كل المشاهد التي رأيناها من قبل، وكأننا لم نترك مكاننا الأول، لم تظهر الأشجار الغريبة فأدركت أن باقي بقع الأرض تتحرك أيضاً وتدور كما توقعت، والأمر أعقد مما

ظننت، وكأنها لعبة وأحجية كبيرة، لكنني ذكّرتهم أن العلامات التي رسمتها بيدي والأوتاد قد اختفت فسكنوا وجلسوا يتحاورون بلغتهم التي لم أفهم حرفاً منها، وكان «مازن» قد ملّ من تضجرهم وتوقف عن الترجمة ونقل الكلام بيننا، وكان شباب «تروثانتس» لا يجادلون فقد علمتهم عزلتهم الصّبر، طلبت منهم وضع العلامات بأنفسهم هذه المرّة ففعلوا، ومرّ اليوم ثقيلاً وانتهى بمطر شديد لكننا لزمنا أماكننا حتى غلبنا النّوم، وكنا نتناوب، بعضنا ينام وآخرون يستيقظون، ومرّت الليلة فكان المشهد الجديد التالي مخيفاً ومهيّباً، فقد برزت لنا النّمور من كلّ جهة وكانت الحيوانات تغد علينا جماعات وفرادى، وهنا طلبنا منهم السّماح للجذّات بالاقتراب من بعضهنّ فأمر الزّعيم بذلك، وفعلن كما فعلن من قبل وحالت الحلقات التسع بيننا وبين الوحوش الضّارية، وبدأ «بنو الأحمر» في اصطيادهم بحراهم فرأيت منهم مهارة شديدة وخفّة وأحياناً شراسة أخافتني منهم، حتى إنهم تصيّدوا الغزلان التي كانت تغد من آن لآخر وأشعلوا النّار وشوّوا لحمها وأكلوا حتّى شبعوا، وكانوا يقومون لقتل النّمور ويعودون وأيديهم مضمّخة بالدماء ليكملوا طعامهم، ولم يرف لهم جفن فأدركت أننا نسير مع العدو الذي يتربص بنا، ولولا حاجتهم إلى العون والمساعدة ليعودوا إلى أهاليهم لذبحونا، أراد «مازن» أن يقلّدهم فطلب من أحدهم إعارته رمحاً ليتصيّد نمراً من تلك النّمور التي تتربص بنا، فأخذ يوجّهه واستطاع أن يصوّبه تجاه قلبه تماماً وفعلها بمهارة! أدركت حينها أنّه وجد طريقة ينقّس بها عن بعض الغضب الكامن ب صدره ورأيت نظرتة وتعابير وجهه وقد تبدّلت، أسرع ذلك المقاتل وتخطى حلقات النّار بخفّة ليسترد رمحه ويعود، فهاجمه نمر آخر وكاد يقتله، لكنّ «مازناً» سحب رمحاً من مقاتل آخر وصوّبه تجاه عنق ذلك الوحش الكاسر فقتله، فتعالت الصيحات ودعاه المقاتل

حيث كان يقف ليسترد الرُّمَح بنفسه، فقفز «مازن» وتخطى الحلقات وانضمَّ له ولم يستجب لتحذيري بعدم تخطي حلقات الجذَّات التسع. حيَّاه الرُّجل الآخر بصيحات وردد كلمات لم أفهم كنهها، لكنني فهمت من «مازن» لاحقاً أنَّ هذا هو الابن الأكبر من أبناء الرُّعيم لهذا احتفلوا به. ومضت الليلة واستيقظنا من جديد لنجد العلامات التي رسموها بدماء الحيوانات التي قتلوها قد اختفت ليُطلَّ مشهد ثالث، وكان أمامنا درب طويل تحفُّه الأشجار الباسقة من الجانبين وغرقنا في حيرة هل نسلك الدُّرب أم نطلُّ في أماكننا، فنحن لا نعلم هل إن بقينا هنا ستعدينا الأرض إلى المكان الأوَّل نفسه أم لا؟ لم يكثر أحد منهم، فهم على أيِّ حال بعيدون عن أهاليهم وليس لديهم الرغبة في العودة إلى المكان الأوَّل.

بدأت أصوات أبنائهم تصل إلى مسامعنا فانطلقوا راكضين جهة الصوت، وسريعاً ما برزت بيوتهم المبنية فوق الأشجار وضجَّ المكان بصيحاتهم، تعانقوا وكان كلُّ رجل منهم يمسك بوجوه أولاده وينظر إليها والدموع تنهمر من عينيه، ثُمَّ يقبلهم ويضمُّهم إليه وهو يرتجف، عادوا إلى ذويهم ولكن ليس كما كانوا قبل الفراق، بل بدروس قاسية علَّمتها لهم غابة الصُّنوبر، الآن يُدركون معنى العائلة، تبادلوا نظرات صامته مع زوجاتهم تعكس ألف قصة عن الوجد، والوحشة، والألم، والأمل الذي لا يموت. ثُمَّ بدؤوا يحتفلون بالرُّقص والهتاف والصياح. تجمهر الغلمان أمام «مازن» وطفقوا يُحدِّقون إلى الرَّمز على جبينه وقد صار ظاهراً طوال الوقت لبني الأحمر وكذلك أهاليهم، كرروا جميعاً الكلمة نفسها «هائي» التي ترجمها لنا لاحقاً وكانت تعني «الفيل»!

أخبروه أنَّ هناك فيلاً يأتي من آن لآخر ليقف أمامهم وينظر إليهم، ثُمَّ يرحل في النهاية، ولأنَّهم يرون الفيل رمزاً للحكمة والقوَّة والرِّخاء والحظَّ

السعيد لم يتركوا مكانهم وظنوا أن تلك إشارة لهم. عادوا إلى احتفالاتهم وصيحاتهم المنعمة وكنا نراقبهم ونحن في حالة من السكون، فقد أراحنا اجتماعهم وكأننا أنجزنا مهمة ثقيلة. أقبل «السُمهري» يسأل متى الرحيل، واتفقنا على الانطلاق في صباح الغد، فقد أصر «بنو الأحمر» على الاحتفال بنا وإمدادنا بالزاد. أشعلوا النار ووزعوا الشعل وقربوا رسم الحدود لمكانهم حتى لا تدور الأرض وتفرقهم مرة أخرى، أما نحن فأخافنا أمر دوران بقع الأرض، فكل ما نرجوه هو الوصول إلى «مدينة تروقانتس».

اقترب شيخ هرم من «بنو الأحمر» برفقة الزعيم وجلس أمام «مانن» وأمسك بيديه وقال وهو ينظر إلى عينيه شيئاً، فتنهد وهو يراقبه يبتعد وقال:

- يقول إن الدماء المتخثرة التي ابتلعناها لم تضر بدني لكنها أظهرت حزن قلبي، وإن ذلك الحزن سيزول عني عندما أنأى عنه درءاً لانكسار نفسي حتى لا ينهش طمأنينتي، وحينها ستصفو روحي. دعانا زعيم «بنو الأحمر» إلى مجلسه فلبينا دعوته، كان لديهم طقوس غريبة قاموا بها قبل تقديم الطعام، رددوا ترانيم قديمة، ورقص رجالهم رقصة «الظلال السبعة»، وهم يرتدون أقنعة ترمز لسبعة محاربين قدامى على دقات الطبول، ثم تقدم زعيمهم خطوة وقال وهو يحني رأسه شيئاً، فترجمه «مانن» وهو يحدث نحونا:

- لم نكرمك كما ينبغي أيها الأمير!

انتبهنا جميعاً وكان أحدهم صعدنا بالكهرباء وهرولنا لنلتفت حول «السُمهري»، فقد تفاجأنا أن الزعيم يعرف أنه أمير «تروقانتس» وولي عهدهما، رفع يده ليُطمئننا وقال:

- كنت أعرف منذ البداية، وأمرت رجالي بعدم المساس به.

ثُمَّ أضاف في أسي:

- لقد تعبتُ من عدِّ الوجوه التي غابت بسبب عنادنا، لم نعد نملك إلا

أن نكسر تلك الأغلال التي شدَّت أعناقنا لسنوات.

وقف «السّمهريُّ» يسمع من «مازن» ما قاله الزّعيم للتوّ، ثُمَّ قال

بنبرة هادئة ولكنها مثقلة بالحزن على من فقدهم:

- ما عاد في قلبي مكان لطعنة جديدة، إنّ حروب «تروقانتس»

أنهكتني، ولن أكون أميرًا يُدخل قومه في ظلامٍ آخر.

اقترب الاثنان حتى صار ظلّاهما يختلطان فوق التراب ووقف «مازن»

بينهما، مدّ الزعيم يده وقال:

- ليكن بيننا عهدٌ يحرسه الشرف لا السيوف.

وضع الأمير «السّمهريُّ» يده فوق يد الزّعيم، كمن يضع ثقل

«تروقانتس» بأكملها على كفّه. أقسما أن يكون هذا اليوم بداية سلامٍ

تُغمد فيه السيوف. في تلك اللحظة هبّت ريحٌ خفيفة، كأن الأرض نفسها

تتنفس بعد اختناق طويل، وتحمل معها وعدًا خفيًا بأن الحرب التي

أنهكت الجميع ستراجع أخيرًا إلى ذاكرة بعيدة، شغرنّا جميعًا أن شيئًا

أكبر من الكلمات قد حدث للتوّ.

أعجبني كثيرًا إتقان «مازن» للغات عديدة، وقررت أن أتعلّم لغة

جديدة مثله، شاب لطيف الحشية وعبقرٍ مثله، لماذا يبدو مبطّنًا

بالحزن والقلق، وددت لو حملت عنه ما يثقل قلبه لأطرحه بعيدًا. عندما

كنا نستعدُّ للنوم قلت له وأنا أعقد يديّ خلف رأسي وأتأمل النجوم في

السّماء:

- لديك غرفة خاصّة ببيتك مليئة بالكتب والروايات الخياليّة.

- نعم.
- وهناك شاشة كبيرة ومكتب أنيق تعلوه رفوف عديدة مليئة بالكثير من الألعاب الإلكترونية التي حطمت أرقامًا قياسية فيها.
- صحيح.
- ومقعد جلدي دوار، وسماعات تعزلك عن العالم.
- وكأنك كنت معي!
- والدك كان يوفر لك الإنترنت بأعلى سرعة.
- بالتأكيد.
- ولك الكثير من الأصدقاء على مواقع التواصل الاجتماعي، وقد يكون لك متابعون بالآلاف.
- من كل بلاد العالم، أتدري أن لي صديقًا من «موزمبيق».
- لديك الكثير من الصور المعلقة على جدران غرفتك لأشياء عديدة تتمناها.
- سيارة سباق مثلاً!
- كنت على يقين من هذا.
- لكنني أجد بعضها غير مناسب لحياتي، أبقيتها فقط لأتخيّلها!
- بعض الأمنيات تشبه الملابس، قياساتها لا تناسب أرواحنا، نقترّب منها بحلم، ونبتعد عنها بحكمة.
- لقد عشت حياتي في تلك الغرفة، رأيت العالم من خلال الشاشة المحصورة بين الجدران الأربعة، وتعلّمت الكثير من اللغات والثقافات وأنا على المقعد أمام الحاسوب، لكنني لم أحظ بصديق

حقيقي على أرض الواقع، كان رفاقي يروني مملاً، لم أتمكن من فهم تعبيراتهم الغريبة وجملهم الساخرة وقفشاتهم.

- لكنك كنت سعيداً بعالمك الخاص. أليس كذلك؟

- بلى.

- لماذا إذا أنت حزين؟

تنهد بحرقة وظننته لن يجيبني، لكنه بدأ يتحدث وكأنني حللت عقدة بالون أوشك على الانفجار وقال:

- بدأ الأمر من عامي الثاني بالجامعة، فقد كنت غافلاً عن كل شيء في عامي الأول ووضعت كل جهدي في المذاكرة فحصلت على تقدير امتياز فبدأت ألفت الأنظار، لم أكن قد اختلطت بالفتيات من قبل، فأقبلت فتاة تُحدّثني وتفتعل الأسئلة لتراسلني على الإنترنت، بحثت عنها في اليوم التالي بالجامعة وعندما رأيتها خفق قلبي خفقاً ولم أذق طعم النوم تلك الليلة، ومرّت شهور وقلبي يتلظى وخشيت أن تُخطب لغيري وتضيع مني، فسلكت أشرف الطرق وأقصرها فأخبرتها مباشرة أنني معجب بها وأنوي التقدم لخطبتها بعد تخرّجي، ففرحت وأخبرتني أنها معجبة بي أيضاً وأنها كانت تتمنى هذا بالفعل وأتني فارس أحلامها بل أفضل! ووعدتني بانتظارها، فأخبرتها أنني لن أتحدّث إليها أو أراسلها مرة أخرى ووعدتها أن أزور أباه فور تخرّجي، أخبرت أبي وأمّي فشجعاني على إكمال دراستي وكان أبي فخوراً بما قلته لها لكي أحافظ عليها.

- وهل انقطعت عنها حقاً؟

- بالكامل، كنت أراها من بعيد كما يرى أحدنا القمر يروقه ضوءه
ولا يلمسه، لكنَّ عقلي كان يرسمها لي في خيالاتي كلَّ ليلة،
تحدثت معها في رأسي وأحلام يقظتي حتى إنني خرجت معها
والتقينا وزرنا أجمل بقاع العالم وعشت لحظات سعيدة على شقِّ
الوسن كلَّ ليلة.

- أكملت الرحلة في خيالك من طرف واحد.

- أجل وكنت سعيدًا بتلك الحالة وبحبِّي لها للغاية.

- وماذا حدث؟

- بنيت أحلامًا وردية، وخططت لأهداف عديدة، وأجلت آمنيات
واتخذت قرارات بناء على وعدها، منعت نفسي من الاستمتاع
بالكثير من الأشياء لأنها ليست معي، ولكن يبدو أنني كنت
أعيش الوهم، فقد فوجئت بخطبتها قبل امتحانات السنة الأخيرة
بالجامعة.

- يا إلهي! لا تخبرني أن هذا أثر على دراستك.

- تأثرت! وتأخرت مرتبتي بسبب انهيارني خلال الفترة السابقة
لآخر امتحاناتي وفقدت فرصتي لأكون عضوًا في هيئة التدريس
بالجامعة. لو رأيته حين أبلغني أستاذي عن هذا الأمر، كان ذلك
اليوم من أتعس أيام حياتي، بكيت كثيرًا حتى ظننت أنني سأموت
تلك الليلة، ذُبح حلمي أمام عيني بسببها.

- تلك الفتاة لم تُحبك.

- لكنني أحببتها بكلِّ ذرة في كياني.

- كيف وأنتم لم تتواصلوا لأعوام؟

- كان يكفيني أنها هي، حتى لو كانت سيئة الطباع كنت سأحبها.

- كلامك ليس بصحيح! هل عرفت عن خصالها وطباعها وتفكيرها
وشخصيتها و...

قاطعني قائلًا:

- لم أعرف غير عينيها وملامحها ونبرة صوتها عندما تحدثنا لمرات
قليلة، لم أنس ثانية واحدة من لقائنا هذا الذي صارحتنا فيه
بإعجابي.

- والتقط عقلك ذلك المشهد وبنى عليه قصورًا من رمال، وأضاف
الكثير من التفاصيل لتزداد توغلًا في حلاوة الأمنيات الخادعة.

- هذا ما حدث بالفعل.

- أنت أحببت حالتك التي عشتها مع صورة لها في خيالك، هذا ليس
حبًا حقيقيًا، الحب الحقيقي يحتاج إلى مشاركة وتعامل وحوار
ناضج تستشف منه أبعاد شخصيتها وعقليتها كما تفعل عندما
تزور فتاة في بيت أبيها لخطبتها، كان عليك أن تتريث عندما
داهمتك تلك المشاعر للمرة الأولى، فتلك الفترة من حياة أي شاب
تشبه التعرض لأسلاك الكهرباء العارية.

- أشعر أنها توغلت وانتهبت كل خلية في كياني، كنت أراقب كل
شاردة وواردة تخصها، حفظت ملابسها وملامحها وكل ما
يخصها، حتى نبرة صوتها وهي تتحدث مع زميلاتنا طُبعت في
ذاكرتي وأذني، أحببت وحدتي لأنني كنت حينها أستطيع التفكير
بها فتكون حاضرة في خيالي.

- أنت من أقحمتها وغرزتها في نفسك.

- بل هي! ألم تعطني إشارة؟ ألم تُخبرني أنها ستنتظر؟

- بلى.

- كان عليها ألا تفعل، أن ترفض وتصدني!
- وكان عليك الصمت ما دمت غير مستعد لخطبتها.
- وماذا أفعل في قلبي؟
- لهذا نبتعد ونغض أبصارنا ونضع حجابات بيننا وبينهن،
الإعراض في البدايات سهل، ولكنك كنت عفيفاً ذاك الحد الذي
جعلك تُخبرها مباشرة وبأقصر الطرق، وكنت بريئاً ذاك المنتهى
الذي جعلك تصدق وتثق وتبني آمالاً كبرى.
- أرعى الصمت حجابهِ علينا، رنوت إليه فبدا لي كالمريض فقلت له:
- وكأنك مريض وعليل بها!
- لم أجد حينها من أتحدث إليه لينصحنى، وحتى عندما كان هناك
من يتحدث عن تلك الأمور بشكل عام كنت أجده شيئاً عصياً على
الفهم، وكأن هناك حاجزاً بيننا.
- دائماً من يعيش المعاناة لا يرى الحقيقة إلا بعد مغادرة موطنها
ليرى الأمور من زاوية أخرى.
- كنت أشعر أن هذا حبٌ حقيقي، وأن سعادتي كلها في ارتباطي
بها.
- لهذا قلبك قد كُسر وأصابك الاكتئاب، لأنك صدقت من صميم قلبك،
أرجو أن تكون جراح قلبك قد برئت الآن.
- لعل «دموع الغمام» تصلح قلبي، أتدري أن تلك الجدة التي تخطط
القلوب المكسورة كما يقولون أزاحت شيئاً عن قلبي.

- لا تدع هدهدات كفوف الجدّات تُنسيك! ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَظْمِينُ
الْقُلُوبِ﴾^(١).

- صدقت.

صمت هنيهة وسألني:

- وأنت هل طرق الحبُّ باب قلبك؟

- لا.

- مستحيل.

- لم أسمح له، لعلّ هذا لأنني شخص تحليلي للغاية، أحسب الحساب
مرّات ومرّات قبل كلّ خطوة أخطوها، كنت أؤجل هذا الأمر دائماً
وأطفئ مشاعري كما تُطفأ النار بالماء.

- لماذا؟

- لم أجد فتاة واحدة كنتك التي تمنيتها في خيالي.

- أرايت؟ أنت أيضاً تعيش الخيال.

- لعلّها المثاليّة أيضاً.

استند على مرفقه وسألني:

- حسناً يا صديقي، هل خفّت زُرقة وجهي قليلاً؟

- في الحقيقة؟ ... لا!

- تبّاً لك.

استدار لينام وتركني أحذّق إلى النجوم التي تُضيء صفحة السماء
وابتسامة واسعة ترتسم على وجهي.

(١) [سورة الرعد: ٢٨].





@ART_OF_BOOK

٨

الفيل

أفقتنا جميعًا على نهيم الفيل الذي أفزعنا، كان يُكرره كثيرًا وهو راسخ في مكانه أمام بيوت «بني الأحمر»، احتشدنا أمامه فرفع خرطومَه وكأنَّه يحيينا. رأس كبير وأذنان عريضتان وجسد عظيم يغطيه جلد سميك رمادي اللون، وخرطوم طويل ونابان قصيران، خيم الصمت على الجميع عندما خطا خطوته الأولى ليقترب فتراجعوا وابتعدوا وبقي «مازن» الذي قال بصوت يرتعش:

- قدماي مسمرتان في الأرض!

هرولت نحوه ووقفت بجواره وقلت له:

- تراجع معي خطوة خطوة.

- حاولت ولكن قدمي ملتصقتان بالأرض!

- حسنًا أنا بجوارك.

- هل سيدهسنني؟

- لا يبدو غاضبًا، ولن يُهاجمك ما لم يشعر بالتهديد والاستفزاز.

- ماذا يُريد مني؟

- اهْدأ يا «مازن». لقد قتلت نمرًا بحربتك وهذا مجرد فيل صغير!

- كلُّ هذا وصغيراً!

- أجل فناباه قصيران.

اقترب الفيل حتى صار أمامنا مباشرة، رفع خرطوميه وأصدر نهيمًا^(١) عاليًا ثم لمس الوشم على جبين «مازن» بطرف خرطوميه فازداد بريقه، فجأة أراحني جانبًا ولف خرطوميه حول خصره وحمله ووضعته على ظهره. كان «مازن» في غاية الانفعال وكنت أصيح به لأطمئنه. كاد الفيل ينصرف فأطلق «مازن» صرخة وظل يكرر:

- لا. توقّف أرجوك!

لكنّه لم يتوقّف واستمر في سيره، وكنت ألاحقه ركضًا وأتحدّث إلى «مازن» الذي وجد نفسه في موقف لا يُحسد عليه، كاد الفيل يُغادر المكان لولا أحجار «تروكانتس» التي أطلت من كلّ حذب وصوب زحفًا على الأرض وأحاطت بالفيل فتوقّف بجوار شجرة وأسند رأسه إليها وسكن، فتمكّن «مازن» من التعلّق بها ونزل إلينا، وعندما اقترب قال:

- ماذا يُريد هذا الفيل منّي.

- لا ريب أنّ وراءه سرًّا، لهذا عليك أن تتعامل معه بحكمة.

- وكيف سأتعامل مع هذا الدُغفل!^(٢)

اقتربت من الفيل وبدأت أمسح على رأسه وكان ودودًا، كان ناباه بالفعل قصيرين، قلت وأنا أدور حوله:

- هذا ليس دغفلًا حديث الولادة، أظنّه في الرابعة عشرة من عمره مثلاً.

(١) النهيم: صوت الفيل.

(٢) الدُغفل: ولد الفيل.

- فيل مُراهق! هذا ما ينقصني!

ضحك «السّمهري» وقال:

- المهمُّ أنّه لن يؤذيك يا «مازن»، وها هي أحجار «تروقانتس» قد أوقفته.

شعرت وكأن ستارًا انزاح عن عيني، فرأيت الخيوط التي كانت مبعثرة حولي تتشابك فجأة، خيط يشد خيطًا آخر حتى تشكّل النسيج كاملاً أمام عيني فقلت:

- لعلّه يقودنا إلى «مدينة تروقانتس». أظنّه يعرف الطريق!

التفتوا جميعًا نحوي، سألني «السّمهري»:

- وإن ضللنا؟

- كلُّ شيء هنا يرتبط ببعضه بعضًا، أحجار «تروقانتس» دفعتني للقاء «سُهيل» فدخلت المدينة ليقذفوني في متاهة قادتني للقاء «مازن» لندخل معًا «حلقات الظلام التسع»، فتظهر الرُّموز على جباهكم وأدرك قصّة الجدّات، ونخرج من الحلقات التسع للقاء «بني الأحمر» الذين أصرُّوا على اصطحابنا إلى هنا، المتاهة التي خضتها وغابة الصنوبر التي ضللنا فيها وكيف تشابهتا في دورانهما وكأنّ الغابة في حدّ ذاتها متاهة أخرى دخلناها جميعًا، رمز الفيل على جبين «مازن» ثمّ ظهوره! حتى تغيّر لون جلد «مازن» أظنّ له معنى وقد يخصّه هو. ما كنت أظنّه فوضى لم يكن سوى ترتيب خفيّ من الله! فكلُّ خطوة قادتنا دون أن ندري إلى ما بعدها.

كانت كلمتي كطوق نجاة تعلّقوا به جميعًا. قررنا السير خلف خطى الفيل لنرى إلى أين سيقودنا، ودّعنا «بني الأحمر» وسرنا خلف

الفيل الذي حمل «مازنًا» من جديد وكان قد بدأ يعتاد الأمر، نشأت بينهما علاقة لطيفة، وكان الفيل عندما يمرُّ بشجرة مثمرة يلتقط ثمرة بخرطومه ويعطيها لـ «مازن»، وما مررنا بجدول ماء إلا وسحب من مائه بخرطومه وأغرقه فكان يضحك ويقهقه وأحيانًا كان يصيح في غضب. عندما جلسنا لنستريح اقترب وسألني عن سبب شرودي فقلت له:

- التنين.
- ما به؟
- تخيل أن يظهر لي كما ظهر لك الفيل!
- هُوَن عليك يا «ممدوح»، دعنا نصل إلى «تروقانتس» أولًا.
- ثم اعتدل وسألني:
- هل خفت زُرقة وجهي الآن؟
- كنت أرى لونه كما هو، فأشرت إلى رأسه قائلاً:
- العتمة هنا يا «مازن»، جيوش الاكتئاب تتربص في ثنايا روحك.
- أحاول أن أنسى وكأنتي أنزع، أتدري؟ قبل أن ألتقيك كان فؤادي يحترق.
- والآن؟
- خمدت النار قليلًا ولعلها تهمد إلى الأبد.
- انثر رماد الذكريات وحرر نفسك من أغلالها، كلُّ جرح فُتح في حناياك خلفه نعم مخبوءة والطفاف غير محسوسة، لعلك الآن سترها وتشعر بها.



منحني ابتسامة لطيفة وعاد إلى مزاحه مع الآخرين، عدنا إلى سيرنا ومررنا بالنهر الفضّي فتوقفنا وهرولوا جميعًا تجاهه، تعجّبت أنا و«مازن»! كانوا يُطالعون وجوههم في الماء ويتحدّثون إلى بعضهم بعضًا ويضحكون ويقفزون من شدّة الفرح! حتّى الجدّات أقبلن يُطالعن وجوههن فيه، ثم شيئًا فشيئًا صار كلّ منهم وكأنّه معزول عمّن حوله لا يسمع النداء ولا يلتفت لأحد! وبقيت الجدّة الضريرة وحدها والصغار يجلسون بجوارها، وكأنّ هناك من أمرهم بهذا ولم يتحرّك أيّ منهم أو يبكي! فأقبلنا عليها لنجالسها فقالت لنا فور أن سمعت صوتينا:

- هل تطلعتما إلى صفحة ماء النهر؟

- لا.

- لماذا؟ أسرع!

سألها «مازن»:

- ولم العجلة؟

- النهر الفضّي لا يعكس صورتك! بل يُريك ما فقدته! وفي هذا سلوى للفؤاد، سيروي الشوق ويسكنه.

وثب في مكانه وركض نحوه، ثمّ توقّف فجأة وعاد ليقف أمامي قائلاً:

- لا أريد أن أراها!

- هل تفتقدها؟

صمت هنيهة ثمّ هزّ رأسه وكأنّه نفّض شيئًا منها وقال بجديّة شديدة:

- ما عدت أشتاق إليها، لكنني أرغب فقط في نسيانها.

التفت نحو الجدّة وسألها:

- ألا تشمّين أيّ رائحة جديدة يا جدّة؟

- بلى.

- حقاً؟

- أشم رائحة جرح يلتئم!

لاح على وجهه شبح ابتسامة. سألني قبل أن يمضي:

- ألن تجرّب النظر إلى صفحة ذاك الماء؟

- بلى، سأجرّب.

سرنا معاً نحو النهر الفضيّ وماؤه الرقراق يبرق كاللجين، وكان
الشباب يصطفّون على ضفافه وينظرون إلى أنفسهم، اقتربت وقلبي
يخفق، لم يشعروا بنا وكان كلّ منهم في حال!

ترى ماذا سأرى؟

عندما ملت بجذعي لأرى ما الذي سيظهر لي لاح لي وجه أبي وأمي
فشعرت بالأرض تهتزّ تحت قدمي، انثنت وضممت يديّ إلى حضني
ووقفت أراقبهما وهما يضحكان وينظران إليّ تماماً كما كانا يفعلان
حين أتيت إليهما لأزفّ إليهما خبر نجاحي في عامي الأخير بالجامعة،
كانا بالهيئة والثياب، وددت لو قبّلت صفحة الماء! مددت يدي لألمسه
فشعرت بصعقة خفيفة محمّلة بالسعادة سرى دبيبها في شراييني،
كنت قد نسيت كلّ من حولي وانشغلتُ بالنظر إلى صورة أبي وأمي، لم
ينتشلني من فقاعة السعادة تلك إلا صيحة «مازن» وهو يقفز في الماء،
كان يصيح كالمجنون ويقهقه، لم يلتفت أحد إليه فقد شغل كلّ منهم بما
يراه، سرت بمحاذاة النهر لأشاهد ما الذي يراه الآخرون، فرأيت الجدّات
وهنّ يقفن أمام صورهن في شبابهنّ! ورأيت أمام كلّ شاب ممن كانوا
برفقتنا صورة لأبيه أو أمّه أو أشقائه، أمّا «الكفّ الخضيب» فقد كانت

تقف أمام صورة «السُمهري»! كان يظهر لها على صفحة الماء! بيد
هو على بعد أمتار من مكاننا يطالع شيئاً آخر! كيف تفتقده؟ ولماذا!
أدركت حينها أنها تخفي مشاعرها تجاهه فأشفقت عليها! هروا
نحو «السُمهري» فوجدته ينظر إلى أربعة من الشبان يشبهونه كثير
فأدركت أنهم أشقاؤه، وكان يقف كتمثال من الشمع يأبى أن ينصه
أمام حزنه، حدثته فلم يجبني وكانوا جميعاً كذلك، التفت نحو «مازن»
فوجدته يسبح والماء حوله يتلون وكأن الزرقة التي أصابت جسد
تتسرب إلى الماء. غطس غطسة وغاب لثوانٍ فشعرت أنها أثقل ثوازٍ
مرّت عليّ في حياتي وكدت أقفز لأخرجه، وأخيراً برز رأسه وقد عا
إلى وجهه لونه الرائق وانزاح عنه ما أصابه، كان لا يزال يضحك، ظننت
سيكون محجوباً عني كالآخرين فلم أناده، صاح في حماس قائلاً:

- لقد تعافيت!

وقفت أراقبه وهو يسبح في الماء ويغطس ثم يُخرج رأسه وينظر
إلى يديه ويصيح في فرح، سررت لحاله وعدت إلى الجدة وجلست
بجوارها، قالت عندما شعرت بحضوري:

- عندما يعودون جميعاً خذني إلى الماء.

- سأفعل يا خالة.

عندما أفاقوا من تلك الحالة التي تملكتهم وعادوا إلينا، خرج «مازن»
من الماء، وبينما أقبل الشباب يراقبونه ويتحدثون إليه، أمسكت بيد
الجدة وسرنا نحو النهر، طلبت مني أن أجلسها على ضفته ففعلت،
أنزلت قدميها في الماء ورفعت رأسها نحو السماء وخلت للحظة أنها
صارت ترى ما حولها! ثم ارتسمت على شفتيها ابتسامة رائعة، وبدأت
تحدث إلى أحبابها وكأنها تحييهم بأسمائهم وهم يظهرون تباعاً على

- وأعلم عن بعض ذكرياتك المؤلمة، ما رأيك أن تمنحني بعضها وأعطيك بعضاً من الأسرار الغامضة والمثيرة؟ لديّ حوادث قتل وقصص عن خيانات وغدر والكثير من الفضائح.
- لا حاجة لي بالأسرار والفضائح.
- صدّقني ستتسلّى وتستمتع حين تعرفها وتتفاجأ بما يحمله البشر من غرائب، الناس يختلفون عمّا يبدوونه لك.
- ذاك فضول خبيث لا يعنيني! ولا أرى في ذلك مُتعة.
- ماذا تريد إذا؟
- بعض المنطق.
- رقص شاربه تحت أنفه وقال:
- المنطق! لن تحتاج إليه في مدينتنا!
- لماذا؟
- المنطق يصيب الخيال في مقتل، ومدينتنا ليست كأَيّ مدينة أخرى! أترى حقاً ما نبيعه هنا؟
- لا!
- لكنك ستشعر به! لهذا ستحتاج إلى خيال واسع بحجم السماء.
- لماذا؟
- لكي تُصدّق! الخيال يمنحك حواساً أخرى بالإضافة لحواسك الخمس!
- أقنعتني!
- ابتسم فبرزت أسنانه المتأكلة وقال:
- هيا هات ما عندك من ذكريات حزينة لأمنحك بعض الفراسة.
- الفراسة!

- نعم، الفراسة ستكون طوق نجاة لك.
- لا أرغب في التخلي عن ذكرياتي وإن كانت حزينة.
- ستتراكم وسيزدحم رأسك، تخلّص من القديم والقاتم، وبدلاً من تخزينها في دهاليز عقلك أعطاها لي لأستفيد منها! ما حاجتك إلى الحزن وأنت شاب في مقتبل العمر؟
- الحزن أحياناً حياة للقلوب، وقد تكون في بعض ذكرياتي دروس لي حتى لا أكرر الخطأ مرتين.
- قلب شفتيه قائلاً في استخفاف:
- صدّقني، لن تحتاج إليها.
- دعك من الذكريات! لدي الكثير من الألم سيحتاج إليه من يرغبون في البكاء، وأملك رصيذاً من الندم إن رغبت، فقد سمعت أن البعض يشترونه ليمنحوه لقساة القلوب، وعندي أيضاً حفنة من تأنيب الضمير فهل هو مطلوب في السوق هنا؟ وأمّا الحزن فلديّ منه أطنان فخذ منه ما تشاء لتبيعه للنساء.
- يا مسكين! يبدو أنك تُحاسب نفسك كثيراً، لا تجلس وحدك وتستسلم للتفكير، أو تزوج، نعم تزوج بسرعة، زوجة تؤنسك تارة، وتثرثر تارة، وتنشغل عنك بالأولاد تارة، وتغار عليك فتزعجك تارة، ستشغل تلك المساحات ولن تجد الذكريات الحزينة مكاناً لتشغله.
- هذا نكد مُرْكَب!
- لكنه مشوب بحلاوة صدّقني، ليس هناك أقسى من الوحدة، ومن باب لا يُطرق، ومن أذن لا تسمع نداء باسم صاحبها، ومن كوب وحيد على طاولة، ومن وسادة خالية تجاورك في فراشك.
- الكثيرون لم يتزوجوا ويعيشون سُعداء.



الطريق، دارت العيون تفتش في الوجوه عن الأحباب، العناق لم يكن غناق أيادٍ وحسب بل عناق أرواح، الأمهات تتشمم أكتاف أبنائها، والآباء يتأملون كيف لعبت السنوات بقلذات أكبادهم، وأعينهم مלאها الفخر، الدموع مالحة لكنها تجري حلوة في الفؤاد لأنها دموع فرحة بعد اكتحال العين بعودة الأبناء، كانوا يتفحصون ملامح أبنائهم وكأنهم لا يصدقون أنهم هم! بينما ازدحمت ألف قصة في أعين الأبناء عن الضياع والخوف والوحدة، ظلل الأمان أخيراً على من عادوا والتأمت جراح قلوب آبائهم وأمهاتهم.

أقبلت «الثريا» راكضة ولم تبال بكونها أميرة وألقت بنفسها في حضن أخيها، بكت فجاشت أحزانه وكاد يبكي لولا وقوف أهل المدينة حوله وهم يراقبونه في إجلال فعض على شفتيه وكنم البكاء، وسريعاً ما وصلت الملكة «ذات الكرسي» في موكب جليل فهرع الأمير «السّمهري» إليها، خبأ رأسه في حضنها أخيراً وبكى. أبعد الجنود الحشد عنهما فقد كان الزحام شديداً، أصرّ «السّمهري» على إنزال الجذّات التسع من العربات بنفسه، أجفل أهل المدينة عندما رأوه معاً! ووقفوا يراقبونهم في صمت، فوقف خطيباً فيهم وكان لكلماته أثر بليغ في نفوسهم. لملمت الأصول فروعها وانصرفوا وقد فتحت كلماته أبواب قلوبهم.

سعد البعض بعودة أولادهم، وأمّا البقية فعلقوا أنظارهم بوجهي ينتظرون مني كلمة عن عزمي الدخول إلى متاهة جديدة لأعود بالبقية، فرجوت الله أن يوقّني فيما هو قادم.

بقي «مازن» محطّ أنظار الجميع فكانوا يُحدّقون تجاهه في فضول فهمس لي:

- لماذا يُحدّقون تجاهي؟ لقد زال اللون الأزرق!

- أنت غريب عنهم مثلي.



- هل رأوني في أحلامهم؟
- ربّما! ولعل هذا أيضًا بسبب ملابسك، لا تنس أنك لم تبدلها حتى الآن.

- ماذا سنفعل بالفيل؟
أجابه «السّمهري» الذي أقبل علينا ليحدّثنا قبل أن ينصرف إلى قصره:
- حقُّ علينا إكرامه فقد أعادنا إلى مدينتنا، وكذلك أنتما ضيفاي من اللحظة، هيا إلى القصر.

قالت السيّد «رشاء» وهي تقترب مع زوجها وبناتها يتبعنها وأعينهن ممثلة بالفضول:

- مولاي الأمير «السّمهري» إن أذنت لنا! «ممدوح» في ضيافتنا هو وصديقه.

- له أن يختار بيننا!

اخترت جوارهم فقد كان «سُهيل» أوّل وجه التقيته هنا، واستقبلتني عائلته بترحاب شديد، وكنت حزينًا لأنني لم أعر على ابنهم «زهير» لأعيده إلى أحضانهم، انصرف «السّمهري» إلى قصره وسرنا نحو بيت السيّد «نعش»، فهمس «مازن»:

- «سُهيل» وبنات نعش! هل نحن في السّماء بين النُّجوم أم ماذا؟

- نحن في «مدينة تروقانتس»!

- وإن يَكُن!

- ستجد هنا الكثير من الغرائب، أبسطها أن لكل شيء طعمًا ورائحة!

- سمعت من الجدّات عن الرائحة فقط!

- انتظر حتى تتناول «كعكة الضحكات الصّاخبة»، وتحتسي «القهوة الممزوجة بالحنين».

- ماذا قلت؟

ضحك «سهيل» عندما سمعني وسار بجوارنا وشقيقاته السبع يتبعنه، وسريعًا ما ألف «مازن» وبدأ يتحاور معه بينما كنت مشغولًا بخطوتي القادمة، فأهل المدينة لن يتركوني وسيدفعونني دفعًا للرحيل مرة أخرى، ولعلهم سيلقون بي في أقرب متاهة دون أن أستعد، وكنت أحتاج إلى النوم والراحة، فكان «حساء العيون الناعسة» أفضل ما تناولته من يد السيدة «رشاء» التي منحتني كسرة خبز معجونة بسكون الخواطر، طالعتني بنظرة عميقة وجلست تراقبني وأنا أتناول الحساء والخبز، وعندما انتهيت همست قائلة:

- هل تعبتي؟

- أجل.

- عليك أن تتحمل وإن كنت متعبًا، لا تتوقف كما كنت تفعل سابقًا، كان من المحزن أن تظل عالقًا ببيتك بعد وفاة والديك.

كنت قد نسيت أنهم يرونني في أحلامهم ويعرفون عني كل شيء، سألتها بفضول:

- سيّدة «رشاء»، هل رأيتم «مازنا» في أحلامكم؟

- لا، كنّا نراك أنت فقط!

- أتساءل هل علينا أن نكمل الطريق معًا أم من الأفضل أن يظلّ هنا.

- وهل من الممكن أن يدخل باقي البوابات معك؟

- لم تكن بوابة وحسب! كانت متاهة يا خالة.

- ما خلفها لا يظهر لنا في الأحلام.

- أخشى عليه إن تركته وحيدًا.

- لماذا؟

- هذا الفتى مجروح الفؤاد ولا يزال يتعافى.
- عليه إذا أن يبقى هنا في «مدينة تروثانتس» ولا تحمل همًا، سأعدُّ له «فطائر الفؤاد المكلوم»، والكثير من «كعكات الضحكات الصاخبة» حتى ينزاح الهمُّ عن قلبه.
- لي رجاء، لا تُعدِّي له القهوة الممزوجة بالحنين حتى لا تعاوده أحزانه.
- عقدت حاجبيها وقالت بنبرة العالمة الحكيمة:
- بالطبع لن أسقيها له!
- ثمَّ ضيقت عينيها وقالت:
- أتدري؟ لعلِّي أصنع له شيئًا ساخنًا وحارًّا يُذيب الهموم، «حساء جبر الخواطر» مثلاً! لا تقلق سأعتني بقلبه جيدًا.
- أثق في هذا.
- همست قبل أن تنصرف:
- أمّا أنت فعليك أن تُسرّع فقد رأيناك في حلم جديد.
- خفق قلبي فسألتها بفضول:
- أخبريني عنه.
- كنت تسبح في بحر «قاغ» وحوريّات البحر حولك.
- أكملني يا خالة...
- ثقل لساني وارتخى جفناي وشعرت بنعاس شديد فأخبرتني أن أسرع نحو الفراش لأنَّ مفعول الحساء قد بدأ، اخترق أذني صوت أحدهم وهو يقول بينما كنت أبتعد:
- لا تخف! ربُّ ساعٍ على دروب الخير أعانه الله فوصل.

تلفت فلم أجد أحدًا خلفي، وصلت إلى الفراش وألقيت بجسدي عليه
وغرقت في نوم عميق.



كانت الليلة هادئة ونعمت فيها بنوم عميق أراح خلايا عقلي، أيقظني
صوت «مازن» وهو يسخر من نفسه بعد ارتدائه تلك الملابس التي أعارها
له «سُهيل» والجميع يضحكون، فبدأ لي أنه أفهم وقد راقتهم روحه،
بعد أن انتهينا من تناول الفطور تذكّرت الغلام «سبروت» والتروس التي
أعطاه لي فسألت عنه لأتبيّن أهميّتها وسبب طلب أبيه أن يعطيها لي،
فصحبني «سُهيل» إلى داره أنا و«مازن»، عندما وصلنا خرج إلينا الغلام
وظننته سيسألني عن أبيه لكنّه قال مباشرة دون خوض في أيّ تفاصيل:
- يقول أبي إنّ عليك الاحتفاظ بالتروس الثلاثة فهو لا يعلم متى
وأين ستحتاج إليها.

- هل تستطيع التحدّث إليه الآن؟

- لا. أنا أسمع صوته فقط أمّا هو فلا يسمعني.

- وما أدراك؟

- جرّبت كثيرًا أن أطرح عليه أسئلة ولم يُجبني قط، كما أنّ ما يصل
إليّ منه ليس حديثًا وحوارًا بالكامل بل مجرد جمل وعبارات!
أخبرني مرارًا أنّه يعرف أنني أسمعُه وأنّه لا يسمعني لكنّه يشعر
بكلّ شيء.

- هل تصل إليه أخباري؟

- رآك في أحلامه، ظلّ يختصر الحلم في جملة ويكررها مرارًا.

- من أين أتيت بتلك التروس؟

- طلب مني أبي صنعها لك بهذا القياس بالتحديد، أرجوك ساعد أبي!

- سأبذل قصارى جهدي.

تركناه وتوجهنا إلى قصر «السُمهري» الذي رُحِب بنا وكان يجلس بين رفاقه الذين عاشوا معه داخل «حلقات الظلام التسع»، أخبرنا أنه قرر أن يتخذهم بطانة صالحة له ليعينوه على الحكم فقد صار لا يثق إلا بهم.

كانت غابة الصُنوبر قد ظهرت لأهل المدينة من جهة الغرب، وكذلك النهر الفضّي لكنّ بحر «قاغ» ظلّ محجوبًا عنهم! وبقي أن تظهر لهم الجبال والبحيرات الوردية وشاطئ بحر «قاغ» بأكمله والسُهول الخضراء الواسعة.

بدؤوا يُحدّثونني عن البوابة التالية وكنت أرجو ألا تكون متاهة ك تلك التي مررت بها سابقًا، لكنّ قلبي كان يُحدّثني أنها ستكون أكثر صعوبة. قال «سُهيل»:

- هل علينا إيقاف أخواتي السبع والغلمان مرّة أخرى على رأس الساعة ليظهر لك الطريق؟

- فلنحاول.

لم ننتظر حتّى يحلّ الظلام فقد كنّا نعلم الأرقام وأصحابها، فاستدعينا الغلمان وبنات نعيش السُبع، ووقف كلّ منهم في مكانه على الدائرة المخطوطة فلم يحدث كما حدث سابقًا. انتظرنا حتّى حلّ الليل وظهرت الرُموز لنكرر التجربة، ورأيت الرُموز أنا و«مازن» الذي سألني في فضول:

- كيف استطعت استيعاب كلّ تلك الرُموز باختلافاتها!

- قسّمتها وربطتها ببعضها بعضًا، انظر كيف تختلف رموز العائلات من أصول عربية عن رموز العائلات من أصول هندية وكيف تظهر الرُموز الصّينية والفارسية!

- تعرّفت على الرُّموز الهندية فقط، لكن على أيّ حال أغبطك على
إمامك بها بتلك الطريقة.

- عدني أن تعلّمني اللغات التي تعلّمتها عندما نعود إلى ديارنا.
قال في صوت مضطرب:

- «ممدوح»! إن ظهرت البوابة الجديدة هل سأستطيع دخولها معك؟
- لا أدري. وعلى أيّ حال سأغيب لبعض الوقت وأعود بإذن الله،
وأنت في أمان هنا مع «سهيل» و«السّمهري».
سألني في صوت تشوبه رنة قلق:

- ومن أين تدري أنّ في دخولها أمانًا وأنك ستصل إلينا هنا مرّة
أخرى؟

وجدتني أردد العبارة نفسها التي سمعتها فقلت له:

- ربّ ساع على دروب الخير أعانه الله فوصل.

- إن حدث وافترقنا اعلم أنني أنتظرك يا «ممدوح».

- ولتعلم أنني سأبحث عنك حتى أجدك مهما كانت الظروف بإذن
الله.

وقف الصغار في أماكنهم على أطراف الساعة المرسومة على
الأرض ولم يظهر الممرّ المضيء المؤدّي إلى البوابة التالية. ضجّ المكان
بأصوات أهل المدينة وتعالّت أصواتهم، كنت حائرًا ولا أدري ما ينبغي
لي فعله. تذكّرت الجدّات فطلبت من الأمير «السّمهري» إحضارهن إلى
وسط المدينة فاستدعاهنّ في الحال، وطلبت منهنّ مساعدتي لكنهنّ
لم يستطعن فعل شيء. كنت أتلجّج بين راحتي لعدم ظهور بوابة
جديدة فالغامض دائمًا مخيف، وبين قلقي لأنني أعرف يقينًا أنني لن
أعود إلى حياتي وبيتي إلّا بعد فتح تلك البوابات وإعادة الغائبين إلى
مدينة «تروقانتس». عدنا إلى منزل «سهيل» وكانت ليلة ثقيلة لم أذق

فيها طعم النوم. في الصباح التالي تصفحت السجلات التي دوّنا الرُموز والأسماء بها! حاولت الرّبط بين الأرقام وتحليل الأشكال لكنني لم أصل إلى مُرادِي. عدنا إلى تجوالنا في المدينة لعلّي أعثر على إشارة تدلّني على البوابة التّالية، مررنا بسوق الخواطر فقال «مازن» بعد أن عرف حقيقة ما يدور فيها:

- أرغب في شراء بعض السّعادة.

قال «سهيل» وهو يُشير إليه ليتمهّل:

- السّعادة بالذّات يطلبون لقاءها أن تتنازل عن شيء من الذّكريات

المؤلمة وتلك تحمل في طيّاتها الكثير من الأسرار الخاصّة.

- سأفعل! لدي رصيد كبير منها وأرغب في التخلّص منه.

- وأسرارك؟

- لا أحد يعرفني هنا، فليوزّعوها بالمجان على الجميع!

- هيّا بنا.

انصرفا إلى تاجر من التّجار وانشغلا معه، فقلت في نفسي لأفعل كما يفعلون هنا ما دمت أعيش الآن في «تروفانتس»! فتجوّلت باحثًا عن تاجر يبيّعني بعض المنطق لأستطيع تحليل ما يحدث لي، وكان هناك زحام شديد فلم أجد إلّا التّجار الثلاثة الذين يجمعون الأسرار والفضائح، توجهت إلى أوّلهم وكان ذا وجه مثلّ ولحية صغيرة كعُتْنون تيس وكأنّه ألصقها تحت فمه، وأنف طويل به ثؤلول كبير، وقفت أمامه واجمًا فقال وهو يرمش بعينه:

- زائر أحلامنا يزورنا لبيّتاع منّا!

- ما دمت قد رأيتني في أحلامك فأنت تعلم حتمًا مخزون الحزن

والأسى الذي أحمله.

صفحة الماء أمامها، ليتها ترى ما أراه فتصافح وجوههم بعينيها! رأيتهم
ورأيتها معهم في شبابها، أمّا هي فكانت تراهم بقلبها وكانت الذكريات
تتوافد إلى رأسها، وشعرت لوهلة أنّها تسمع أصواتهم!

على الجانب لاح لي وجه أبي وأمّي من جديد فرحت أجول بناظريّ
في صورتيهما وأمتّع فؤادي. لكنني لم أرتو! فسالت دموعي.

حمدت الله على رحمته إذ أودع في رؤوسنا صورًا لأحبابنا لا تُمحى،
وفي آذاننا أصواتًا لهم لا تُنسى، فتظلُّ أفئدتنا تشاق إلى اللقاء، وتبقى
أسننتنا تتمتم بالدعاء أن يللم الله شملنا في جنته.

كان علينا الرّحيل، فغادرنا ضفاف النّهر الفضيّ وتركنا قلوبنا تسبح
في مائه، وكان «مازن» أكثرنا سعادة!

الليل يسير ونحن خلفه، يقف أحيانًا ويلمس الأرض بخرطومه قبل
أن يخطو نحوها، وكأنّ معه بوصلة يسير حسب إشاراتنا، مررنا بالكثير
من أحجار «تروفانتس» هنا وهناك وكانت تهتزّ وتتحرّك عندما نمرُّ بها،
وكأنّها تدلُّنا على الطريق، اللهفة للوطن دفعتهم لمواصلة السّير وهم
يتعجلون رؤية الحدود.

نسير في دروب الحياة لأنّ الوقوف يثقل أرواحنا، لنعلم أنّنا لم نكتمل
بعد، وأنّ الخطوات القادمة قد تغيّر كلّ شيء، ومهما طال المسير بنا فهو
في النهاية سيحملنا إلى حيث نريد. نسير كي نُصالح الأيام ونشعر أنّنا
ما زلنا على قيد الحياة، ننضج ونحن نهول على الطريق، فخطواتنا هي
اللغة الوحيدة التي تقرؤها الأرض تحت أقدامنا فتترجمها إلى نصوص
تروي حكايات مررنا بها، وتعرف أسماءنا أكثر من معرفتنا بأنفسنا.



كنت أسير بجوار «السُمهري» عندما طلبت الجدة حضوره فصحبني
واقتربنا من العربية التي كانت تحملها، همست له وعلى شفتيها ترتعش
الكلمات:

- أشم رائحة الوطن!

قبل رأسها وصاح ليذف إلى رفاقه الخبر وعلى شفتيه ابتسامة عذبة،
جرى ماء السعادة في وجوههم المغبرة بأتربة الطريق، حثوا الخطى
ومهماتهم تتراقص مع ضحكاتهم فوق رؤوسنا، وعندما لاحت أشجار
المدينة التي يعرفونها خيم عليهم الصمت المهيّب، وكأنهم يخشون أن
يكون حلمًا عابرًا، سبقوني جميعًا حتى إنهم سبقوا الفيل نفسه فبقيت
أنا و«مازن» في المؤخرة، نراقبهم وهم يهرولون وراء بعضهم بعضًا
نحو الوطن، فهو الحكاية الأولى التي رويت لنا، والوجع الذي لا يبرأ إن
ابتعدنا.

وصلنا أخيرًا إلى بوابات «مدينة تروقانتس» قبيل الغروب، وعندما
دخلناها كان «سهيل» في انتظارنا، فتش عن وجه أخيه بين من وصلوا
وعندما لم يجده هز رأسه في أسي، ثم سحب قوسه وأطلق سهمًا مشتعلًا
فارتقى في السماء ثم اقترب مني وقال:

- ظننتك لن تعود.

- كيف حال أهل المدينة؟

- يتقلبون شوقًا إلى أبنائهم.

- وددت أن أعود بـ «زهير».

- ستعيده بإذن الله.

تناهى إلى مسامعنا أصوات جلبة تقترب، قرعت الطبول وأقبلوا
من كل حذب وصوب في جماعات، كانت قلوبهم تهول أمامهم على

- لعلهم من النساء! فهن أكثر منا احتمالاً للوحدة ولديهن رؤوس كبيرة تتسع إلى الحكايات والقصص ولهذا يأتين لشرائها منّا، كما أن الحنان لديهن فياض، أتدري أنهن يرفضن بيعه؟ لم تأتينا في السوق واحدة منهن لتبيع الحنان قط! لكننا ندفعهن للتنازل عنه أحياناً إن طلبن بضاعة نادرة، أما نحن الرجال فعندما نعيش وحدنا تتراكم علينا الأحزان.

قرب وجهه من وجهي وقال بنبرة الحكيم الفاهم:

- تلك فائدة الزواج التي لا يتحدثون عنها، يخبرونك فقط أن الزواج همٌ ونكد.

ثم تراجع للخلف وأغمض عينيه قائلاً:

- سأكتفي بشراء الحزن منك وسأترك لك تأنيب الضمير فلا أحد يُحبّه، أبسط يديك.

بسطت يدي لأتبادل معه الفراسة التي كنت أحتاج إليها بالفعل بحزني الذي رافقني طويلاً فأثقلني، رأيت الغبار الملون وهو يتصاعد من كفوفنا ويختلط، وعندما انتهينا شعرت بانسراح في صدري! وكان هذا غريباً جداً! وقبل أن أنصرف قال لي وهو يثقب عيني بعينه الغائرتين:

- لا يرحل أحد عن «تروقاتس» إلا إذا عرف لماذا دخلها.

- وكيف لي أن أعرف سبب دخولي هنا!

- لتساعدنا.

- أو لعلّه عقاب لي على شيء فعلته!

- أنت وحدك تملك تلك الإجابة.

قفز إلى ذهني سؤال فطرحته عليه في الحال وقلت:

- هل لديك سرٌّ من الأسرار يَخُصُّ البوابة التالية التي يجب عليّ ولوجها؟

مال برأسه ورماني بنظرة من طرف عينه وقال في خبث:

- بدأت الفراسة تؤتي ثمارها! في الحقيقة، كان لديّ بالفعل! أصابني الذُّهول ولاحظ هذا فأضاف مُسرَّعًا:

- لكنني دفنته في «مقبرة الأسرار».

- لماذا؟

- اشتريت السرُّ من فتاة يتيمة همست لها «قفزات الظُّباء» وهي تدفن سرًّا يَخُصُّها في «مقبرة الأسرار» وكان الهمس بسرٌّ عن بوابة في «مقبرة الأسرار».

توقَّف عن الكلام وأخذ يتلفَّت ثم همس قائلاً:

- تلك البوابة مشؤومة! من دخلها من أهل المدينة لا يعود كما كان! ولعلُّه يهلك هناك! لهذا دفنت السرُّ في «مقبرة الأسرار» بعد أن تناولته منها لأحمي أهل المدينة، فقد حاولت تلك الفتاة دفنه لكنَّها لم تستطع.

- وماذا عني؟ هل دخولي سيكون سببًا لضياعي وهلاكِي؟

- عليك أن تسأل «قفزات الظُّباء» بنفسك.

رنوت حيث كان «مازن» يبيع ذكرياته المؤلمة وكان «سهيل» بجواره، خشيت أن يصر على دخول البوابة معي فيهلك، فأنا لا أدري هل دخولنا نحن أيضًا فيه خطورة أم لا؟ أدرك التاجر ما يعتمل في صدري فهمس قائلاً:

- عليك أن تُسرَّع قبل أن ينتبها إليك ويدخلها معك.

- هل تستطيع حمل رسالة منِّي إلى أحدهما؟

أغض عينيه قائلاً:

- نعم، وسأحملها دون مقابل، فأنت ستُضحِّي من أجل مدينتنا
وواجب علينا أن نُساعداك!

- إنها لصديقي «مازن» الذي يقف مع «سُهيل».

- ذاك الوسيم الذي يعقص شعره برباط أزرق؟

- نعم هو، أخبره أنتي سأعود إليه مهما كانت الظروف وبإذن الله
سنعود إلى ديارنا معاً.

أخذ التاجر يشير إليّ بيده لأبتعد وكان يؤرجح رأسه فتهتَزُّ عمامته
بالأجراس الصغيرة المعلقة بها. هرولت خارج السُّوق فوجدت «الكفَّ
الخشيب» أمامي فأخبرتها بما حدث فسارت معي حتى حدود «مقبرة
الأسرار»، قبل أن أدخلها التفتُّ نحوها قائلاً:

- أرجو منك أن تُبلغي «السُّمهرى» بما حدث وعليكما إخفاء الأمر عن
«مازن» حتَّى لا يُعرِّض نفسه للخطر.

- سأفعل.

استوقفتني قائلة:

- تبدو خائفاً!

- نعم، دقات قلبي تتواثب، هذه المرأة لن يُلقيني أحد عنوة، بل
سأدخل بنفسى وأنا لا أدري إلى أين سأذهب؟ وهل هي متاهة
أخرى أم لا؟ وهل سأعود أم سأهلك هناك؟

- أليست كلُّ حياتنا كذلك؟

- بلى! نحن نفتح أبواب بيوتنا كلَّ يوم ونخرج منها لندور في
متهات ولا نعلم هل سنعود إليها مرَّة أخرى أم لا!

- وقد نهلك في لحظة!

أومات برأسي موافقًا، فمسحت وجهها بكفيها المخضبتين وقالت:
بنعمة تخالطها رنة حزن:

- ونضع رؤوسنا على الوسائد وننام ونحن لا نعلم هل سنستيقظ
مرة أخرى أم لا امض في طريقك دون أن تتردد كما كنا نراك
دائمًا في أحلامنا.
- توكلت على الله.

كانت تبدو متعبة وحزينة فأدركت أنها تعاني من مشاعرها التي
تخفيها تجاه الأمير «السُمهري»، فقلت لها:
- ما تحمليه في قلبك أثنى من أن يُباع في «سوق الخواطر».

قالت في تلعثم:

- من أخبرك أنني كنت ذاهبة لفعل هذا؟

- لعلها الفراسة التي ابتعتها من التاجرا

لم أخبرها عما رأيته على صفحة ماء النهر الفضي، وتركها لأدخل
«مقبرة الأسرار»، وفور أن دخلتها عم المكان سكون غريب وانقطعت
كل الأصوات وشملي ضباب كثيف وكأنه معطف ثقيل وما عدت أرى
ما حول المقبرة، توافدت أطياف الطبء الملونة من كل حدب وصوب
وكان أحدا رسمهم في الهواء بأقلام من نور قرمزي وأزرق وأبيض،
وأحاطوني وانطلقوا يقفزون حولي وينادون باسمي، وقفوا أمامي في
صف واحد، ثم استداروا معًا في آن واحد وساروا أمامي وكانوا يتوقفون
ليكرروا النداء بأصوات بشرية لكي أتبعهم نحو بوابة كبيرة تموه فيها
الألوان وتتداخل، وقفت أمامها في تردد وكنت أخشى الدُخول، وفجأة!
سمعت صوت أمي يُناديني من الداخل فارتج كياني وركضت نحوها
ودخلتها وكل ذرة في كياني تهفو إليها.

المتاهة الثانية

لم أنزلق هذه المرّة في دروب حلزونيّة، لكنني أوجست خيفة عندما وجدت نفسي محاطًا بالمرايا من كلّ جانب وصورتي تتكرر حولي في كلّ الجهات! ليست المرايا مثل تلك التي اعتدت رؤيتها، لكنّها أحجار كبيرة مصقولة ولامعة تعكس الصُّور وكلّ منها مؤطّر بقطع صغيرة من أحجار «تروفانتس» التي أعرفها، وهناك ضوء ناعم ينبثق من جوف كلّ منها وكأنّ مصباحًا قد أضيء في قاع كلّ حجر! ظلّ ذلك الضوء ينبض كالقلب حتى إنني شعرت أنّه يتزامن مع دقات قلبي. حاولت أن أقترّب لألمس سطحها المصقول فسرت في يدي صعقة فابتعدت في الحال، أيعقل أنّ أحجار «تروفانتس» صنعت تلك المتاهات بنفسها وصقلت الأحجار جيئة وذهابًا لتكون كالمرايا؟ وكيف تبدو كالمرايا!

لا يزال صوت أمّي يأتي من بعيد وهي تُناديني، كنت أعلم يقينًا أنّها ماتت وتلك حيلة نفسيّة لتجبرني أحجار «تروفانتس» على دخول تلك المتاهة ولكن صوت أمّي أثار أشجاني، بدأ يتردد صوت خافت تزامنًا مع صوتها، حاولت أن أتبيّن ما يقوله لكنّ صوت أمّي كان يأخذ بتلابيب عقلي وجوارحي.

حسنًا، سأسير دائمًا جهة اليمين مهما حدث، بدأت أنتقل من مرآة إلى أخرى وكنت أرى انعكاس صورتي ينتقل معي على المرايا، وفجأة ظهرت صورة أُمِّي في إحدى المرايا على يساري فحاولت تجاهلها، لكنها نادتني بأحبَّ الأسماء إليَّ وبدأت تُحدِّثني كما كانت تفعل فسُحِرْتُ ووقفت أنصت إليها، وانتقلت صورتها إلى حجر آخر فانتقلت معها، ثم إلى حجر ثالث فراجع فوجدت نفسي وقد ضللت عن طريقي الأول الذي كان على يميني وكُنت أحاول حفره في ذاكرتي، يا إلهي! الآن صرت أقف على مفترق أربعة ممرات كلُّ منها مليء بالمرايا. جلست على الأرض وحاولت أن أستعيد رباطة جأشي وتجاهلت صوت أُمِّي المصطنع فظلُّ يخفت شيئًا فشيئًا حتى تلاشى، وعندما هدأت دقات قلبي تساءلت في نفسي أيُّ ممرٍ من الأربعة أختار؟ بدأت الصُّور تتوالى على مرايا ممرٍ منها وكانت لـ «مازن» وكان يُناديني قائلاً:

- «ممدوح»، أين أنت؟ عد إلى سوق الخواطر أرجوك.

- «مازن»، هل تراني؟

ظلُّ صدَى صوته يتردد في ذلك الممر والصُّوت الخافت الآخر نفسه يتردد تزامنًا معه، حاولت أن أتبيَّن ما يقوله الصوت الخافت ففشلت، وفجأة اهتزَّت صورة «مازن» وتلاشت ثمَّ ظهرت صورتي في باقي المرايا وحدَّثتني!

إنَّه أنا «ممدوح» آخر وكأنَّه توأمي!

ظلُّ يناديني بنبرة صوتي نفسها:

- أنت، أقبل، تعال هنا.

لم أجبه فعاد يناديني:

- أتخاف من نفسك؟

أشعرُ بدني! قال باستهزاء:

- تهرب كالعادة ولا تجرؤ على النظر إلى عيني من يُحدِّثك.

استفزَّتني كلماته فرفعت عيني تجاهه وحدِّقت إلى عيني نفسي اللتين تنظران إليَّ من خلال حجر مصقول. يا الله! شعرت بخوف شديد! ركضت فركض انعكاسي بجواري في كلِّ حجر أمُرُّ به، وبدأت أراه في كل مراحل حياتي، وأنا طفل، وأنا مراهق، وأنا بالجامعة، وأنا أجلس في غرفتي أمام الحاسوب، وأنا في عملي، وأنا أضحك، وأنا أبكي، ثمَّ عادت صورتي الحالية التي كانت تحدِّثني، لم أشعر أنَّه أنا، بل كان شخصًا آخر يُطلُّ الشرُّ من عينيه، قال وهو يشير تجاهي:

- أنت السُّبب، كان عليك أن تقود السيارة بحرص أكبر، لقد قتلتكما.

- كاذب!

- لا تُحبُّ سماع الحقيقة، أليس كذلك؟

لم أجبه، كنت أشعر أن ألف شوكة رشقت في جسدي، استمر قائلاً:
- ماتا بسبب إهمالك لهذا فرُّ أخوك منك ولم يحتمل الحياة بقربك وسافر، أنت شؤم يا «ممدوح»، عليك أن تقتل نفسك.

ظلَّ يكرر كلماته ويضرب بيده على الحجر من الدَّاخل، وكانت عينا عالقتين به وهو يصرخ ويوبخني وكأنَّ روحًا أخرى نُزعت من صدري لتبتُّ الكره كُلَّه في نظرة مقبِية، وصرخة حانقة، وعتاب ثقيل ومؤلم! شعرت وكأنَّ حربة اخترقت فؤادي فجثوت على ركبتَي، كنت أتضعض لولا صورة أخرى لي برزت من الحجر المجاور وقالت:

- لا تنصت إليه، كان الخطأ من سائق سيارة أخرى وهو الذي تخطى الفاصل بين الطريقين وصادمكم، حتى تقرير الخبير الفني أقرَّ بذلك، وصور كاميرات المراقبة تثبت أنَّك لم تخطئ.

قلت وصوتي يكاد لا يخرج من حلقي:

- نعم، هذا ما حدث! أقسم إن هذا ما حدث!

- لا تضئِ عمرك في الحزن على قضاء لا حيلة لك فيه!

صرخت صورتني الأخرى وظلّت تضرب على الحجر من الداخل،
فالتفتُ نحوها وكدت أخضع من جديد فأتتني صورتني الثانية لتنتشلني
مرة أخرى عندما قالت:

- كان أبواك راضيين عنك، وأخوك يُحبُّك وما سافر إلا ليكمل دراسته
وأبحاثه في الجامعة التي دُعي إليها، وحتى إن استقرَّ هناك، حتمًا
سيعود.

بشكل هستيريٍّ بدأت أهرُّ رأسي موافقًا وكنت لا أملك التحكم في
ارتجاف جسدي كُلِّه ورحت أردد:

- صحيح، صحيح، سيعود أو سأسافر له!

سقطت على الأرض وشعرت وكأن روعي تُنزع مني فبدأت أذكر الله،
وحينها عاد إليَّ رشدي فأظلم الحجر المصقول وانطفأ ووجدت نفسي
في نهاية هذا الممرِّ المسدود بحجر معتم. تراجعت لأعود إلى النقطة
المركزية لالتقاء تلك الممرات ووقفت هناك أحاول البحث عن علامة
لأعرف بها هذا الممرُّ ولا أدخله مرة أخرى لكنَّها كانت كُلُّها متشابهة،
تكرر الأمر وصرت في حيرة شديدة وأتعبني دخول الممرات والخروج
منها، عدت إلى جلستي على الأرض وأغمضت عيني لأفكر بذهن صافٍ
بعيدًا عن تلك الصور التي تشغلني، ولكنَّ الأحجار كانت تصدر همسًا
وهسيسًا فكنت أفتح عينيَّ رغما عنيَّ، خلعت قميصي ومزقت أكمامه

وطويتها وربطت عيني لأخفف من تشنت عقلي وبدأت أصيخ^(١) السَّمْع،
فتعالت عدَّة أصوات في آنٍ واحد وجميعهم كانوا يُحدِّثونني وينادونني
وما عدت أُميِّز بين الجمل التي يرددونها، لكنَّها كانت أصوات أبي وأمي
وأخي و«مازن» و«سهيل» و«السُّمهرى» و«الكفُّ الخضيب».

بقيت على حالي جالسًا على الأرض والرباط على عيني وكنت أحاول
أن أكون هادئًا على الرُّغم من تكاثف الأصوات وتزايدها وتداخلها.
استطعت أخيرًا أن أُميِّز الصوت الخافت فقد أعانني إلغاء التشنت
البصري على التركيز، بدا الصوت وكأنَّه مُسجَّل وأحدهم يعيد الاستماع
إليه مرارًا وتكرارًا!

حين أدركت هذا ازداد الصوت وضوحًا وكان يُكرر جملاً محددة
بوتيرة واحدة وثابتة وبهدوء شديد، قالتقطت أذني الكلمات وعلقت
بنبرة صوته فتجاهلت كلَّ الأصوات الأخرى، كان يقول:

«إن كنت تسمعني الآن فهذا يعني أنَّك أدركت الخدعة.

أنت وحدك الآن، لن يعبر الظُّلَّة سواك، فتلك المعارك كُتبت لك
وحده.

من اتكأ على غير نفسه سقط قبل الوصول.

لا تستعن إلا بالله، ثم بما تبقى فيك من قوة لم تجرؤ يومًا على
الاعتراف بها.

أطفئ أذنك عن النداءات، فبعض الأصوات تأتي لتضلك، وإن جاءتك
متزيَّنة بأسماء تحبُّها.

(١) أصاخ السَّمْع يعني استمع وأصغى جيدًا وبتركيز شديد، وهو يعبر عن حالة من
الإنصات العميق والتركيز الكامل على ما يُسمع.

المرّات كلّها مسدودة وإنّما النجاح في الوصول إلى الحجر الذي لا
ينطفئ، فهو في حدّ ذاته نهاية المتاهة وبوابة ستخرج منها.

عندما تدرك الحقيقة ستنطفئ المرايا الكاذبة.

لا تضيع الوقت فكلّ ثانية تمرّ لها ثمن.

بعد أن تسمعني انزع الرباط عن عينيك وانظر إلى المرايا كما لم
تنظر من قبل، حاول أن ترى الأشياء بشكل مختلف، وانتبه فالنفس
تضعف، والوهم قاتل.

لا تدخل تلك المتاهة مرّة أخرى مهما حدث، ولتعلم أنني تركت لك
كلماتي بعد خروجي منها للمرّة الثانية وكانت تلك المرّة قاسية.

بعد خروجك كرر ما قلته لك على البوابة لتترك كلماتك تطوف وتدور
في الأثير بين الأحجار لعلّ أحدهم يحتاج إليها يوماً ما.

انتهى كلامه وتوقّفت حينها جميع الأصوات وساد صمت مهيب،
خلعت الرّباط عن عيني فألفيت المكان ساكناً وكأنّه مقبرة، ظللت على
حالي جالساً ولم يدفعني للقيام من مكاني إلا البرودة التي تسرّبت
إلى جسدي من الأرض، ارتديت قميصي مقطوع الأكمام وتوجّهت
نحو أوّل حجر ووقفت أمامه فظهر انعكاس صورتي، تأملت ملامحي
بتمعّن وتفحصت جسدي وتذكّرت جرح ساقي، فرفعت بنطالي لأراه
 فلم أجده في انعكاس صورتي، فأدركت أنّ هذا الحجر خادع فانطفأ
في الحال وصار معتماً. انتقلت إلى حجر مصقول آخر يلمع كالمرآة
فظهرت صورة «مازن»، فتحدّثت إليه عمّا حدث لنا وعن «بني الأحمر»
وكيف استطاع أن يحدّثهم بلغتهم، وسألته عن اسم صديقه الذي علّمه
اللغة الهندية فأخطأ، فأدركت أنّ هذا وهم كاذب فانطفأ الحجر، وتكرّر
الأمر وظهر لي أبي عشرات المرّات، وظهرت لي أمي أكثر منه، وظهر

«السّمهري»، و«سهيل»، و«الكفّ الخضيب»، والسّيّدة «رشاء» وزوجها
السّيّد «نعش»، حتّى التاجر الذي اشتريت منه «الفراصة» ومنحته بعضًا
من أحزاني ظهر وتحدّثت إليه، وكان عليّ في كلّ مرة أن أجاريهم في
الحديث وأنا أعرف يقينًا أنّهم خيالات ولكن عليّ أن أكتشف الخطأ الذي
سبقعون فيه أثناء الكلام، وعندما كنت أدرك كان الحجر ينطفئ في
الحال.

لعلّ بعض الفراسة التي اقتنيتها من «سوق الخواطر» أعانتني!
غريب أمرها...

وكأنّ تلك الأحجار لها نفوس وعقل وحيلة ودهاء!
أم هناك من يختبئ خلفها ويحرّك كلّ شيء؟
أين أنا؟ أين أنا؟

كانت أصعب الأحجار تلك التي بدت وكأنّ أشجار الصنوبر التي
رأيتها في الغابة محبوسة بداخلها أو ذلك النهر الفضيّ يجري فيها،
وتلك التي ظهرت لي وكأنّ ندف السّحاب تمشي من خلالها، فقد كانت
تنتابني حالة من الوهم وكأنني هناك وألمس الأرض بقدمي فأغرق في
تفاصيلها ويخال إليّ أنّها ذكريات حقيقية مررت بها حتّى أنتبه لشيء
يكشف لي أنّها وهم وكذب فينطفئ الحجر.

وصلت إلى حجر بدا لي وكأنّ بحر «قاغ» الذي رأيته من قبل أمام
عيني وماءه محبوس فيه، رأيت الموج وهو يتوالى على الشاطئ،
وشعرت وكأنني أقف على الرّمال المبتلة، شممت رائحة ماء البحر
واليود، ووجدتني أخطو للأمام وأسير نحو الماء وسرت حتّى غطى ماؤه
ساقبي، كنت حائرًا هل تلك حقيقة أم لا؟ رأيت «سرطان حدوة الحصان»
يطفو على سطح الماء أمامي فأدركت أنّه بحر «قاغ» بالفعل!

التفتُ وكانت البوابة تموه وتدور، فأسرعت كما قال لي الصوت
واستندت بيديَّ على حافتي البوابة وكررت كلماته التي قالها لي بالوتيرة
نفسها وبهدوء شديد لتبقى هناك وتتردد في المتاهة لعلَّ أحدهم
يحتاجها كما احتجتها اليوم، وكنت ممتناً لصاحب الصُوت ووددت
لو أعرفه، وعندما انتهيت انكشيت البوابة ودارت أحجار «تروفانتس»،
الصغيرة التي تؤطرها بسرعة شديدة وأغلقتها فتلاشت متاهة المرايا
التي أرهقت نفسي وعقلي، وكان ذلك الحجر بوابة الخروج فجثوت على
ركبتيَّ وتنفَّست الصعداء وجلست أحمد الله أن نجَّاني منها، وشعرت
حينها أنني ولدت من جديد.

كانت السماء تعانق البحر في زرقة لا متناهية، أسكرني هواء البحر
وسحرتني المياه المتلألئة، كنت أسير في حالة من الخدر وكأنَّ عقلي
قد توقَّف عن العمل ولا أعرف إلى أين أتوجَّه! قررت السير شرقاً حتى
وإن كان الدرب الأطول أو الأصعب، فالمهمُّ أن أكمل رحلتي وألا أضيع
وقتاً، ويكفي ما ضيَّعته من عمري عندما كُنت أتردد دائماً قبل اتخاذ أيِّ
قرار في حياتي. هاج البحر وماج فجأة وتوالت الأمواج خلف بعضها
بعضاً، وبدأ البحر يُلقي أشياء لم أتبيَّنْها إلا عندما اقتربت منها فوجدتها
ثياب فتاة صغيرة! جوارب ملونة، فساتين وسترات صوفيَّة، قلنسوة
أرجوانية ووشاح بلونها، قفاز مزركش، عدسة مكبِّرة، أقلام رصاص
وكرات ملونة، عقد وتاج مما ترتديه الفتيات، كنت ألتقط تلك الأشياء
في توتُّر، فكُلُّها من عالمي وليست أبداً كُعب «بنات نعش» المحشوة
بالقطن ولا ثيابهنَّ المخيطة من الكتَّان والفراء وجلد الماعز، ترى ما
الذي يقبع هناك خلف هذا البحر؟

ثم فجأة لفظت الأمواج فتاة صغيرة نحيلة لها شعر بني قصير ومموج، كانت ترتدي منامة صوفية وبدت شاحبة الوجه وقد أغمضت عينيها في استسلام، طفت على صفحة الماء وكادت الأمواج تسحبها من جديد فألقيت بجسدي وسط صخب الموج وسبحت نحوها وسحبته نحو الشاطئ، وبدأت أسعفها وضغطت برفق على صدرها فلفظت الماء وبدأت تسعل بقوة وتنفست أخيراً فحمدت الله.

فتحت عينيها وظلت تحدق إلى وجهي بمقلتيها السوداوين، ثم تلقّيت وهي ترتجف وسألتني بصوت متقطع:

- أبي، أين أبي؟

- هل كنت تبحرين معه في قارب أو سفينة؟

- كنت في... غرفتي!

- بدأت تنتفض من شدة الرعب، أمسكت بكتفيها وقلت لها:

- اهدئي يا صغيرتي.

- غير معقول!

تأملت منامتها والقلادة التي ترتديها وكنت على يقين أنها ليست من سكان «تروفانتس» فسألتها:

- ما اسمك؟

- لا أذكره. لا أذكر أي شيء! لكنني أعرفك.

- كيف؟

- أنت دكتور «ممدوح».

- صحيح، هل تذكرين أين التقينا؟

- لا.

- لعلك رأيتني في حلم مثلاً؟
 - حلم!
 - هل تذكرين كيف وصلت إلى هنا؟
 - لا.
 - ما اسم والدك؟
 - لا أذكر اسم أبي لكنني أعرف وجهه وملامحه!
 - وأمك؟
 - لا أذكر أي شيء عن أمي!
 - مرّ شبح الخوف بلامحها البريئة، حاولت أن ألهيها فسألتها:
 - كم عمرك؟
 - أمس كان يوم ميلادي. أتممت العاشرة من عمري.
 - ثم فغرت فاما وقالت بحماس:
 - كيف تذكرت هذا!
 - هذا جيد، ستتذكرين كل شيء بالتدريج.
 - شملت البحر بنظرة واسعة وقالت:
 - أرجو ذلك.
- أشفقت عليها وهي ترتجف، فالرياح باردة جداً وهي مبللة بالماء من رأسها وحتى أخمص قدميها، لملت أشياءها التي لفظها البحر معها في حقيبة قماشية كانت من ضمن ما لفظه البحر وحملتها والماء يسيل منها، ساعدتها في عصرها لأخفف الماء وحملت سترة صوفية لها وبسطتها لعل أشعة الشمس تجففها لترتديها، فأمسكت برداء لها وقلدتني بلا تردد وقفنا ونحن نحمل الملابس كالرايات فوق رؤوسنا

والهواء يضرب بها، قررتُ أن أختار لها اسمًا فاتفقنا أن يكون اسمًا له علاقة بالبحر، وذلك لأنه ألقى بها على الشاطئ! وقد راقها ذلك للغاية وأخبرتني أنها ستختاره بنفسها. طرحت الصغيرة خوفها سريعًا واطمأنت لأنها كما قالت تعرفني، كان لها عينان متقدتان تشيان بذكاء ونباهة، بدأت تسألني عمّا حدث لي فقصصتُ عليها ما حدث بإيجاز واخترت ما يناسب عمرها، لكنّها بدت لمّاحة وتوقّفت عند التفاصيل الصغيرة وسألتني كثيرًا فأخبرتها بكلّ شيء بالتفصيل، قاطعتني فجأة وقالت:

- علينا أن نسير شرقًا حيث جبال «لاش».

- جبال «لاش»!

- نعم.

- وكيف تعرفين هذا؟

طالعتني بنظرة فارغة وقالت:

- لا أدري! لعلّ ذاكرتي بدأت تعود بالتدريج كما قلت لي.

- كنت أسير تجاه الشرق بالفعل! هيّا لنجعل البحر على يسارنا ونسير وإن تعبت أخبريني في الحال.

- لن أتعب بإذن الله، أحبّ السير كثيرًا.

كانت تسير بخفة على الرّغم من كونها حافية القدمين، سألتني فجأة دون مقدمات وكان الفضول ظاهرًا على وجهها:

- هل ولدت «مديحة»؟

ضحكت وأنا أجيبها:

- تركتها في أمانة جارتي وهي على وشك الولادة.

- لماذا تضحك؟
- صارت «مديحة» مشهورة في مدينة «تروفانتس»، الجميع ينتظرون ولادتها. ولكن كيف تعرفين بأمرها؟
- ابتسمت في لطف، سرنا لمسافة طويلة وفوجئت بها تقول:
- تلك الرُّموز التي أخبرتني عنها.
- ما بها؟
- من يرسمها على جباهكم؟
- لم يشغلني هذا فالأمر برمته غريب ابتداء من القطار وحتى «مدينة تروفانتس».
- عليك أن تفكر كثيرًا لكي تعرف! لا ريب أنه يرسمها وأنتم تغطون في نوم عميق.
- ثم سألتني والفضول يملأ عينيها:
- أظن أنني سأحمل رمزًا على جبيني؟
- أظن هذا وأنتظر بشغف أن يحلّ الليل لأراه.
- توقفت فجأة وقالت:
- كان هناك لسان من اليايسة وفي آخره منارة سوداء!
- غريب! هل تعرفين هذا المكان؟
- أجابت في تردد:
- أشعر أنني أتيت إلى هنا من قبل!
- وفور أن أنهت كلماتها ظهر اللسان أمامنا وكأن هناك من يُزيح ستارًا حاجبًا ليظهره لنا أو يبنيه لبنة لبنة أمام أعيننا، هرولت نحو المنارة

السوداء وهي تناديني لأتبعها وكنت أتعجب من جرأتها، فقد بدت وكأنها
نعرف المكان ولا تهابه، سألتها وأنا أراقب خطواتها:

- هل تعرفين من بالداخل؟

- لا أذكر شيئاً لكنني أجدني أعرف بعض الأشياء كما أعرف أنك
الدكتور «ممدوح» الذي حمل القطط التي دهست السيارة أمها
واعتنى بها جيداً.

- يا إلهي!

التفتت نحوي وقالت في رجاء:

- أرجوك لا تسألني كيف عرفت هذا لأنني حقاً لا أعرف!

- حسناً! عليك أن تتمهلي قليلاً، فلتسيرني بجانبني فقد تعرضين
نفسك للخطر.

توقفت والتفتت نحوي وقالت:

- ليتني أتذكر اسمي الحقيقي! ولكن على أيّ حال سأختار اسماً
مناسباً.

- حسناً سأطرق الباب وقفي خلفي.

اقتربنا من باب المنارة السوداء، وكان باباً خشبياً طويلاً قد تأكلت
حوافه من رطوبة البحر، قرعت الباب وانتظرت فلم يجبني أحد، قالت
الفتاة وهي تدقّ بقبضتها على الباب:

- ترى هل عاد حارس المنارة؟

- عاد من أين؟

- أعرف أنه يأتي كل يوم ليتفقد تلك الجهة من الشاطئ ويضيء
شعلة عظيمة في قمة المنارة قبل أن ينصرف وقت الغروب لتظلّ

مضيئة طوال الليل ليأنس بها البحارة والصيادون العائدون من رحلات الصيد.

حرت في أمرها فسألتها:

- لعلك من سكان مدينة «تروقاتس»؟ وتلك الأشياء التي لفظها البحر لا تخصك؟

- بل كلها تخصني!

- كيف تعرفين تلك الأشياء؟

- ليتني أعرف!

ظهر الارتباك على وجهها عندما شعرت أنني لا أثق بها، قلت لأطمئنها:

- هل تشعرين بالبرد؟

- نعم.

- أظن السترة قد جفت قليلاً فلترتديها.

أطاعتني وارتدتها في الحال فقلت لها وأنا أحمل عنها حقيبتها:

- لا ريب أن ما يحدث لنا يُخيفك.

أجابتنني بعينيها، كنت أعلم أنها تخفي خوفها الذي كان يتلاشى من عينيها عندما تُشغل عقلها فسألتها لألهيها:

- هل تعرفين شكل الحارس أو اسمه؟

- لا!

ازددت حيرة في أمرها عندما دفعت الباب ودخلت إلى المنارة وهي تقول:

- إن لم يظهر الحارس سنُشعل النار بأنفسنا.

- ومن قال إننا سننتظر حتى يحلّ الليل؟

- لن يسمحوا لنا بالدخول دون رفيقته!

- من هم؟

- سكان الوادي المحصور بين جبال «لاش».

توقفت عن التعجب مما تعرفه فقد أيقنت أنها ليست خبيثة ولا تتصنع هذا، كان هذا غريباً وكان عليّ أن أتقبل الأمر فقد تقبلت الأغرب منها! ولعلها رأت هذا في أحلامها، قلت وأنا ألوح لها بإصبعي لعلها تطيعني ولا تقدم على تصرف غير مسؤول:

- لن نشعل النار.

- لماذا؟!

- لا ينبغي أن نعرض أنفسنا للخطر.

- ولكن قد يضيع الصيادون!

- وماذا لو كانوا من شرار الناس؟

صمتت هنيهة وقالت:

- وماذا سنفعل؟

- حسناً لننتظر الحارس الذي لا نعرف اسمه حتى يعبر بنا جبال

«لاش» التي لا نعرف مكانها، وإن لم يأت سنساعد الصيادين

الذين لا نعرفهم!

رسمت ابتسامة لطيفة على شفتيها، فأضفت وأنا أحذرهما:

- لكننا سنبحث عن شيء لنحمي أنفسنا به إن هاجمونا.

قلت جملةتي الأخيرة وأنا أجول بعيني في المكان، كانت المنارة من الداخل هادئة يسري فيها تيار دافئ وكأنها أنفاس خرجت من صدر شخص متعب، على الجانب ثمة طاولة من خشب الجوز عليها صحن

فيه كسرة خبز يابسة وبقايا من الزيت والجبن، المعطف الجلدي المعلق على المشجب يشي بأنه لرجل بدين، كان هناك مدفأة جُهزت بقطع من الأخشاب وتنتظر من يُشعل بها النار، فتشت عن شيء أشعلها به لنتدفاً ونُجفف ثيابنا، رأيت مصباحاً صغيراً واهناً يتراقص لهبه الضعيف على أحد الرفوف ويكاد لا يرى، فسحبته بحرص شديد حتى لا ينطفئ وأشعلت خشب المدفأة وجلست بجوارها، وانضمت إلي الصغيرة التي قررت فجأة أن تطلق على نفسها اسم «جُوجُو»، فوافقت دون نقاش فمن الخطأ مناقشة الفتيات وخصيصى في الأسماء التي نطلقها عليهن، بسطت قلنسوتها الأرجوانية وقفّازها المزركش وسترتها وكل ما لفظه البحر معها لتجففهم، وسألتنى وهي تبسط كفّيهما أمام المدفأة لتستمدّ منها بعض الدّفء:

- هل تظنُّ أن هناك عمالقة يعيشون في وديان جبال «لاش»؟
- لن يكونوا أغرب من سكان مدينة «تروفانتس»، رأيت منهم الأعاجيب حتّى الآن.
- أرجو أن يكونوا مسالمين.
- لا تخافي فنحن معاً.
- رنت إليّ بإباء وقالت في عِزّة:
- لست خائفة! فقط يَملُكني فضول شديد وأتَعَجّب مما أعرفه!
- لعلك رأيت هذا في أحلامك.
- أتظنُّ أننا في حلم من أحلامنا الآن؟

أسرعت أضغط على جرح ساقي حتى يؤلمني لأؤكد لنفسي أنني لا أحلم، وكنت قد اعتدت هذا كلّما راودتني فكرة أنه حلم طويل وذلك

بعد أن ذبلت زهور «دموع الغمام» وسقطت فور عودتنا إلى مدينة «تروفانتس»، وقلت لها بيقين:

- ليس حلمًا يا «جوجو».

كنت أعلم أنه ليس حلمًا لكنها تجربة غريبة بكل ما فيها. نعست «جوجو» وتكورت بجوار المدفأة واستسلمت للنوم فأحضرت المعطف المعلق على المشجب ودثرتها به، وغلبني النعاس وأنا جالس، عندما فتحت عيني وجدت المعطف على صدري وأنا مُمدد على الأرض بينما «جوجو» تجلس أمامها خريطة مبسوطة أمامها وقد انكفأت عليها تتفحصها. قالت عندما لاحظت استيقاظي:

- تلك الخريطة لمدينة «تروفانتس».

- أي خريطة؟

- وجدتها في جيب المعطف.

أسرعت أتفحص الخريطة، كانت مخطوطة بدائية لجزء من المدينة بيد أنها ناقصة فقد رأيتها كاملة من قبل عندما وقفت مع «سهيل» عند وصولي، بدأت أشير إلى الأماكن الناقصة ووصفتها لها، أخرجت أقلامها وبدأت ترسم وناولتني قلمًا وأومأت برأسها إلي لأشاركها، فأكملت رسم المدينة كما رأيتها من أعلى دون الإشارة إلى التفاصيل الدقيقة، وعندما انتهيت تناولت القلم من يدي ووجدتها تضع علامات ثم أشارت إلى وسط المدينة وهي تقول:

- هنا المِزولة الشمسية، وهذه المتاهة الخضراء، وتلك المتاهة القرمزية، وأما هذه فالمتاهة الزرقاء، وتلك المتاهة الوردية، وأخيرًا المتاهة الذهبية.

لم أسألها كيف علمت بأماكنها وأسمائها لأنني أعلم أنها لا تدري
كيف تفد المعلومات إلى رأسها، لكنني سألتها عن الألوان فأجابتنني
والحيرة تسكن عينيها:

- لا أعرف ما تعنيه الألوان!

- المتاهة الأولى كانت الخضراء، لأنها أدخلتني إلى غابة الصنوبر
بأشجارها الخضراء، وتلك القرمزية مررت بها، وهذا يعني أننا في
طريقنا إلى المتاهة الزرقاء حيث أشربت الآن يا «جوجو».

- أرجو أن تكون متاهة آمنة.

- ستكون بإذن الله.

فُتح الباب فجأة ودلف رجل بدين له لحية كثيفة وأنف خطافي
وعينان كبيرتان لهما وسادتان منتفختان تحتها، كان عابسًا وله فم
صارم وكأنه لم يبتسم قط، قال فور أن رأيته:

- وما قد أتيت!

- أظنك رأيتني في أحلامك يا سيدي. أليس كذلك؟

- بلى، جميعنا نراك كل ليلة.

ألقي قطع الأشجار من بين يديه فمدت له يدي لأصافحه فرفع
كفه على مضض فوجدتها شديدة البرودة، ظلّ قابضًا على يدي لثوانٍ
تقرّس خلالها في ملامحي، ثمّ حيّا «جوجو» بوجه جامد دون أن يمنحها
ابتسامة وسألها:

- ما اسمك؟

- «جوجو».

- هل هذا والدك؟

- قلت وقد بدأت أرتاب منه:
- أنا عمُّها وهي في رعايتي.
- كيف تصحب فتاة في عمرها إلى جبال « لاش »؟
- إن كنت قد رأيتني حقًا في أحلامك فأنت تدري كيف أتيت إلى هنا!
- نراك فقط وأنت تفتح البوابات لتُعيدنا إلى مدينة «تروقانتس» ولم نر كيف أتيت وليس لدينا علم أنَّ تلك الفتاة معك.
- هل هناك ما يُخيف خلف تلك الجبال؟
- رمانى بنظرة غامضة ثم قال:
- لا!
- لن يصيبها أحد بسوء بإذن الله. أليس كذلك؟
- بلى.
- قال الحارس وهو ينحني على الخريطة:
- أراك قد أكملتها، يبدو أنَّك تحفظ كلَّ بقعة حول المدينة!
- خشيت أن أخبره أن «جوجو» من أكملتها، أردت أن أعرف من رسمها بشكل غير مكتمل فسألته:
- هل أنت من رسمها منقوصة هكذا؟
- بل تلك الفتاة الكثيبة التي تبكي دائمًا!
- لماذا كان الرُّسم غير مكتمل؟
- أسألها بنفسك عندما نصل إلى الوادي فهي تعود دائمًا وتبكي من جديد.
- صعد الحارس على درج حلزوني وأشعل نار المنارة السوداء، وهبط ليصحبنا إلى وادي «لاش» قبل أن يهبط الظلام، ارتدت «جوجو»

قلنسوتها وقفازا وسترتها واستعرت من الحارس معطفه المبطن
بالفراء فالتلوج قد بدأت في التساقط تباغا. سرنا خلفه وكان البرد
قارسا وندف الثلج تتساقط حولنا، وكانت «جوجو» تتعلق بذراعي
وتسير بصعوبة فقد أعرتنا جوربي وحشوته بالقماش لأصنع لها حذاء
حتى نعثر لها على ما يناسبها، تلفتت «جوجو» عندما ابتعدنا وتأملت
ضوء شعلة المنارة وهو يلوح بحمرته وسط أحجارها السوداء الفاحمة
وسألت الحارس:

- ماذا لو اشتدت الرياح وأطفأت النار؟

أجابها دون أن يلتفت قائلاً:

- النار في كوة لتحميها من الرياح، تلك المنارة بُنيت بمهارة
وهندسة بديعة.

- أرى العاصفة الثلجية قد بدأت تشتد وقد تطفئ النار!

- أستطيع رؤية المنارة من فوق الجبال، عندما تشتد الرياح أصعد
لأراقبها.

ثم أضاف ببرود:

- أبناء «لاش» يراقبونها ويخبرونني لأعود فأشعلها بعد انتهاء
العواصف، وأحياناً يشعلونها بأنفسهم.

كانت الجبال تلوح من بعيد، جبال بيضاء، وأخرى سوداء، وتتوزع
بينها جبال ملونة! عندما اقتربنا أكثر شعرت برهبة شديدة حين رأيت
الطرق البيضاء مخطوطة على الجبال السوداء، والطرق السوداء
مخطوطة على الجبال البيضاء، تذكرت الآية: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ
وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ﴾^(١).

(١) [سورة فاطر: ٢٧].

وقفنا أمام ممر ضيق بين جبلين وكان ممهدًا بعناية فالتفت الحارس
وقال بجديّة شديدة:

- لا بدّ من عبور هذا الممرّ، سترون «الظلال الهاربة» فتجاهلها
لنصل إلى قلب الوادي، لا تلتفتا واستمرا حتى نصل بسرعة.

تقدّم أمامنا فتبعناه حيث يسير وقد أحاطتنا ظلمة خفيفة وكان
الجبلان على يميننا ويسارنا أحدهما أبيض والآخر أسود، بدأت الظلال
السوداء تتحرّك على الجبل الأبيض، والظلال البيضاء تتحرّك على الجبل
الأسود وكأنّها أشباح تتحرّك وتوسوس لنا، قبضت «جوجو» على ذراعي
وكانت خائفة فأخبرتها أن تغمض عينيها وسحبته خلفي حتى نجحنا
في الخروج من ذلك الممر المهيّب، أطلّ الوادي الواسع والجبال تُحيط
به من كلّ جانب في مهابة وسحر عجيب. كان حارس المنارة السوداء
قد سبقنا بمسافة كبيرة، التفت إلينا ليتعجّلنا فتبعناه، رأيت سكان
تلك البقعة الغربية وهم يجتمعون وسط الوادي ويقلّبون أعينهم في
صفحة السّماء، عندما رأوني حيوني بإشارات من أياديهم وإيماءات
من رؤوسهم، لم يمنحني أحد منهم ابتسامة، كان هناك شيء غريب
يسكن أعينهم لم أدرك كنهه! وقع في نفسي أنّهم جميعًا يعرفونني
حتّى إنّهم اعتادوا رؤية وجهي فكانت تحيّيهم باردة وكأنّهم ملّوا من
رؤيتي مرارًا وتكرارًا، لم تكن لديهم لهفة سكان «مدينة تروفانتس»
الذين كانوا ينتظرون وصولي لأخلّصهم من اللعنة وأبحث عن أبنائهم
مما استوقفني!

لماذا لديهم فتور تجاه ما ألمّ بهم من فُرقة؟

ألا يرغبون في الرّجوع إلى مدينتهم؟

ألا يشتاق الأبناء إلى آبائهم؟

وهؤلاء الكبار ألا يرغبون في العودة إلى بيوتهم؟
عادوا يُقْلَبون أبصارهم تجاه الجبال حولهم فسألت حارس المنارة
عن السبب فقال:

- ينتظرون عودة أبناء «لاش».

- ومن هم أبناء «لاش»؟

أشار إلى أحد الجبال فبرزت من خلفه كوكبة من الشباب والفتيات
وكان لكلّ منهم جناحان شفافان وكأنّهما من البلّور الرائق يطير بهما!
تبادلت النظرات مع «جوجو» التي قالت في حماس:

- بشر يطIRON بأجنحة!

- غريب!

- انظر إلى الفتاة قويّة البنية التي تتقدمهم!

قال حارس المنارة السّوداء:

- إنّها «غيداء».

عندما هبطت تلك الفتاة على الأرض ضمّت جناحيها فتقلّصا واختفيا
في طيّات ردائها، وطففت فوق الأرض دون أن تمسّ ساقاها الأرض
وكانّها معلّقة في الهواء، كانت ثيابها غريبة وكانّ أحدهم لفلفها بقماش
ملون فبدت كالمومياء وكذلك رفيقاتها من فتيات «لاش»، فوقع في
نفسه أنّهن يفعلن هذا للتسرّ فالشباب لا يُلْففون أجسادهم مثلهن،
انزاح جسدها الطافي نحو الحارس وحيّته فهمس لها بشيء فأقبلت
علينا وكان لها نظرة ثاقبة، قالت وكأنّها تلومني:

- لماذا أتيت؟

- لأساعدكم في العودة إلى «مدينة تروقانتس».

- ومن أخبرك أننا نحتاج إلى عونك؟ بل من أخبرك أننا نريد العودة أصلاً!

كان رفاقها من أبناء «لاش» قد أقبلوا خلفها وانضموا إليها وأحاطوا بي وهم يضربون الهواء أجنتهم، بإشارة من رئيسهم وكان شاباً طويل البنية له شعر مجعد مبعثر حول وجهه في حلقات، ألقوا القبض عليّ وكأنني مجرم هارب، كانت «جوجو» تصرخ وتطالبهم بإخلاء سبيلي فصاحت «غيداء» وهي تشير إليها:

- اجبسوها معه.

أمسكوا بها وقادونا إلى كهف بأحد الجبال وكان أهل الوادي يشيعوننا بنظراتهم، قالت امرأة منهم عندما مررنا من أمامها:

- ليس من العدل أن تعاملوهما بتلك الطريقة!

قالت أخرى:

- لماذا تؤذون الفتاة المسكينة؟

قالت «جوجو» موجهة كلامها لي:

- يخشون العودة لأنهم سيكونون هناك بلا أجنحة.

ضربتها «غيداء» بقبضتها على رأسها وقالت:

- هذا ليس من شأنك!

- لم تظهر لكم الأجنحة إلا بعد خروجكم إلى الجبال.

- كيف تعرفين كل هذا؟

- أعرف وحسب، كما أعرف أن لك أختاً تبكيك كل حين وتنتظر عودتك.

- من أين أتيت؟ ثيابك غريبة!

طالعتها «جوجو» بتحْفُزٍ وكررت كلماتها نفسها فقالت:

- هذا ليس من شأنك!

صفعتها بقوة فرفعت «جوجو» رأسها وقالت:

- لن تستطيعوا إرغامنا على دخول ذلك الكهف.

- ستدخلين رغم أنفك.

- لا!

فور أن أنهت «جوجو» كلمتها بدأت أحجار «تروثانتس» المنتشرة حولنا في التحرك، سارت في خطوط مستقيمة ثم طفقت تضربهم في سيقانهم وأقدامهم فابتعدوا عنَّا والتصق الفزع بوجوههم، اقترب حجر عريض منها وكان أكبر حجر رأيته منذ وصولي وارتقى أمامي وكأنه يصدُّهم عني، صعدت فوقه وسحبت «جوجو» إلى جواني فوق الحجر نفسه فارتفع بنا وارتفعت رؤوسهم معنا.

في تلك اللحظة برزت من بين أهل الوادي فتاة عشرينية، مبط حجر «تروثانتس» بالتدرج ليستقرُّ أمامها، توقَّف الزمان وغابوا جميعًا عن ناظري وخلت وكأنني أقف معها وحدنا في هذا الوادي، عندما تلاقت نظرانا شعرت وكأنني أعرفها وتعرفني! عيانان لامعتان ووجه ساحر ملامحه رقيقة وملفوف بوشاح وردي وكأنها وردة تفتحت للتو، كان على جبينها رمز لطائر يبسط جناحيه، فتعجبت لأنها الوحيدة هنا التي يظهر الرَّمز على جبينها، كما أن الغروب لم يَجُنْ وقته بعدا نظرت نحو الغرب وقالت:

- اقترب وقت الغروب!

وأجهشت بالبكاء ثم هَمَلت عيناها هَمَلًا فبدأ كلُّ من حولها يُهدِّثون
من روعها ويكررون عليها: «توقفي، لا تبكي، ستذوبين من البكاء يا
فتاة».

قال حارس المنارة وهو يقلِّب كُفَّيه:

- عادت تلك الكئيبة إلى البكاء!

قالت «غيداء» في ضجر:

- فلتذهب إلى الجحيم!

لم تتوقَّف عن البكاء فتراجعوا للخلف وبدأت صورتها تهتزُّ أمام
عيني، ثُمَّ بدأت أطراف ثوبها تتلاشى شيئًا فشيئًا، بل واختفت أقدامها!
وكانت ترفع يديها عن وجهها وتطالع أبناء «لاش» في أسى ثُمَّ تعود إلى
البكاء! تفككت صورتها وذابت واختفت تمامًا من أمام أعيننا وتركت
خلفها بقعة من الماء على الأرض، كنت أحدِّق تجاهها ولا أصدِّق أن تلك
الفتاة ذابت بالفعل من فرط البكاء واختفت كما كانوا يرددون!
رأيت بقعة الماء تفور ثُمَّ انبثق منها طائر بديع له جناحان رائعان
وحلَّق مبتعدًا فصاحت «جوجو»:

- لكنَّ «العنقاء»^(١) تخرج من الرَّماد! وليس من الماء!

- نحن في مدينة «تروفانتس»، فلتفعل «العنقاء» ما تشاء!

همست وهي تشير إلى العنقاء وهي تبتعد:

- لا تتأخري في العودة يا «رُميساء».

(١) العنقاء هي طائر أسطوري قديم ورد ذكره في الأساطير العربية والفارسية
والمصرية، سُميت العنقاء لوجود بياض في عنقها كالطوق، ويُشار إليها بالعديد
من الأسماء مثل «الفينيق» في الأساطير اليونانية، وفي الثقافة العربية كانت تُعتبر
من المستحيالات الثلاثة، كما أن هناك كوكبة سماوية تحمل اسمها «كوكبة العنقاء»،
ونجمها اللامع هو «عنقاء المغرب».

- أهذا اسمها؟
- نعم.
- أتعرفينها؟
- ألم تمل من تكرار هذا السؤال يا عمّاه؟
- قالت امرأة وهي تشيّع «العنقاء» بنظراتها:
- ستعود في وقت لاحق وهي لا تذكر أين ذهبت ولا كيف كانت.
- سألتهما وكنت في غاية الاندهاش:
- متى ستعود؟
- ربّما بعد دقيقة، وربّما بعد ساعة، وربّما بعد ليلة.
- غريب أمرها!
- قالت «غيداء» وهي ترميني بنظرة فضول:
- بل غريب أمرك أنت! ما قصّتك مع أحجار «تروقانتس»؟ وكيف تتحكم بها.
- هذا ليس من شأنك!
- ضحكت «جوجو» فازداد حنق «غيداء» علينا وكأنّ الجنّ قد ركب رأسها، وكانت أحجار «تروقانتس» تتذبذب وكأنّها تذكرهم بوجودها.
- حان وقت الغروب فسمعت صوت انطفاء جذوة النّهار ففزعت «جوجو» ونذت منها صيحة ثمّ سألت في خوف:
- ما هذا؟
- هكذا يهبط الظّلام هنا ويبدو أنّك لم تعرفي بهذا الأمر من قبل.
- من أين يأتي؟
- لا أعرف كنهه، لكنّه يتزامن مع تلك اللحظة.

كان الصوت كنفيير عام لسكان الوادي حيث اجتمعوا ووقفوا في خشوع وسكينة وهم يرفعون أبصارهم نحو السماء التي أظلمت فجأة، شعرت بضوء طفيف يصدر من جيبيني فالتفتُ نحو «جوجو» ورأيت الرمز يضوي على جبينها! التفتت نحوي وحدثت إلى التنين على جيبيني وسألتني وقد اتسعت عيناها:

- هل ظهر على جيبيني رمز؟

- نعم.

- صفه لي.

- متاهة مستديرة.

- ماذا؟ أليس هناك طائر أو حيوان؟ صقر أو ذئب مثلاً؟

- متاهة فقط! وتبدو معقدة.

ابتسمت لأول مرة منذ أن رأيتها فأشرقت عيناها، رفعت يدها وتحسست جبينها بأطراف أناملها وقالت:

- تُرى من رسمها على جيبيني؟

كانت الرموز قد ظهرت على جباه كل من بالوادي وبدا لي أنهم لا يرونها، فحارس المنارة السوداء لم يلتفت للثنين على جيبيني، انصرفوا عناً فجأة وكأن هناك ما ألهاهم!

كانوا يركضون يميناً ويساراً وعيونهم معلقة بأبناء «لاش»، يرفعون أياديهم وكأنهم سيلتقطون منهم شيئاً يقذفونه ويتهافتون على الوقوف تحتهم حتى إنهم صاروا يصطدمون ببعضهم بعضاً تحتهم، أخذني الفضول لمعرفة ما سيسقط منهم! لعلهُ شيء ثمين كالذهب مثلاً!

وفجأة! بدأ أبناء «لاش» يتساقطون بين أيادي أهاليهم وعلى الأرض وطفق آخرون يهرولون نحوهم ليحملوهم، وانكفأ بعض سكان الوادي

وساروا يتخبطون وكأنهم فقدوا أبصارهم، وأمسك رجل برأسه وظلّ
يصرخ من صداد شديد، وكان هناك طفل من أبناء «لاش» رأيته عندما
أقبلوا بأجنحتهم سقط على الأرض هو الآخر وبدأ جسده ينتفض
ويتشنج، حمل أبوه رأسه وجلس يمسح جبينه فسألته:

- ماذا حدث؟

- هكذا أبناء «لاش»، عندما يحلّ الليل لا يستطيعون السير.

- لماذا؟

- هؤلاء مرضى.

جلت بعيني في المكان وقد تبدّل ما كان فيه فور اختفاء الأجنحة
النورانية الشفافة، رأيت الآباء والأمهات يهرولون تجاه أولادهم والخوف
يرتسم على صفحات وجوههم، ووجدت أبناء «لاش» يتذمرون في ضيق
وبعضهم كان غاضبًا، لم أر أحدًا بينهم على وجهه الرضا بحاله، طال
وقوفنا وكنت أراقبهم في صمت وأتساءل عن كينونة تلك الأجنحة وكيف
تبرز لهم وتحلّق بهم! همست في حيرة:

- ترى ما حقيقة تلك الأجنحة وكيف تظهر لهم؟

سمعني الأب وكان لا يزال بجوار ولده أمامي فقال دون أن يرفع
عينيه عنه:

- ليس من المهم أن نعرف ماهيتها، المهم أنها تظهر وتمنحهم
السعادة نصف يوم.

- وهل هذا يكفي؟

- نعم!

- هل هذه حقيقة أم هي وهم وسحر لأعيننا؟

- ألم ترها بعينيك؟

رنوت إليه فوجدته غاضبًا ولو استطاع ترك ولده لأشبعني ضربًا،
كنت أقدر ما يشعر به تجاه ولده فأثرت الصمت واحتفظت بالسؤال
الآخر في رأسي: هل الأفضل مواجهة الحقيقة والرضا بها والتعايش
معه؟ أم إخفاؤها وكأنها شؤم يخلجون منه؟

لاحظ الرجل شرودي فقال وهو يلومني:

- ألا يكفي ما هم فيه؟ إنهم معاقون!

- اتعني أن ابنك «كريم الساقين»؟

سألني ابنه وهو يُحدّق إلى وجهي:

- ماذا تعني؟

- هؤلاء الذين قدر الله عليهم ألا يسيروا على أقدامهم «كرام السيقان».

سألتنى «جوجو» وكانت تنصت إليّ باهتمام شديد:

- لماذا؟

- لأنهم لا يسيرون على دروب الشر ولا يسعون إلى المعاصي
بأرجلهم كما يفعل آخرون، كما أنهم خلّقوا هكذا بحكمة من الله
ولطف خفي.

قال شاب ضريّر كان يسمعني:

- ما أجمل ذلك اللقب!

اقتربت منه قائلاً:

- وأنت «كريم العينين»، يكفي أنك لا تنظر إلى الحرام كما يفعل
البعض بملء إرادتهم.

أقبلت امرأة بكماء وأشارت إليّ فقرأت السؤال في عينيها فقلت لها:

- وأنت «كريمة اللسان» يا خالة، لا تسببن الناس ولا تنطقين بسوء.

أشارت إلى قلبها ونظرت إلى السَّماء، كانت تحاكيّني بنظرات تشي
بمعانيها الواضحة دون حاجة إلى حرف واحد فقلت لها:

- وتذكرين الله بقلبك، ويسمعك!

اغرورقت عيناها بالدموع وأشارت إلى غلام نحيف كان يراقبنا
بعينيه النابهتين ويحاول أن يقرأ شفاهنا ونحن نتحدّث، فقال أحدهم:

- هذا الغلام أصم لكنه ماهر في قراءة الشُّفاه.

وقفت «جوجو» أمامه وقالت وهي تضع يديها على أذنيها:

- هو كريم الأذنين إذًا! لأنّه لا يسمع الفحش من القول.

ثمّ التفتت نحوي وسألتني:

- أليس كذلك؟

- بلى!

- أغبطهم جميعًا.

كانوا جميعًا يعلقون أعينهم بي، وقد وقعت سهام كلماتي في
مرماها، أدركت أنّهم يتألّمون، ويتألّم من أجّلهم أحبابهم، عادت الأسئلة
تتواثب في جمجمتي...

لماذا أبعدتهم أحجار «تروفانتس» عن البقيّة؟

وكيف السبيل إلى العودة؟

هذا اختبارهم، بل لكلّ منهم اختبار مختلف عن الآخرين! فما هو

اختباري وابتلائي هنا بزيارتي لهم؟

وكيف سأساعدهم؟

قطع شرودي عواء ذئاب فانقبض قلبي، ضجّ الوادي ببيكاء البعض
وبصراخ آخرين وكأنّ مصيبة ستحلّ بهم الآن! ومن قلب ظلمة الليل
البهيم برزت جماعة من الناس يحملون الشعل، تتقدمهم امرأة طويلة

بانت تنحدر من فوق أحد الجبال وخلفها عصابتها وكأنهم يهبطون
رجًا من نار وأقبلت معهم نحونا، همست «غيداء» وهي ترميني بنظرة
مني الكثير:

- «الغميصاء»^(١).

- ومن هي؟

قالت بصوت واهن:

- سيّدة الوادي وسلطانة عشيرة «الظّلّمان»، الغجر الذين يسكنون
الوادي منذ سنين، وبعضهم كان يخيّم على أطراف مدينة
«تروفانتس».

أضافت امرأة وهي تقترب مني بخطوات وثيدة:

- «الغميصاء» ليست مجرد امرأة عادية، هي ساحرة خبيثة، تستطيع
أن تقول إنها لعنة قديمة تلبس ثوب امرأة.

همست فتاة من أبناء «لاش» في خوف:

- حين تظهر تمشي ببطء فوق الرّمال كأنّها تعرف كلّ حبة فيها
ويتراجع الضوء كأنه يعرفها جيّدًا ويخشى العودة.

رفع رجل رأسه وقال بصوته الأجش:

- عيناها مقبرتان تكاد تسمع فيهما صدى أرواح لا تُحصى.

أمسك حارس المنارة السوداء بمرفقي وقال بجديّة شديدة:

- هيا، امضي أمامي.

أقبل أهل الوادي ووقفوا أمام «جوجو»، وضعت امرأة إصبعها على
فمها وأشارت إليّ لأصمت وهمست بشيء في أذن «جوجو» فهزّت رأسها

(١) الغُمَيْصَاء: الغمص في اللغة هو الرّمْد، والغميصاء يُطلق أيضًا على نجم من النجمين
الشعريين المجاورين للجوزاء.

وتراجعت للخلف، ألصقوا أكتافهم وأخفوها بينهم ودفعوني للأمام، ابتلعوا كلماتهم عندما حضرت تلك «الغميصاء» ورهطها، وجدتها شابة بيد أن بشرتها تبدو معروقة كرخام نُحِت في ليلة عاصفة، أما شعرها فكان يتدلَّى كظلام سائل يجري فيه شرائط فضيَّة وكأنَّها من زئبق، عندما اقتربت أكثر لاحظت أن ظلَّها يسبقها في الحركة حتَّى إنَّه التفت نحوي قبل أن تلتفت بجسدها وكأنَّ الظلَّ كيان آخر يرافقها! رأيت رسومًا ووشومًا على يديها وذراعيها وحتى ملابسها، أما عيناها فكانتا غامضتين، إحداهما بلون الزعفران، أما الأخرى فكانت بلون أخضر ضبابي، سمعت صوتًا يشبه خفقة جناحين مكسورين يرافقها حيث حلَّت! كان بجوارها رجل ضخم أسمر، لديه شامة مستديرة على خده، عنيف الخطوات وكأنَّه عسكريٌّ، يرتدي بنطالًا واسعًا من أعلى وضيقًا عند الكاحل، يتمنطق بحزام جلديٍّ عريض، تتدلَّى منه التماثيل المعدنية التي تصطك ببعضها كلما خطا خطوة، ويضع على كتفيه عباءة حنطيَّة مفتوحة، تحتها قميص مزخرف بنقوش حمراء، في كلِّ حركة من يديه يلمع خاتم من نحاس.

وقفت «الغميصاء» وسط أبناء «لاش» وقالت بخيلاء:

- أهذا صيد اليوم؟

أجابها حارس المنارة السوداء وهو يدفعني أمامه:

- ها هو.

- مرحبًا بالشاب الذي انفرط عقده ولا يُبالِي!

لم أفهم ما ترمي إليه! أطالت «الغميصاء» النظر إليَّ بهدوء مفرط وكأنَّها تتفحَّص دواخلي ثمَّ أشارت إلى أتباعها، ضربوني على رأسي فغبت عن الوعي في الحال.

ماء باردا هذا ما شعرت به على وجهي قبل أن تلسعني صفعات
رجال «الغميصاء» فترد إليّ وعيي وأنا ملقى على الأرض، بعدما فتحت
عيني، أجلسوني أمام «الغميصاء» وقيدوا يديّ خلف ظهري، بدأت أشعر
بصداع شديد بسبب الضربة القويّة التي تلقيتها على مؤخرة رأسي،
نالت «الغميصاء» وهي تُشير إليّ بازدراء:

- كيف وصلت إلى المنارة السوداء؟

هزّزت رأسي فتناثر الماء حولي، كنت أعلم أنني أجلس أمام أكثر أفراد
تلك العشيرة خبثاً ودهاء، وكان «سُهيل» قد أخبرني في «تروقاتنس» قبل
أن أمرّ إلى هنا بما يكفي عن الغجر وعن طمعهم الشديد في الاستحواذ
على كلّ شيء ونهبه، قررت أن ألاعبهم بطريقتهم، أجبت لأجذب انتباههم:

- عندما خرجت من متاهة المرايا وجدتُها أمامي.

- ماذا قلّت؟ متاهة المرايا؟

- نعم.

- صفها لي.

- متاهة مليئة بأحجار بلّوريّة ساحرة وبديعة، الحجر الواحد منها
يُعادل طولي ثلاث مرّات، بريقها خلّاب ولم أر في جمالها من قبل،
وكأنّ الكون حُبس فيها!

- أين السبيل إليها؟

- لا أدري.

- أيّها الوغد، انطق، أين مكانها؟

- عليّ أن أعود إلى مقبرة الأسرار لأدخلها من جديد!

وقف ذلك الرّجل ذو الشّامة على خده وكأنّ تحته زنبركا وقال:

- كاذب ويتلاعب بنا. اضربوه.

انهالوا عليّ ضرباً وكان أكثر ضربهم موجّهاً لعظام ذراعيّ وساقيّ،
أشارت «الغميصاء» بيدها فتوقفوا، رمتني بنظرة طويلة ثم قالت:

- لا يكذب.

صاح رفيقها:

- بل هو مخادع كذاب.

زجرتة قائلة:

- قلت لك لا يكذب، وأعلم يقيناً أن تلك المتاهة بها كنوز من تلك
الأحجار بالفعل، وعليه إرشادنا إليها.

كان أحد أضلاعي يؤلمني بشدّة، عانيت لأخرج صوتي من صدري
وقلت لها:

- ليس قبل أن يعود أبناء «لاش» إلى أهاليهم.

- أنت هنا لتتلقى الأوامر فقط! وستدلّنا على مكان المتاهة بنفسك.

- ماذا تريدون منهم؟ إنهم يحتاجون إلى العودة إلى وطنهم.

ضحكت ضحكة ممزّقة خبيثة وقالت:

- اسألهم بنفسك هل يرغبون في الرّحيل أم لا!

- سأفعل.

ضحكت بجنون وقالت:

- أتدري ما سيحدث إن رفضوا الرّحيل معك؟ ستظلّ سجيناً هنا للأبد.

- لن يرفضوا.

- سنرى!

تلقيت ضربة أخرى على رأسي أفقدتني الوعي مرّة أخى نغبت عن
الزّمان والمكان.





@ART_OF_BOOK

١٠

سُبروت الكبير

أفقت في كهف كبير تحفُّهُ الشُّعل من كلِّ جانب، رأيت أفراد عشيرة الظُّلمان وهم يحرسون بوابة الكهف ويقفون بثيابهم الغريبة ووشومهم التي غطت صدورهم وأذرعهم، كان هناك رجل مستلقٍ على الأرض بجواري ظننته في البداية نائمًا لكنني وبعد أن اقتربت منه اكتشفت أنه فاقد للوعي، كان شعر رأسه مخلوقًا بالكامل ولديه ندبة كالقوس في خدِّه، أجفلت عندما وجدته يحمل الرُّمز نفسه الذي رأيته على جبين «سُبروت» فأدركت أنه والده. وكان هناك شابان غيره يغطَّان في نوم عميق وعليهما آثار التعذيب. انتظرت حتَّى أفاق وفور أن رأني انتبهت حواسُّه فحاول الجلوس وأعنته ليستند إلى الجدار، قال وهو يطالعني بعينيه الكابيتين:

- وأخيرًا أتيت! أنا والد «سُبروت».
- علمت بهذا عندما رأيته.
- لا ريب أنَّه صار يشبهني كثيرًا، كنت أعرف هذا منذ اللحظة الأولى التي حملته فيها بعد ولادته، لهذا منحته اسمي نفسه! هل هو بخير؟

- نعم. ويعتني بأمه وإخوته جيدًا.

ابتسم في فخر وقال:

- كنت أعلم أنك ستأتي، رأيتك في أحلامي مرارًا وتكرارًا.

- لقد أعطاني «سُبروت» تلك التروس.

أخرجت من جيبي التروس الثلاثة وأريتها له فابتسم وقال بفخر:

- كنت أعلم أنه سيفعلها، «سُبروت» ذكي للغاية.

- في أي شيء سأحتاج إليها؟ ولماذا طلبتها بذلك القياس بالتحديد؟

- فتاة صغيرة أتتني في الحلم مرارًا وطلبت مني صنعها لك بهذا القياس.

- صفها لي.

وصف لي «جوجو» فتعجبت، أضاف بعد أن انتهى من وصفها:

- أظن أن حلمي بتلك الفتاة خاص بي ولم يشاركني فيه أحد، فلا يعلم أحد هنا من سكان جبال «لاش» أي شيء عندها أو عن تلك التروس.

- لكنهم يعرفونني!

- بالتأكيد، يتكرر علينا الحلم نفسه كل ليلة وننتشارك فيه.

جلست هادئًا لأحاول لعلمة الخيوط في رأسي، لا ريب أن وصولي إلى هنا يعني أن علي فعل شيء مُحدد لأجل من خرجوا من مدينة «تروفانتس» وسيتمين لي هذا لاحقًا، والآن علي أن أفكر حيث ألقف الآن. كنت قلقًا على «جوجو»، انتزعني والد «سُبروت» من شرودي عندما سألني:

- ما بك يا «ممدوح»؟

- علينا أن نفكر في طريقة للخروج من هنا.
- وكيف سنتغلب على عشيرة «الظلمان»؟
- نقاتلهم.
- ليس الأمر بهذه السهولة! كما أن المشكلة الأكبر في أبناء «لاش».
- كيف هذا؟
- لن يعودوا معك.
- لماذا؟ وأهاليهم هناك يشتاقون إليهم.
- البعض منهم هنا هو وأهله.
- والبعض يتمزقون شوقًا وقلقًا على أولادهم هناك!
- هز رأسه في أسى وقال:
- عليك أن تسمع قصّتهم من بدايتها.
- كلّي أذان مصغية.
- تتهّد بعمق ثم قال:
- قبل سنوات عندما كان يُولد لأهل مدينة «تروقانتس» طفل مصاب بإعاقة أو مرض مزمن كانوا يُخفونه عن الأعين خوفًا من تشاؤم الناس الذين كانوا يطلقون عليه ألقابًا موجهة ومؤلمة، وهذا ثقل على صدور الآباء والأمهات وأثقل على نفوس الأبناء، وعندما كبر الأبناء قرروا الخروج من البيوت للقاء الناس إما محمولين من أحبابهم وإما زحفًا بكلّ شجاعة على أرض «تروقانتس» في الطرقات، فأذاهم البعض وقذفهم بالأحجار وكان بينهم «فرقان» قائد أبناء «لاش»، فقام خطيبًا بينهم بتلعيثه وقال: «نحن لا شوّم فينا ولا عيب».

وكان من شدة تلعثمه ينطق حروفها مقطعة هكذا: «لاش... شؤم، فاتخذوه سخرىً وصاروا يتنمرون عليه وكانوا يرددون: «لاش... لاش»، غضب أبوه وانطلق يضرب كل من يسخر من ابنه فأقبل جنود الملك وألقوا القبض عليه، واشتد الصراع واستمر لأيام فثارت أحجار «تروقانتس» وكانت تروح وتجيء في الطرقات، وذات ليلة قرر بعض الآباء الرّحيل بأولادهم إلى الجبال وتبعهم الكثيرون ممن أرادوا مساعدتهم وركضوا نحو الجبال ليعيدوهم، تبعتهم أنا أيضًا لأقنعهم بالعودة، فوجئنا ببروز أجنحة شفافة لهؤلاء الأبناء! وحلّقوا فوق رؤوسنا وطاروا فوق الوادي وكان هذا يوافق ليلة زفاف الأمير «السّمهريّ» وما حدث فيها من إراقة للدماء، حينها فصلت أحجار «تروقانتس» بيننا وبين المدينة ولم نتّمكن من رؤيتها مرّة أخرى، لجأنا إلى ذلك الوادي وأقمنا فيه، ومنذ ذلك الحين أطلقنا عليهم أبناء «لاش».

- ولكن لماذا أنت هنا في هذا الكهف؟

- رفضت الانصياع لأمر «الغميصاء» أنا وهذان الشّابان، وكنت أحاول إقناع أبناء «لاش» من أن لآخر بالبحث عن طريق للعودة، لكنّ أبناء «لاش» كانوا يطاردونني بأنفسهم ويعيدونني إلى هنا بأمر من «الغميصاء».

- لماذا يطيعونها؟

- «الغميصاء» تحتجز أهاليهم وتؤذيهم وتعذبهم إن لم يطيعوها، وتسخرهم لخدمتها هي وعشيرتها، هم دائماً تحت التهديد وعرضة للجلد والحرق بالنّار إن لم يعد أبنائهم بصيد أو غنيمة. عندما وصلنا كانت قومها يقيمون بالفعل في الوادي ورأت ما حدث لأبناء «لاش» نهائياً حيث أصبحوا يطيرون بأجنحة، كما رأتهم ليلاً عندما يفقدونها، فصارت تعذبهم طوال الليل ليطيعوها

خلال النهار وليطوفوا حول الجبال لجمع كل ما تشتهيهِ نفسها،
ثم صار أتباعها يهددون أبناء «لاش» بأحبابهم، بسطوا نفوذهم
على الجميع، ومن يفكر في الرحيل يذوق ألوان العذاب.

- لو اجتمعتم وتعاونتم لتغلبتم عليها.

- «الغميصاء» تستخدم سحر «الفودو»^(١).

- شعرت بانقباض في صدري عندما رأيته وتحدثت معها.

أضاف والد «سُبروت»:

- هي العدوّة التي لا تواجهك مباشرة، بل تنتظر اللحظة التي تنكسر
فيها روحك، لتتسلّل إلى أعماقك وتحول ضعفك الإنساني إلى
سلاح، أسطورية في قوتها، قاتمة في كراهيتها، ومصير كل من
يقف أمامها هو المصير ذاته: أن يصبح جزءًا من الظلام الذي
يتبعها كظل لا ينتهي.

- إذا فهي تُرسل أبناء «لاش» للذهب والسّرقَة؟

- نعم، وترسل بعضهم للصيد في بحر «قاغ»، الخوف هو الحاكم
الحقيقي للوادي ومن فيه الآن.

- حارس المنارة السوداء لم يخبرني بكلّ هذا.

- صعلوك خائن، كان من المنبوذين في «تروفانتس» والآن ولاؤه
لتلك الخبيثة وعشيرتها.

- استدرجني ليسلّمني لهم، لكنّه لم يخبرهم عن «جوجو».

- من «جوجو»؟

- أظنّها الفتاة التي ظهرت لك في الحلم وأخبرتكَ عن التروس.

(١) الفودو نوع من السّحر تستخدم فيه العرائش لإلحاق الأذى بالآخرين.

- أين التقيتها؟
- على شاطئ بحر «فاغ».
- لا ريب أن النساء قررن حمايتها، فالحارس يحسب لهنّ الحساب ويخشى من غدرهنّ.
- يبدو هذا.
- أتدري أن الصيادين يأتون باللؤلؤ والمرجان من بحر «فاغ» ويضعونه بين يدي «الغميصاء» وعشيرتها لتترك أحبابهم في سلام، يعرضون أنفسهم للخطر وسط العواصف من أجلهم.
- لا ريب أن المبعدين من سكان المدينة الذين تبعوا أبناء «لاش» ليقنعوهم بالعودة قبل أن تعزلهم أحجار «تروفانتس» يرغبون في العودة إلى وطنهم.
- بالتأكيد، أمّا عن أبناء «لاش» فكما أخبرتك، لو فُتح الطريق إلى «تروفانتس» أمام أعينهم لن يعودوا.
- لأنهم في المدينة يفقدون أجنتهم. أليس كذلك؟
- بلى.
- صمت هنيهة ثمّ قال:
- حُجبت المدينة وما حولها وحتى البحيرات الوردية، ما عدنا نراهم! ترى كيف هي الآن.
- دعني أخبرك عن رحلتي منذ أن دخلت مدينة «تروفانتس» وحتى عودتي مع «السُمهري» إليها.
- بدأت أسرد عليه كلّ ما مررت به، وعندما ذكرت «مازنّا» راودني شعور بالقلق عليه، استوقفني والد «سُبروت» ليخبرني أن «زهيرًا»

بالبقي «سهيل» موجود ويخرج مع الصيادين في رحلاتهم، ودائمًا يعود بهيبه وفير.

عندما انتهيت من سرد ما مررت به أطرق مفكرًا ثم أسند قذالَه إلى الحائط وظلُّ ساكنًا حتى نعس ثم سقط رأسه فاستلقى وتوسَّد ذراعه ونام، جلست بجواره ألمم شتات نفسي، أصابني الإعياء فخلدت إلى النوم وأنا لا أدري كيف سأخرج من هذا الكهف؟

أخرجونا صباحًا من الكهف، فقد قررت «الغميصاء» إطلاق سراحني عندما علمت أنني أكملت رسم خريطة مدينة «تروفانتس» وما حولها، نهى ترغب في الوصول إلى متاهة المرايا التي أخبرتهم عنها، وقد راقها رفض أبناء «لاش» لمغادرة الوادي وعزمهم على البقاء فيه. وكان هذا ما أخبرني به حارس المنارة السوداء ونحن نتجول في الوادي.

تركني وانصرف فأقبل والد «سُبروت» وسرت معه لأبحث عن «جوجو». كانت ملابس عشيرة «الظَّلمان» خليطًا من الألوان الفاقعة والداكنة كحال الفجر في أيِّ مكان، تنانير وأثواب مزركشة وواسعة ترتديها النساء، وقمصان حريرية عليها نقوش حمراء وصفراء يرتديها الرجال، وأما جلودهم فمغطاة بالوشوم، وأصابعهم مليئة بالخواتم، وعلى صدورهم تتدلَّى أحجار ملوَّنة، هذا حجر الذاكرة، وهذا حجر الأمنيات، وهذا حجر الشفاء! هكذا أخبرني والد «سُبروت». تأملتُهم طويلاً وتحَدَّثت مع بعضهم فوجدت نظراتهم خاطفة وحركاتهم سريعة كحركات القطط، حتى كلماتهم لا يكملون آخرها وكأنَّهم من كثرة تجوالهم اعتادوا العيش على حافة البلدان حيث لا قواعد للاستقرار، وكان أهل «تروفانتس» الذين وفدوا عليهم يُراقبونهم خوفًا وحيرة من أولئك الذين يُرغمونهم على العمل ولا سبيل للخلاص منهم.

وصلنا أخيرًا إلى «جوجو»، كانت تبدو أفضل حالًا وهي تقف بين الفتيات من عمرها وقد ألبسوها ثيابًا كثيابهم فصارت تشبههم تمامًا لكنها لا تزال تحمل النظرة القلقة وكأنها تحمل همّ شيء سيحدث، هرولت نحوي فور أن رأته وقالت:

- هل عذوبك؟

- قليلًا!

- لقد جلدوا أربعة من الرجال أمس، وصفعوا امرأة حتى سألت الدماء من أنفها.

- لماذا؟

- رفضوا الانصياع لأوامرهم، فقد طلبوا من المرأة شيئًا مخجلًا فرفضت وبعدها صفعوها غضب زوجها وابنها وانضم إليهم شاب ثالث ليدافعوا عنها.

- الظلم يحلّق فوق الوادي هنا يا صغيرتي فاحذري.

- هؤلاء القوم من الغجر وكانوا يتنقلون من مكان لآخر واستقرّوا لفترة على أطراف مدينة «تروقانتس»، ورحلوا من هناك بعد خلافات وصراعات بين «الغميصاء» والملكة «ذات الكرسي» وابنها «السّمهري».

- ألم تتذكّري شيئًا غريبًا يا «جوجو»؟

- فقط أعرف أنّ «الغميصاء» لا تطمع في الأحجار التي أخبرتها عنها، لكنها ترغب أيضًا في الاستيلاء على المدينة وإزاحة الملكة وابنها من الحكم، وستضغط عليك لتساعدتها.

- لهذا أطلقت سراحي، لأرتاح قليلًا ثمّ تساومني!

- بالتأكيد.

- لن أساعدها!

- أعرف هذا لكنني أخشى فقط أن تؤذيك.

شعرت أنها قلقة عليّ فهي كما قالت لا تعرف أحدًا هنا إلا أنا!
سألتها لأخفف عنها:

- هل عادت الفتاة التي تذوب من كثرة البكاء؟

- نعم، عادت «رُميساء» وظهرت صباحًا وكنت معها منذ قليل، وعندما
أخبرتها كيف لفظني البحر وكيف لا أذكر اسم أبي أمسكت بيدي
وظلّت تبكي تعاطفًا معي حتى ذابت من كثرة البكاء مرّة أخرى!
يا إلهي! ترى أين تذهب؟

- يشغلني هذا الأمر، فهي ليست من الجنّ، لقد أمسكت بيديها
وعانقتني مرّتين، كما أنّها تناولت معنا الخبز والعسل.
- عليك أن تتخلّي عن بعض المنطق في تحليل الأمور هنا فنحن في
مدينة «تروفانتس»!

- صدقت.

زمت شفتيها وأضافت:

- لديها عينان رائعتان، تقول النساء إنّها تعكس ما يشعر به من
ينظر إليهما، إن كان حزينًا تحزن، وإن كان يحمل شغفًا تتوهج
عيناهما!

صمتت هنيهة وصاحت في حماس:

- نسيت أن أخبرك، لقد عاد الصيادون في آخر الليل، كانوا يحملون
الكثير من الأسماك الغريبة وبعض الكائنات البحرية التي لم أر
مثلها في حياتي.

- هل كان بين الصيادين شاب أشقر؟
- نعم، واسمه «زُهير»، هو الوحيد الذي عاد أمس ومعه ما يسحر العين من لآلئ البحر وأصدافه العجيبة، ولا يعرف أحد من الصيادين كيف يحصل عليها!
- علينا أن نبحث عن «زُهير».
- سأسأل النساء عنه.
- تركتني «جوجو» لأكمل التجوال في الوادي لعلني أراه، فما دمت قد رأيت توأمه سأعرفه في الحال، ظهرت الفتاة التي تذوب من البكاء فجأة، وجدتني أردد اسمها بصوت مسموع:
- آنسة «رُميساء»!
- سمعت صوتي فأقبلت قائلة:
- أتعرف اسمي؟
- أخبرتني «جوجو».
- تلك الفتاة مسكينة جدًا!
- ظهرت علامات الحزن على وجهها وقالت:
- «جوجو» تحمل الكثير من الحزن، لكنها أيضًا غريبة! تعرف الكثير من الأشياء وكأنها عرّافة!
- ليست كذلك.
- أومأت في لطف وقالت:
- أدري أنها فتاة بريئة. هل هي بخير؟
- لا تقلقي عليها فهي بخير، كما أنها ذكية وتستطيع تدبّر أمرها.

- نعم هي ذكية. ولتعلم أنها شديدة التعلق بك، فقد حدثتني كثيرًا
عنه.

قالت في تردد:

- هل من الممكن أن تسير بجواري حتى أصل إلى خيام النساء يا
دكتور؟ فأنا أخشى من المرور بجوار هؤلاء الرجال الذين يترقبون
الطريق.

- بالتأكيد، تفضلي.

مررنا ببعض الرجال من غجر «الظلمان» وكانوا يُشعلون النار في
الحطب بأطراف أصابعهم! اصطدم أحدهم بكتفي عن قصد فتوقفنا
ورماني بنظرة مريبة خاطفة، كنت أتعجب من الروائح التي تفوح منهم،
لاحظت «رُميساء» تضرري فقالت:

- يكرهون الماء، يعتبرونه عدوًا لهم، لهذا لا يستحمون أبدًا.

- يا إلهي!

- أغلب تجوالهم على البرّ في عرباتهم الخشبية، لهذا لم يستقرّوا
إلا في ذلك الوادي وسط الجبال بعيدًا عن بحر «قاغ» و«النهر
الفضي» و«البحيرات الوردية».

- يبدو أنك تعرفين ما حول مدينة «تروفانتس»! هل زرت تلك الأماكن؟

- لا، لكنني سمعت النساء يتحدثن عنها.

تلاقت نظراتنا فرأيت وهجًا في عينيها، سألتها في فضول:

- ما الذي حدث لك أمس؟ أقصد... ذوبانك!

قلبت كفيها قائلة:

- عندما أبدأ في البكاء لا أستطيع التوقف ولا أسيطر على دموعي...
فأذوب!

- كيف تذوبين؟

أطلقت نظراتها في السماء وقالت:

- كما تغرق في النوم أو تفقد الوعي، أتدري كيف الشعور وانت
تنسحب من وجودك بين الآخرين وتغمض عينيك فتسقط في هوة
عميقة وتسكن وترتاح وتتلاشى الأفكار كلها وكأن ممحاة تمر
على جبينك؟ هكذا الذوبان.

- لكنك تختفين من بيننا وتركين خلفك بقعة ماء!

هزت رأسها وقالت:

- وتتحول بقعة الماء إلى طائر يُحلق بجناحين، أخبروني أنها
«العنقاء»، وددت لو رأيته بعيني لكنها دائماً تظهر بعد ذوباني.

- غريب!

- ليس كغرابة ذلك التنين الذي كان يبرق على جبينك أمس.

أصابني الدهول فسألتها:

- هل رأيته؟

- نعم ورأيت تلك المتاهة المعقدة على جبين «جوجو»، ورأيت رمز
«العنقاء» على جبیني في المرأة.

- هل ترين الرموز على جباه البقية هنا عندما تغرب الشمس؟

- رأيته على جباه المبعدين من «تروفانتس» فقط، أما الغجر فلا،
ولم يصدقني أحد من المبعدين عندما أخبرتهم عنها، يظنون أنني
غريبة الأطوار.

- أنت كذلك بالفعل!

عقدت حاجبيها وقالت غاضبة:

- ماذا قلت؟

- أقصد أنك ذات ميزة خاصة، تذوبين بالبكاء وتختفين وتتركين
حفنة من الماء تخرج منها عنقاء رائعة.

- وهل تلك ميزة؟

- ما رأيك؟

عقدت حاجبيها وقالت والحيرة تسكن عينيها:

- لديك حق، أنا فعلاً غريبة الأطوار.

- لا بأس، ما يحدث هنا غريب برمته، كما أن هذا يناسب مدينة
«تروفانتس».

- ما رأيك في مدينة «تروفانتس»؟

- لم تر عيني مدينة بجمالها قط، سكانها غرباء لكنهم رائعون.

- لماذا تراهم غرباء!

- هناك امرأة تمزج المشاعر بطعامها، وشابة تعالج الجروح بزرع

البذور فيها لتنبت أزهاراً، وعجوز تشم رائحة الآل والعبر؟

والخطر، وأخرى تخطط القلوب.

اتسعت عيناها في دهشة وقالت:

- يبدو أنك أحببتهم يا دكتور!

- يشبهون أمي بطريقة ما!



داهمني حنين لأمي، كانت مسحة من كفها على جبیني وهي تتمن
بآيات القرآن كافية لرد كل خلية في كياني إلى مكانها الصحيح. قطعت
صمتي حتى لا تظنني أتجاهلها وقلت:

- اشتريت الفراسة من سوق تباع فيها الخواطر والمشاعر والأفكار.
- السيِّدة «وطفاء» تعشق «سوق الخواطر» ولا تتوقف عن الحديث عنه.

أكملنا الطريق في صمت وكأن الحروف سقطت من رؤوسنا وما
عدنا في حاجة إلى الكلام، وفجأة! وقفت أمامنا امرأة بدينة تربط رأسها
بشال أحمر تتدلى منه نجوم صغيرة من نحاس أصفر، أدت حركة
مسرحة وبسطة ذراعيها ثم رجَّت شيئاً بين كفَّيها وألقته على الأرض
فرأيت قواقع وأصدافاً غريبة، قالت وهي تشير إليها:

- سأقرأ لكما الطالع؟

- لا نرغب.

- جرّب أيها الغريب ولن نخسر شيئاً!

- لا حاجة لنا بخزعبلاتك.

رفعت حاجبيها المرسومين وقالت:

- سأقرأ لك بالمجان!

- لا أريد.

- قلت لك لن نخسر شيئاً.

قالت «رُميساء» في غضب:

- اتركينا وشأننا!



@ART_OF_BOOK

طالعتها بعينيهما المحوَّقتين بكحل شديد السَّواد ثُمَّ نقلت عينيها
بيننا وقالت لها وهي تكزُّ على أسنانها:

- ستدوبين للأبد!

لاحظت القلق على وجه «رُميساء» فقلت لها:

- آنسة «رُميساء»! لا تلتفتي لكلامها. «كذب المنجمون ولو صدقوا».

قالت العرَّافة وهي تقترب من وجهها وتشير إلى صدري بسبابتها:

- ستكون آخر دموعك عليه ثُمَّ ستدوبين للأبد!

ارتفع صوت جهوريٍّ من خلفنا وكان لشيخ له لحية بيضاء كالقطن
ورأس أشيب، تلوح على جبهته سجدة رمادية خفيفة لا يشكُّ الناظر
إليها أنَّها جبهة عابد، قال وهو يزجرها:

- انصرفي عنهما! هيا!

أسرعت العرَّافة وجمعت القواقع والأصداف وهرولت هاربة منه،
وكان في عينيها خوف فقد بدا لي أنَّه يتمتم بشيء، وعندما اقترب تبيَّنت
أنَّه يتلو آيات من القرآن، قلت له مستبشرة:

- وأخيرًا هناك من يذكر الله ويتلو آياته.

ابتسم الشيخ وأحنى رأسه قائلاً:

- مرحبًا يا «ممدوح»، انتظرناك طويلًا يا بني.

رفع يده ليُصافحني وأضاف:

- اسمي «عثمان»، إن شئت نتحدَّث قليلًا قبل أن تبدأ عملك.

- أيُّ عمل؟

- للأسف، نحن نعمل هنا لننظِّل على قيد الحياة وإلا سيقتلوننا.

- الخضوع سيدفعهم للمزيد من العنف!

- أُنظُنْ أَنَّهُمْ يَلْتَفِتُونَ؟ لَقَدْ وَقَعْنَا تَحْتَ سَطْوَةِ قَوْمٍ لَا يَدْفَنُونَ مَوْتَاهُمْ وَيَتْرَكُونَهُمْ فِي الْعَرَاءِ لِتَأْكُلَهُمُ السَّبَاعُ وَتَنْهَشَ رُؤُوسَهُمُ الطَّيْرُ، أَتَرَى تِلْكَ الشُّعْلَ حَوْلَ الْوَادِي؟ يَشْعُلُونَهَا بِزَيُوتٍ مَمْزُوجَةٍ بِدِمَائِهِمْ وَلَا تَنْطَفِئُ إِلَّا بِمَوْتِ صَاحِبِهَا.

- لَا يُبَالُونَ بِالْأَحْيَاءِ وَلَا بِالْأَمْوَاتِ!

- لَقَدْ تَوَلَّيْنَا أَمْرَ دَفْنِ مَوْتَاهُمْ بِأَنْفُسِنَا.

تَعَالَتْ صِيحَاتُهُمْ وَهُمْ يَرْقِصُونَ حَوْلَ النَّارِ فَقَالَتْ «رُمَيْسَاءُ»:

- يُوْذِنُونَ النَّاسَ بِأَفْعَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ ثُمَّ يَرْقِصُونَ عَلَى آلَامِ الْآخِرِينَ.

شَعَرْتُ بِالدَّمَاءِ تَغْلِي فِي عِرْوَقِي عِنْدَمَا لَمَحْتُ أَحَدَهُمْ يَضْرِبُ رَجُلًا أَمَامَ امْرَأَتِهِ وَكَدَّتْ أَرْكَضَ تَجَاهَهُ فَقَبِضَ الشَّيْخُ «عُثْمَانُ» عَلَى ذِرَاعِي وَمَنْعَنِي فَقُلْتُ غَاضِبًا:

- لَا يَعْجِبُنِي خُضُوعُ الْجَمِيعِ لَهُمْ هَكَذَا.

قَالَ الشَّيْخُ «عُثْمَانُ» وَهُوَ يَوْقِعُ كُلَّ كَلِمَةٍ يَنْطِقُ بِهَا:

- عِنْدَمَا تُهَدِّدُ بِأَحْبَابِكَ يَكُونُ الْخُضُوعُ وَالطَّاعَةُ وَسِيلَةً لِإِنْقَاذِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ، لَوْ رَأَيْتَ كَيْفَ كَانُوا يَنْتَهِكُونَ حَرَمَةَ النِّسَاءِ وَيَعَذِّبُونَ أَبْنَاءَ «لَاش» وَقَدْ ضَعَفَهُمْ لِأَدْرَكَتْ لِمَاذَا نَخْضَعُ!

- لَيْسَ وَرَائِي مَنْ أَخَافُ عَلَيْهِ.

- بَلْ وَرَاؤُكَ!

- مَاذَا تَقْصِدُ؟

- «جُوجُو»!

شُلُّ لِسَانِي فِي فَمِي، هَمَسَتْ لَهُ فِي قَلْق:

- هَلْ عَرَفُوا بِقُدُومِهَا مَعِي؟

- لا. لكن حارس المنارة السوداء يعلم ونحن لا نأمن مكره.
- سنخرج من هنا بإذن الله.

- أرجو ذلك، وحتى تحين تلك اللحظة انتبه لنفسك، فهؤلاء قوم
يروون كل شيء ملكاً لهم حتى أجسادنا، وقد يسلبونك ما بين يديك
ويروونه حقاً لهم!

- محتالون وسارقون.

- هم لا يقبلون أصلاً أن تتهمهم بالسُّرقة فأنت وكل ما فيك ملك لهم!
- وإن استولوا على كل ما نملكه لن ينالوا من أرواحنا.

- صدقت!

التفت الشيخ «عثمان» نحو «رُميساء» وقال لها:

- أنت الحرّة الوحيدة هنا! لم يكن لأحد منهم سلطان عليك حتى
«الغميصاء»، «العنقاء» تُخيفهم حقاً، لو رأيت كيف ينظرون إليها
وهي تبسط جناحيها وتُحلّق في السماء!

- وددت لو رأيته بعيني يا عمّاه.

- الله وحده يعلم كيف تختفين وكيف تظهر، حفظك الله أينما
تذهبين.

استدار وبعد أن ألقى علينا التحيّة قال لها:

- هوّني على نفسك يا ابنتي، رفقا بقلبك الصغير.

أكملنا سيرنا وكنت أسأل عن «زهير» في كل مكان، كانت «رُميساء»
تتبعني في سكون، وكأنّها طفلة ضالّة تبحث عن أهلها، رأيت «جوجو»
أكثر تجلّداً منها فأشفقت عليها، سألتها لاتبين حالها أكثر:

- عندما رأيته أمس ما كان سبب بكائك بالتحديد؟

- أبناء «لاش»! كنت أعرف ما سيحدث لهم عندما تغرب الشمس، ألم ترهم وهم يسقطون ويتألمون؟
- رأيتهم.
- كلُّ الخوف والألم والانكسار الذي يشعرون به أجده في نفسي فأبكي، وهكذا حالي كلما رأيت من يتألم.
- كانت «رُميساء» شاردة وحالمة. بادرتها بسؤال على حين غرة فقلت:
- هل رأيتني في أحلامك أنتِ أيضًا؟
- رفعت رأسها وقالت في استنكار:
- ولماذا سأراك في أحلامي إن شاء الله!
- شعرت بحرج شديد فسألتها:
- هكذا هم سكان مدينة «تروفانتس»! جميعهم يروني في أحلامهم!
- لست مثل سكانها ولم أرك في أحلامي.
- من أي البلاد أنتِ يا آنسة «رُميساء»؟
- «المنصورة»!
- تسمرت قدماي بالأرض، توقفت عن السير وقلت في ذهول:
- يا إلهي! أنت غريبة عن مدينة «تروفانتس» مثلي!
- نعم، كيف لم تعرف!
- وكيف لي أن أعرف وأنت تدوين كما أن ملابسك تشبه ملابسهم تمامًا!
- أمّا أنا فقد لاحظت حذاءك الرياضي وملابس «جوجو» التي وصلت بها.
- كيف وصلتِ إلى هنا؟

- هل نستطيع الجلوس قليلاً يا دكتور؟ فقد تعبت؟

جلسنا لנرتاح مع «جوجو» التي كانت تروح وتجيء ونحن نسير،
تمت إلينا قليلاً ثم تمضي راکضة لدقيقة وتعود، بدأت «رُميساء»
لحكي كيف وصلت إلى مدينة «تروفانتس»، قالت:

- كنت أسير في الطريق وأنا أبكي والسماء تشاركني البكاء وقد
غرقت ملابسي بماء المطر، وقفت أنتظر سيّارة أجرة وكدت أياس
لولا ظهور السائق الوحيد الذي وقف أمامي وسط سيول الأمطار
التي كانت تنهمر بغزارة فأسرعت بالركوب في الحال، منحني
منديلاً أكفكف به دموعي وقبل أن أخبره إلى أين سأذهب التفت
نحوي قائلاً: «عليّ أن أذهب إلى «تروفانتس» أولاً فهل توافقين؟». أجبت
دون تردد قائلة: «أوافق!». ظننته يذكر اسم متجر أو مقهى
بالمنصورة، ولكن يبدو أنني وافقت على شيء لا أدرك ماهيته!
انطلق في طريقه وكنت أستند إلى زجاج النافذة وذهني شارد،
وفجأة انتبهت إلى تغيير الأجواء حولنا، رأيت الزهور على
الجانبين وكان المطر قد توقّف وأضاءت السماء وكأننا في الربيع،
التفتُ نحو السائق لأسأله فلم أجده، انتفض جسدي وصرخت
في فزع عندما اكتشفت أنّ السيّارة تسير وحدها، توقّفت تلك
السيّارة العجيبة فجأة وبقيت ساكنة مكانها، نزلت وعظامي
ترتجف، وفور أن وطئت قدمي الأرض اختفت السيّارة وبدأت
في البكاء من جديد، رأيت الوادي ومن فيه وهم يحلّقون حول
النّار ويرقصون فأقبلت عليهم، أمسكوا بي وحاولوا إيدائي، ظلمت
أصرخ وبكيت من فرط الرّعب، طال بكائي بحرقة ولم أشعر
بشيء بعدها! ومضى وقت وأنا أشعر وكأنني أسبح في نهر من
حليب، ثمّ عدت إلى مكان آخر بالوادي وعندما رأوني مرّة أخرى
فعلوا فعلتهم الأولى فبكيت من فرط الألم واختفيت من جديد،

وعندما عدت للمرّة الثالثة وجدت أبناء «لاش» وذويهم بالوادي
فاطمأننت بهم وبقيت معهم وعشت بينهم، لكنني من آن لآخر
أصاب بنوبة من البكاء فأختفي من بينهم، أخبروني عن «العنقاء»
التي تظهر كلّما اختفيت وما زلت أنتظر رؤيتها!

- ترى أين تذهبين عندما تختفين؟

تنهّدت بعمق وقالت:

- ما يشغلني حقًا هو كيف يتفتت جسدي ويعود فيظهر!

- نحن في مدينة «تروڤانتس» حيث تباع الخواطر في الأسواق،
وتُعجن الكعكات بالضحكات، وتُحتسى القهوة الممزوجة
بالحنين، ويزول الحزن بالسباحة في الماء، وتذوب فتاة من فرط
البكاء!

لمعت عيناها وقالت في اندهاش:

- يبدو أنّك رأيت العجائب هناك! أخبرني بكلّ ما مررت به.

كان عليّ أن أسرد قصّتي مرّة أخرى منذ وصولي وحتى التقيتها،
انتبهت لكوني في كلّ مرّة أسردها على أحد ممن ألتقيهم تزداد رحلتي
في غرابتها، وكانت هي أغرب ما رأيته فيها وهي تذوب وتختفي، فجلست
تُنصت إليّ بتركيز شديد، عندما انتهيت سألتها:

- كم عمرك؟

- عشرون عامًا.

أقبلت «جوجو» وهي تغضّ جبينها وقالت بجديّة شديدة:

- أريدك أن ترسم لي المتاهة التي على جبريني.

- انتظري حتى يحلّ الليل لأتبيّن تفاصيلها الدّقيقة.

- ألم تخبرني أنّك تحفظ ما تراه بسرعة؟

- بلى، لكنها متاهة معقدة وتفصيلها الدقيقة قد تكون مهمة.

- حسناً. سأنتظر الليل على أحر من الجمر.

- ما سبب حماسك المفاجئ؟

أشاحت بعينها وقالت في صوت يشي بالقلق:

- أشعر أننا سنفترق، لهذا عليك أن تحفظها جيداً.

أوجعتني كلمتها وضربت الهواجس صدري، قالت لها «رُميساء»:

- يُعجبني ذكاؤك يا «جوجو».

راقها ذلك المدح فاحتضنتها، نادتهما امرأة من نساء «تروفانتس»
ليتناولا الطعام معها فانصرفتا.

أقبل «زهير» فأجفلت عندما رأيته! كان نسخة من أخيه «سهيل» بيد
أنه يملك عينين غاضبتين على عكس أخيه، أقبلت عليه لأحييه لكنه كور
نبضته وألقمني ضربة ارتج لها فكي! ثم دفعني في صدري فسقطت
أرضاً وهو يقول بغضب:

- لماذا تأخرت؟

اجتمع حولنا الناس وسكنوا في ترقب، وأقبل العجر يتابعون ما
حدث. في فضول غريب! كنت أتعجب من ردة فعله فوقفت وأنا أمسك
بفكي وقلت له:

- ذاك أمر ليس بيدي!

- ثلاث سنوات ونحن في تيه وننتظرك!

- تمهل يا «زهير»، علينا أن نتحدث بهدوء.

زفر بحنق ثم استدار نحو من يقفون من عجر الظلمان ورماهم بنظرة
نارية فابتعدوا وهم يتخبطون في اضطراب، أدركت أنهم يحسبون له
الحساب، قال «زهير» في انفعال:

- ها قد أوفيت بوعدى لك.

- أيُّ وعد؟

عقد حاجبيه وقال:

- كنت تأتيني في الحلم وتطلب مني ألا أغادر الوادي وانتظر
لتعيدنا إلى «تروفانتس»، وكنت تطلب مني أن أعدك بهذا.

- غريب أمر تلك الأحلام!

قال وهو يقبض على ذراعي:

- هل رأيت أبي وأمِّي وأخي «سُهيل»؟

- وشقيقاتك السبع أيضًا.

هدأت ثورته قليلًا، كانت عيناه تحملان صمغًا طويلاً يعرفه من
يعاني، أرخى قبضته عن ذراعي وسألني:

- كيف حالهم؟

- سأخبرك بكل شيء، ولكن أرجوك. اهدأ قليلًا!

جلسنا وكان عليّ أن أسرد رحلتي مرّة أخرى وكنت أحرص على هذا
لأراجع التفاصيل فأنتبه لأشياء مررت بها لأذن الأمور بموازين أخرى،
وعندما انتهيت من قصّتي قال «زهير» بنبرة جادة وعيناه تحملان الكثير
من الهموم:

- عليك أن تخرج معي للصيد.

أوما برأسه فشعرت أنّ وراؤه سرًّا، لزمّت الصُّمت وقلت له:

- لنفعل غدًا بإذن الله.



@ART_OF_BOOK

١١

الغميصاء

- أقبل حارس المنارة السوداء ومال عليّ قائلاً:
- «الغميصاء» ترغب في لقاءك.
 - لا أريد.
 - ستأتي رغم أنفك!
 - رفعت عيني تجاهه غاضباً وكررت:
 - لن أذهب!
 - أتيتك في الحال إشفافاً على الصغيرة لأنني أعلم ما سيحدث!
 - ماذا تقول؟
 - لقد أمسك الغجر بالفتاة الصغيرة.
 - «جوجو»!
 - ومن غيرها؟ لهذا عليك أن تُسرع قبل أن...
 - كوّرت يدي وألقمته ضربة في عنقه الغليظ وقلت له:
 - أنت من أخبرتهم عنها أيها الخسيس.

- أنا...

قاطعته قائلاً وقلبي يخفق:

- سنذهب معاً وستعيدنا آمنة بينما أتحدث إلى «الغميصاء» وألا
ستكون نهايتك على يدي.

كان القوم قد اجتمعوا حولنا فأخبرتهم بما فعله، أصابه الخوف من
بطشهم فقال لينجو من أياديهم:
- سأفعل، ولكن هيا بنا، وبسرعة!

صحبني حارس المنارة السوداء للقاء «الغميصاء»، وكانت خيمتها
على أطراف الوادي وحولها حفنة من الرجال يتناثرون كالغربان،
أحدهم يسنُّ خنجره، وآخر يرقصُ شاربه وهو يعبث بأظفاره، وثالث
يحاول رفع القدح لقمه ليشرب ومن فرط غياب عقله يضلُّ الطريق
لقمه فيغرق ثيابه ويعاود الكرة. دلف الحارس قبلي ثم خرج ليدعوني
للدخول، عندما دخلت إلى الخيمة شعرت باختناق من رائحة الأعشاب
المحترقة التي تعبق بها الأجواء، أحسّت أن الخيمة ساخنة فكرهت هذا،
وجدت «الغميصاء» تجلس وأمامها إناء به دماء! تغمس إصبعها وتكتب
رموزاً على قماش أبيض، كانت «جوجو» تجلس أمامها متكورة والخوف
يكسو ملامحها البريئة، فور أن رأنتي ركضت نحوي فطمأنتها وتبادلت
النظرات مع حارس المنارة، رفعت «الغميصاء» عينيها ورممتني بنظرة
نارية وقالت:

- اجلس أيها الغريب.

- أطلقني سراح الفتاة أولاً.

نظرت إليها بازدراء وأشارت بأصابعها نحوها قائلة:

- انصرفي أيّتها البائسة.

أمسكتُ بذراع «جوجو» فقد كنت أخشى عليها من رجال الفجر
الواقفين خارج الخيمة وقلت:

- على حارس المنارة أن يعيدها بنفسه إلى الشيخ «عثمان».
انغمضت «الغميصاء» عينيها وهزّت رأسها وكأنّ صاعقة أصابتها
عندما ذكرت اسم الشيخ «عثمان»، أشارت إلى حارس المنارة السوداء
لبلبني طلبني فخرج مع «جوجو». كان الصمت ثقيلاً كأنه الحاجز الذي
يفصل بين عالمين وليس بين شخصين، قطعت بصوتها المتحشرج
وهي تقول:

- أتظنّ أنّك المنقذ لمجرّد أنّهم رأوك في أحلامهم التعيسة؟

- لم أزمع أنني بطل!

لوت شفتيها بابتسامة ساخرة وقالت:

- الغائبون ليسوا من أهل «تروقاتنس» فقط، أنت أيضاً غائب! لولا
هروبك من نفسك ما كنت لتصل إلينا هنا.

شعرت أنّها تخترقني بنظراتها وكأنّها تقرأ ما بداخلي، أضافت
وعيناها لا تفارقان وجهي:

- المتاهات التي تخوضها ليست خارجك فقط، بل تكمن أيضاً في
داخلك، وقد تضيع أكثر مما تظن.

- لكلّ متاهة نهاية.

- أنت لا تعرف حقيقة هذا العالم، ولا تعرف الثمن الذي يُدفع مقابل
الحياة!

- وما هو الثمن؟

أشارت إلى رفيقها فأمسك بي مع آخر وقيّداني، انتزع شعرة من
رأسي فدسّتها «الغميصاء» في شق صغير بصدر دمية قماشية باهتة

اللون، فمها مرسوم بخيوط حمراء ملتوية، وكأنها تبتسم ابتسامة متعرجة لا تعرف هل هي للرجاء أم للتهديد، ثم مدت يدها إلى صحن فخاري صغير، يحوي شيئاً أسود متحجراً بحجم حبة العنب، رفعت بين أصابعها فتفتت وانطلق منه غبار رمادي يشبه رماد العظام ونثرته فوق الدمية ثم قالت هامسة:

«من روح تائهة إلى روح عابرة، ومن ألم مضى إلى قلب يُوجع». كانت أصابعها ترتجف وتنتفض وكأنها تزرع وباء في جسد حي، وعندما ضغطت على شعرة رأسي لتغوص تماماً، ارتجف لهب الشموع حولها، شهقت وكأن شيئاً ما عبر جسدها كطيف لا يرى، ثم رفعت رأسها أخيراً، وابتسامة خبيثة ترسم على شفتيها المتشققتين ثم سألتني:

- كيف تشعر الآن؟

وفجأة بينما غرزت الإبرة في قلب الدمية وانطلقت من حلقتها ضحكة طويلة، أصابني ألم شديد في صدري، وكأن أحدهم شقّه وأمسك بقلبي ليعصره فصرخت ألماً حتى فقدت الوعي وغاب كل شيء حولي.

كانت أصواتهم تأتي من بعيد وكأنهم ينادونني من بئر عميقة، فتحت عيني بصعوبة، كان هناك شاب أشقر، وطفلة صغيرة، وفتاة، ورجل لديه ندبة كالقوس في خده، وشيخ له لحية بيضاء كالقطن، وامرأة تحمل قماشاً مبللة بالماء وتمسح رأسي، همست أسألهم:

- أين أنا؟

قالت الطفلة الصغيرة:

- نحن في «تروفانتس». أنسيت؟

قال لها الشاب في حزم:

- اصبري! الحمى ستحجب عقله عن العمل.

كان صدري يؤلمني بشدة، رفعت يدي بصعوبة لأضعها على موضع ألمي فلم أتمكن وسقطت بجواري، كان هناك صوت يهدر بالقرآن، ملت نحوه فلاح لي لحيته البيضاء وهي تهتز مع فمه، أظلمت الأجواء فجأة وسمعت صوت انطفاء جذوة من النار في الماء فصحت في فزع فعاد صوت الفتاة الصغيرة يطمئنني وهي تقول:

- هكذا يحل الظلام هنا يا عمّاه.

- من أنت؟

- أنا «جوجو»! الفتاة التي لفظها البحر. أنسيتني؟

قال الشاب وهو يحاول إسناد رأسي:

- لنحمله معًا إلى خيمة السيّدة «وطفاء» فالرياح شديدة.

شعرت بأياديهم وهي تمسك بكتفي وذراعي وساقَيَّ، وهناك من أسند ظهري، وكان أحدهم يقبض على ساقي فشعرت وكأنّ تيارًا يسري من جسدي إلى كفّه وكأنّه يسحب شيئًا من خلالي، فرفعت رأسي لأرى من هو فوجدتها الفتاة ذات الوشاح الوردِيَّ، عندما أدخلوني الخيمة أجلسوني فرأيت وجوههم على ضوء الشموع، ورأيت رموزًا تتراقص على جباههم! كنت أعرفهم لكنني لا أذكر أسماءهم، سألتهم بلسان ثقيل:

- ماذا يحدث لي؟

- «الغميصاء» سحرت لك يا «ممدوح».

- اسمي «ممدوح»!

أجهشت الفتاة في البكاء بنشيج مبسموع، قالت وسط بكائها:

- قلبه يحمل الكثير من الحزن! لقد شعرت بهذا ونحن نحمله!

عادت إلى البكاء فرأيت صورتها تتبدد أمام عيني واختفت وذابت
وسط بكائها في الهواء، وبعد لحظات رأيت طائرًا ينبثق من حيث
اختفت، حال سقف الخيمة بينه وبين التحليق فعاد ووقف على صدري
وفتح فمه وأطلق صيحة غريبة وسقطت من عينه دمعة على صدري!
قبض الشاب على الطائر وأمسكه وأخرجه من الخيمة فسمعت صوت
صيحته وخفق جناحاه وهو يبتعد.

عاد ذو اللحية البيضاء يرتل القرآن، وبينما كانت صاحبة الخيمة
تضع قماشة مبللة بالماء على جبينني، جلست الصغيرة تحدثني وتهمس
في أذني من آن لآخر أنها «جوجو»، كنت متعبًا للغاية، شعرت أنني أسقط
وأهوي من مكان مرتفع، أغمضت عيني وأظلم كل شيء حولي.

كنا آخر الليل عندما استيقظت وأنا أرتجف، الوجره نفسها في الخيمة
ذاتها، أدركت أنهم يهتمون لأمرني، أجلسوني وسقوني شيئًا مذاقه مرٌ
وقالوا إن هذا سيساعدني لأتعافى، علمت منهم أنني على هذا الحال منذ
يومين! سألتهم عن الطائر والفتاة التي اختفت فقالوا إنها لا تزال غائبة،
حاولت جاهدًا أن أتذكر أسماءهم لكنني لم أتمكن، أقبل الشاب الأشقر
ودلف خلفه مجموعة من النساء وحلّقن حولي، قالت إحداهن للشيخ
ذي اللحية البيضاء:

- ها هي الدمية.

- كيف وصلت إليها؟

قالت بحماس:

- لَقْن «زهير» حارس المنارة السوداء درسًا قاسيًا، لقد تورّمت عينه اليمنى وكاد يبكي والدماء تسيل من أنفه، وأنت تعلم ما نفعله عندما نجتمع ونعاقبه بطرقنا الخاصة.

- وكيف أحضر دمية «الفودو»؟

- سرقها ووضع أخرى بدلًا منها بعدما خرجت «الغميصاء» وقومها للجبل حيث يتسامرون ويرقصون وكانوا قد تركوا ذلك السكير ليحرس الخيمة.

قال الشيخ:

- وهل ستغفل «الغميصاء» عن هذا الأمر؟

- أحرق «زهير» الخيمة!

- يا إلهي! كيف تفعل هذا يا «زهير»؟

قال الشاب الأشقر:

- لا بدّ من إنقاذ «ممدوح» فهو الذي سيدلنا على الطريق للخروج من هنا.

قالت واحدة من النساء في كياسة:

- عندما ندمّر تلك الدمية وينحلّ السحر يجب على «ممدوح» ألا يظهر أنّه تعافى ويتصنّع أنّه يطيعها لأنها لم تُقدم على قتله إلاّ لأنها تحتاج منه إلى شيء يدور في رأسها.

- على أيّ حال سندبّر الأمر معًا.

- والآن ماذا ستفعل بتلك الدمية يا شيخ «عثمان»؟

- سنقرأ عليها من كتاب الله ونحلّها ونخرج شعر «ممدوح» منها.

تناول الشيخ الدمية منهم وكنت أرى صورهم ترتعش ولا أتبين
ملامحهم. بينما غبت عنهم وكانت أصواتهم تدور حولي والخيمة ممثلة
بهم، ظلت الصغيرة بجوار رأسي وهي تهمس:

- أنا «جوجو». هل تعرفني؟

استطعت أخيرًا أن أقف على قدمي، الآن تذكرت أسماءهم وأين أنا،
شعرت بالرثاء تجاه نفسي وأشفقت على حالي، كانت «جوجو» تتبعني
كظلي ولم تفارقني، جلست معهم بجوار نار أوقدها «زهير» لتدفئتنا،
وبينما كان الجميع قد انصرفوا وبقي هو و«جوجو» معي، استلقى
السيد «سُبروت» الكبير والد «سُبروت» الصغير بجوارنا وكان يغط في
نوم عميق.

سألت «جوجو» وكان كلانا يتدثر بشالٍ من الصوف:

- هل عادت الآنسة «رُميساء»؟

- ليس بعد.

- هل ترغبين أن أرسم لك المتاهة التي على جبينك قبل أن يطلع
الفجر؟

منحتني ابتسامة رائعة عندما رأت أنني أتذكر وقالت:

- بالتأكيد.

كان «زهير» ينصت إلينا فأحضر غصنًا ومده نحوي فتبادلنا
النظرات في صمت، كنت أتساءل عن سبب غضبه وقلقه المستمر، وأنا
الذي ظننته شابًا غير مسؤول يحبُّ اللهو واللعب وحسب. تناولت منه
الغصن وقلت له:

- لا ريب أنك تشتاق إلى أخيك «سُهيل».

مُرَّ رأسه في صمت، لم يفتح فمه، شعرت أنه يستثقل الكلام عن عائلته وذاك لأنه يحمل شوقًا كبيرًا إليهم وكذلك الجميع. لكنني شعرت في الوقت ذاته أنه يرغب في التودد إليّ والحديث معي، سألني بغتة في صيغة لا تعدم طرافة وهو يوارى ابتسامته:

- هل ولدت «مديحة»؟

بينما انفجرت ضاحكًا أجابت «جوجو» عني حين قالت:

- تركها في عهدة جارتها، وهي على وشك الولادة.

ظلت الابتسامة راسخة على وجهي، لم أتخيل يومًا أن تكون قطني السُمينة محطًا لاهتمام الآخرين، الجميع يترقّبون ولادتها! ترى كيف هي الآن؟ انتشلتني «جوجو» من شرودي اللطيف وهي تقول:

- وددت لو كان لديّ قطعة صغيرة.

- انتظري حتى تلد «مديحة»، لعلّي أهديك قطعًا مشاكسًا من أبنائها بعد أن يكبر قليلًا.

- حقًا؟

أومات لها فأشرق وجهها بابتسامة عذبة، ثم قالت في جدية شديدة: - والآن لنرسم المتاهة.

غضّنت جبينها واقتربت من وجهي لأرى الرمز بوضوح، ونظرت إلى عينيّ فأضحكتني مرة أخرى، مازحتها لأخفف عنها وبدأت أخطئ المتاهة على الرمال، كان «زهير» يتعجب مما يراه وسألني:

- لماذا لا نرى تلك الرموز مثلكما؟

- لا أدري. منذ وصولي والكثير من الأسئلة تظلُّ عالقة بلا إجابات.

- عليك أن ترسم لي الرمز المخطوط على جبينك بعد أن تنتهي من رسم تلك المتاهة.



- سأفعل.

أكملت رسم المتاهة بتفاصيلها فجلست «جوجو» بجواري وتأملنا
معًا، قالت بفضول:

- سأحاول حلها. ماذا لو بدأت من هنا؟

وبدأت تمرر إصبعها دون أن تلمس الرمال حتى لا تفسد شكلها،
لكنها وصلت إلى حائط مسدود، جرّب «زهير» أيضًا وفشل، جرّبت
بعدهما ولم أتمكن، شعرت أنها متاهة غريبة لا مجال للخروج منها،
في آخر محاولة لي كانت يدي تدور بإصبعي وتعود إلى نقطة البداية
نفسها، همست «جوجو» وهي ترى يدي تدور:

- لا تلتهم نفسك.

- ماذا؟

- أنت تعود إلى النقطة نفسها وكأنك تطارد ذاتك لتلتهمها، كان
هناك لعبة على حاسوبي هكذا، تخسر جميع نقاط الفوز عندما
تعود إلى نقطة البداية وتلتهم نفسك.

- وكأنك أضعت وقتك هباء.

- صحيح.

- ها أنت تتذكرين بعض الأشياء، فهل تذكرت اسم والدك؟

- لا! لكنني تذكرت كيف كان يُحبّني كثيرًا.

- ووالدتك؟

- لم أتذكر وجهها ولا اسمها حتى الآن.

قاطعنا «زهير» بعد صمت طويل وتحديق إلى المتاهة المرسومة
على الرمال وهو يقول:

- للخروج من تلك المتاهة يجب تحطيم هذا الجدار ثم هذا الجدار.
وأشار إلى جدارين أحدهما داخلي يليه آخر خارجي، فقالت «جوجو»
وهي تشير إلى جدار آخر:

- بل تحطيم هذا الجدار أكثر سهولة ولن يحتاج إلى تحطيم جدار
قبله!

- أتفق معك.

- ترى من منا سيخوض تلك المتاهة؟ أخشى أن أجد نفسي فيها وحدي.

- لا تخافي يا «جوجو» سنكون دائماً معاً بإذن الله.

التفت «زهير» عندما تناهى إلى مسامعنا صوت سعال وهول نحو
الجهة التي صدر منها واختفى بين الخيام، انتظرتة فلم يعد، ودت
«جوجو» أن ترسم له الرمز على جبينني لكنه لم يعد، وكأنه شغل بأمر
ما، همست «جوجو» قبل أن تتركني لتخلد إلى النوم:

- سمعت النساء يقلن إنَّ غجر «الظلمان» يخافون من «زهير»
ويحسبون له الحساب، فهو لا ينام طوال الليل ويطوف بالخيام
ليحمي نساء «تروفانتس» من هؤلاء الخبثاء الذين يتسللون ليلاً
ليؤذوهن، وإنه ضرب رجلاً تحرش بواحدة منهن فكسر ذراعه.

كان «زهير» قويّ البنية بالفعل، وفيه جِمية ورجولة لاحظتها في أثناء
تعامله مع من حوله، انصرفت «جوجو» وتركنتني وحيداً أمام النار، ومضت
تلك الليلة بثقلها وحمدت الله أنه سخر لي من يُساعدني في مواجهة سحر
دمية «الفودو»، خلدت إلى النوم وأنا أشعر بإعياء شديد على أثر السحر،
وكان هناك من طرق على كل مفصل في جسدي بمطرقة من حديد.



كان أبناء «لاش» يترددون عليّ ويطوفون حولي بأجنحتهم ويراقبونني في فضول، ما زالت «غيداء» عنيدة وكذلك «فرقان»، عندما أخبرته عن أبيه وكيف أنه قذف بي في المتاهة الأولى كنت أرى شوقاً وحنيناً في عينيه فسألته:

- لماذا أنت غاضب من أبيك؟
- كان أبي شديد القسوة معي، يدفعني للعمل وهو على يقين أنني لا أستطيع فعل بعض الأشياء، كنت عندما أطلب منه العون في شيء يقول بصوت خالٍ من العاطفة:
- ماذا ستفعل إن لم تجد أحداً مثلاً بجوارك؟ ساعد نفسك ولو زحفاً!
- لعلّه أراد أن يقوي عزيمتك.
- كنت أحتاج إلى بعض الحنان، تربيته للكثف!
- لا ييب أنه فعل لكنك لا تتذكر، الشدة والجفاء قناع يُخبئ وجع قلبه المهترئ خلفه.
- وددت لو رأيته يبكي على حالي.
- لعلّه يوارى عبراته عنك حتى لا يجرحك، رأيت كيف لم يقبل بسخرية الناس منكم؟ كان سجنه سبباً في غيابه عنكم هنا.
- سألت دمة من عينيه فأسرع يواريهما، همست له قبل أن ينصرف:
- يظلّ الآباء ثابتين كالجبال أمام ضعف ومرض أبنائهم، وعندما تنام أعينهم تخرّ تلك الجبال وتنهار.
- خلّق «فرقان» بجناحيه وابتعد وتبعه أبناء «لاش»، رفع سكان الوادي رؤوسهم ووقفوا يشيعونهم بنظراتهم، أقبل حارس المنارة السوداء وكان أثر ضرب «زهير» واضحاً على وجهه، قال وهو يلوي شفتيه:
- «الغميصاء» تقول إن عليك العمل من اليوم وإلا ستُسجن.

- سأخرج مع «زهير» للصيد.
- في تلك اللحظة ظهرت «رُميساء» فجأة وكانت تبدو مريضة وحزينة
أيضاً! سألتني وهي تفرك يديها:
- كيف حالك الآن؟
- بخير. وماذا عنك؟ هل أنت بخير؟
- أشعر بالمرض والبرد شديد!
- كنا بالقرب من النار التي يشعلونها باستمرار فجلست «رُميساء»
بجوارها لتنعّم ببعض الدفء فاقتربت وسألتها:
- آنسة «رُميساء»، هل تسمحين لي بسؤال خاص؟
- تفضّل!
- لماذا تبكين بحرقة شديدة وانفعال؟
- دائماً هناك سبب.
- كان لديّ فضول لأعرف السبب فقد رأيتها تنفجر في البكاء دون أن
يمسّها أحد، فسألتها:
- عندما وقفت أمامك سيّارة الأجرة، ما كان سبب بكائك حينها؟
- ذاك حديث مؤلم.
- وقفت فجأة وأغمضت عينيها وقالت في اضطراب:
- عليك أن تستعدّ فقد أبكي وأذوب ونحن نتحدّث الآن.
- لا أرغب في إيلاّمك.
- مرّ شبح الحزن فأطفا عينيها وهي تقول:
- كنت أبكي على نفسي وما حدث لي بعد وفاة والديّ وانتقالي
للإقامة مع أقاربي.
- اغرورقت عيناها بالدموع فطفقت تُحدّث نفسها قائلة:

- لا، ليس الآن، لا... لن أبكي!

كفكت دموعها وتنفست قليلاً ثم أردفت قائلة:

- كنت حينها في العاشرة من عمري، ألغت زوجة عمي اسمي وصارت تتاديني بأبشع الألفاظ، كان لديها لسان كحيّة قرمزية تنفث سمومها في وجوه الناس، حلقت شعر رأسي لكي ترضي ابنتها، حبستني لساعات في غرفة مظلمة عقاباً على أشياء لم أفعلها ولم أعرفها حتى الآن، أخذت ملابس جديدة وأعطيني ملابس ابنتها البالية بدلاً منها، سرّبت قطتي التي كانت تتبعني في كل مكان، وقتلت عصفوري المفضل.

- لماذا لم تخبري عمك؟

انتشلت وجهها من أعماق محيط الذكريات وقالت:

- أخبرته لكنني كنت صغيرة لهذا لم أحسن التعبير عن هول ما حدث معي وما أشعر به فلم يفعل شيئاً، أمضيت عامين في معاناة وكنت أبكي كل ليلة في صمت، حتى انتقلت إلى بيت آخر.

أطبق علينا صمت ثقيل، أردت أن أهوّن عليها فقلت لها:

- أخفف عنك أن تتذكري أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتيمًا مثلك؟ بل كان أصغر منك سنًا!

- أتدري؟ لم أنتبه إلى هذا إلا الآن! لو قالها لي أحدهم حينها لخفف هذا عني، حبيبي يا رسول الله.

- لعل في ذلك سلوى لفؤادك، ولا ريب أن رحيلك من بيت عمك بعد عامين كان خيرًا لك.

- نعم، فقد انتقلت إلى بيت خالتي وعشت معها ونعمت بحنانها، لكن ما مررت به ترك ندبة في قلبي فأثر على تعاملتي مع الناس، عندما يهينني أحدهم أصاب بالخرس، لا أنطق أبدًا حتى ينصرف، تظلُّ

كلماته كالخناجر مغروزة في صدري وأنا لا أجرؤ على الأنين،
وأبقى طوال الوقت أجتزأ ما حدث وأتساجر معه في خيالي وأردُّ
وأجادل، وأحياناً أصرخ في وجهه وقد أضربه، ثم أبكي بحرقة ولا
أنام إلا بعد دفن دموعي في وسادتي.

- أنت تخوضين معارك وهمية في خيالك، وهم لا يشعرون بمعاناتك،
ويستمعون بحياتهم ولا يرونك أصلاً.

قالت وهي تزم شفيتها:

- أريد أن أنتصر لنفسي!

- لا يوجد انتصارات في حروب غير موجودة!

- هل هذا محظور عليّ حتى في خيالي؟

قالت جمعتها الأخيرة في انفعال فقلت لأهدئها:

- لعلّه يُريحك ويسري عن نفسك.

- أعجز عن كل شيء عندما أكون أمامهم، لهذا أبكي لأنني لم أردعهم
حينها.

- تخدعين نفسك بالبكاء!

- أنا! كيف؟

كنت أحاول اختيار كلماتي فقد بدت لي رقيقة الطبع كرقعة الأصيل،
وخشيت أن تغضب مرة أخرى فقلت لها:

- سأحدث عن ذاتك الآن. وليس عنك... أقصد عن...

أغمضت عينيها وقالت بحزم:

- قل ما تريده دون مجاملة.

- قلبك مفطور ولهذا ترغب ذاتك المنكسرة في التعبير عن الحزن
بشكل درامي لترتاحي.

رفعت حاجبيها في اندهاش وهمست:

- درامي!

- أقصد أنها حيلة قد نفعلها جميعًا لنثبت لأنفسنا أننا مرثيون من قبل الآخرين، وهذا يستنزف الروح، أنتِ تذوبين حقًا من فرط الحزن، البكاء يشتتك ويبعث روحك.

- هل أنت طبيب نفسي!

شعرت بالحرَج فقد كان سؤالها استنكارًا، فقلت هامسًا:

- بل طبيب بيطري!

ابتسمت قائلة:

- لست من مرضاك يا دكتور.

- آسف!

رسمت على شفتيها ابتسامة خاطفة وقالت:

- كنت أمزح، لديك حقٌ في كلِّ ما قلته، أشعر بالفعل أنني أسير هائمة على وجهي كالبهائم، مريضة وجسدي متعب ومكدود كدابة تدور في ساقية باستمرار، حزني يركب رأسي فأصاب بالجنون كالقرود، ألسنا نشبه الحيوانات كثيرًا يا دكتور؟

- ليس الأمر بهذا السوء.

أمسكت رأسها وقالت:

- رأسي يغلي دائمًا بالأفكار التي تقرر بعضها بعضًا بلا هوادة، حتى وأنا هنا لا أنسى تلك المواقف التي جُرحت فيها.

- ستدركين بعد فوات الأوان أنك كنت تحاربين أشباحًا! بينما حياتك الواقعية مستمرة وأحلامك عالقة.

- أي أحلام؟ لقد كفنتها وما عاد لدي شغف أو طموح لتحقيق أي شيء.

- لا تفقدي الأمل ما دمت على قيد الحياة.

- ليس لدي أصدقاء مقربون، أراقب رفيقاتي من بعيد وأحزن عندما يعرضن عني ويزهدن في جواربي. تمنيت صحبتهم لأنني أحببتهم.

- قد يكون إعراضهم عنك حماية لك من ضرر لا تريه لكن الله يعلمه.

- أو لعلني أعيش في الظلام على الهوامش ولا يراني أحد.

- دروب الصبر طويلة.

- أظن صبري قد نفذ.

- ما الصبر إلا حسن الظن بالله واليقين أن كل شيء يجري بقدرته وحكمته ولا حيلة لك في ذلك.

- سأحاول.

أومات برأسها ثم أضافت مستدركة:

- شكرًا لك يا دكتور، تلك هي المرة الأولى التي أتحدث فيها عن نفسي مع أحد دون أن أبكي!

- لم تخبريني في أي جامعة تدرسين؟

- أدرس في كلية الآداب.

ألقت عليّ التحية وابتعدت بلطف وكأنها خُبئت في شعاع سماوي وتركتني وأنا حائر في أمرها! ترى إلى أين تذهب تلك الفتاة عندما تختفي وتذوب؟



@ART_OF_BOOK

١٢

جزيرة «هاينان»

كُنت أراقب تخوم الوادي مع أول ضوء للفجر بينما قمم الجبال
تغتسل بالغيوم الوردية، أقبل «زهير» ودعاني لمرافقته في رحلته
للصيد، غادرنا الوادي وتوجَّهنا إلى القوارب لنستعد للإبحار بها وكان
البرد قارسًا، المنارة السوداء تُطلُّ علينا وضوء شعلتها يتراقص أمام
أعيننا، دفع الصيَّادون قواربهم إلى ماء بحر «قاغ» وانطلقوا وهم
يتلقَّتون تجاهنا، سألت «زهيرًا»:

- لماذا ينظرون إلينا بتلك الطريقة؟

- ستعرف بعد قليل.

قفز «زهير» بخفة في قاربه وتبعته وبدأنا نجدف ليجري القارب
على صفحة الماء كما فعل البقية، سألته بفضول:

- ألم تحاولوا البحث عن طريقة للعودة إلى «تروفانتس» عن طريق
البحر؟

- حاولنا وكانت أحجار «تروفانتس» تخرج من قاع البحر وتدور في
دوامات وتحول بيننا وبين هذا.

- لا تنفك تراقبكم وتتتبع حركاتكم.

شرد بعينه قائلاً:

- الأمر معلق بشيء لا نعرفه.

- ربّما لكثرة إراقة الدماء، وإبعاد الجدّات إلى «حلقات الظلام التسع»

وعدم برهن، وسوء معاملة أبناء «لاش» والتشاؤم منهم، أليس كلُّ

هذا شائئاً ويستوجب العقاب؟

- بلى، ولكنك تتحدث عن أحجار تعاقب البشر! وهذا مستحيل!

- كل شيء في مدينتكم غريب.

بدأ الضباب حولنا يتكاثف كمعطف ثقيل يدثرنا، غاب البحارة عن

أعيننا وما عدنا نسمع أصواتهم فسألته:

- أهذا سبب تلفّتهم في فضول؟

- نعم. الضباب يحجبني عنهم تماماً.

- لماذا تبحر دائماً وحدك؟ ألم يعرض عليك أحدهم أن يرافقك؟

- كنت أرفض!

أصاخ السَّمع للحظات ثم قال:

- الآن... اترك المجذاف واثبت في مكانك!

طرق «زهير» على جانب القارب بكفّه عدّة مرّات في إيقاع منتظم

ثمّ سكن، شعرت برهبة شديدة، لكنّ ثبات ملامح وجهه جعلني أهدأ،

فهو يعود دائماً إلى وادي «لاش»، فمهما كان ما سنعرّض له من أخطار

سنعود في النهاية بإذن الله. بقينا هادئين والماء ساكن حولنا والقارب

يجري وحده بينما الضباب يزداد ثقلًا، والبرد يزداد شدّة وقسوة،

وفجأة! بدأ القارب يدور وتسارع دورانه بوتيرة سريعة وتكوّنت حوله

دوامة كادت تطيح بنا، انبثقت من الماء ثلاثة مخلوقات شديدة السواد
كعتمة الليل أجسادها تشبه جسد الفقمة بيد أن وجهها منحوت الملامح
كوجه إنسان! سرت القشعريرة بطول عمودي الفقري وكنت أشعر
بدقات قلبي في صدغي، كاد صدري ينفجر عندما نطق أحدها بصوت
أنثوي ناعم وهو يقول:

- مرحبًا يا «زهير»، من هذا الغريب؟

- إنه الشاب الذي أخبرتك عن ونراه في أحلامنا كل ليلة.

طفق «زهير» يهدئ من روعي ويطمئنني ثم أشار إليهن بالترتيب
وقال لهن:

- هذه «تارا»، وهذه «ميراندا»، وتلك «أسترا»، حوريات بحر «فاغ».

- لست في حاجة إلى معرفة أسمائهن.

بدأ الخوف من «زهير» نفسه يتسرّب إلى نفسي، اعتقل لساني في
فمي وبقيت صامتًا بينما هو يتحدث إليهن ويمسح على رؤوسهن،
أغمضت عيني وحاولت أن أتنفّس بعمق وبدأت أردد آيات من القرآن
لتستكين نفسي. قررت أن أواجه خوفي وأطالعهن ففتحت عيني
وازدردت ريقي بصعوبة وتأملتهن وأنا أتعجب، كنت أظن أن حوريات
البحر فتيات جميلات ساحرات لهن ذيل سمكة طويل، وشعور حريرية
ملونة وطويلة ويجدن الغناء! لم يمر بخاطري قط أنهن هكذا!

حدّقن تجاهي بأعينهن السوداء وكان لديهن شوارب طويلة، قالت
إحداهن بصوت رفيع وحاد وهي تقرب رأسها من جانب القارب الذي
كنت أستند بظهري إليه:

- لماذا تبدو خائفًا؟

رميت «زهيرًا» بنظرة ففهم مرادي وقال لها:

• دعيه يعتادكن أولاً يا «تارا».

نظفت الثالثة أخيراً وقالت في ضجر:

• وكأنه رأى عفريتاً من الجن!

التفت نحوها فتلاقت نظراتنا وانخلع قلبي، ربّت «زهير» كتفي وقال

هدوء:

• اطمئن، لقد نشأت معهن وكثيراً ما كنت ألهو برفقتهن في

بحر، «فاغ» ونحن صغار.

نجاهلت كل ما قاله وسألته:

• وماذا بعد؟

• سنسبح معهن في بحر «فاغ».

• مع من؟!

• مع الشقيقات الثلاث، ألا ترغب في زيارة جزيرة «هاينان»^(١)؟

• لا أرغب في زيارة أيّ جزيرة!

عقد حاجبيه وقال في رتابة:

• عليك أن تعتاد الأمر، اقفز في الماء ودع واحدة منهن تحملك إلى هناك.

لم يترك «زهير» لي مجالاً لكلمة واحدة وقفز في الماء، حملته حورية منهن وجرت به فوقفت وسط القارب وطفقت الحوريتان الأخريان تحدّقان تجاهي، كانتا تنتظران أن أقفز! أغمضت عيني وكدت أجلس فضربت إحداهن القارب بذيلها وسقطت في الماء لتحملني أختها

(١) هاينان هي جزيرة تقع جنوب الصين. وتتميز بطبيعة استوائية جميلة. وقد أصبحت قبلة سياحية للسياح، يطلق عليها أحياناً لقب «هاواي الشرق» لطبيعتها الخلابة.

وتجري بي وهي تمخر عباب البحر بسرعة شديدة، انقشع الضباب
وغمرنا ضوء الشمس، شعرت بالدفء، كنت لا أعرف أي حورية من
الثلاث تحملني، قلت لها:

- هدثي قليلاً من سرعتك يا «تارا».

قلبتني في الماء وانصرفت وهي تهدر بصوت غاضب:

- دع «تارا» تحملك إذا أيُّها الأحمق!

أقبلت الثانية وحملتني وانطلقت لتكمل الطريق فسألتها على
استحياء:

- ما اسمك؟

- ألم تميزني عنهما؟ أنا «أسترا»! أكثرهن رقةً وجمالاً!

- آسف، أنتن متشابهات للغاية.

قلبتني في الماء هي الأخرى وانصرفت وهي تهدر قائلة:

- أنا لا أشبه هاتين البدينتين! كما أن خيشومي أجمل.

بقيت في الماء حتى عادت «تارا» بعد أن أوصلت «زهيرا» وقالت لي:

- لا ريب أنك أغضبتهما!

- لم أقل شيئاً، فقط أخطأت في الأسماء!

- لا ينبغي لك أن تخطئ في اسم حورية من حوريات بحر «فاغ».

- وكيف لي أن أعرف!

- نحن مختلفات تماماً! أنا «تارا» الأجمل بينهن، و«أسترا» نحيفة

عناً وفي عينيها ضيق، أما «ميراندا» فهي الأبطأ في حركتها وحتى
في كلامها.

- الإناث هنّ الإناث أينما وُجدن!

- هيا لأحملك إلى شاطئ الجزيرة.

حملتني «تارا» على ظهرها وانطلقت بي مرة أخرى، أطلت الجزيرة من بعيد وكان كل ما عليها يبرق تحت ضوء الشمس، وكلما اقتربنا كنت أنبئن شيئاً فآزداد تعجباً، الرمال فضية تلمع وتضوي وكأنها تحفظ في ذراتها ومضات من نيازك قديمة، الأشجار تبدو وكأنها معلقة في السماء! هناك سرب من طيور «النورس» يروح ويجيء في نسيج واحد، كان «زهير» يقف على الشاطئ وبدا لي أن «ميراندا» و«أسترا» تشكوانني إليه، قال وهو يضحك مما فعلتاه بي:

- كيف لم تفرق بينهما؟

- أتقسم إنك تميزهما عن بعضهما؟

هز رأسه في إيجاب ولوح لهن، ابتعدت الحوريّات الثلاث فهمست له وأنا أراقبهن:

- عندما أخبرني «سهيل» أنك تضيع وقتك في اللهو مع حوريّات بحر «قاغ» تخيلت أنك تلهو مع ملكات جمال بحر «قاغ» وتقهره طوال النهار!

- وهن كذلك بالفعل، لو رأيت البقية ستعرف أن الشقيقات الثلاث هنّ الأجمل بينهنّ.

- لا تخبرني أنك واقع في غرام سمكة!

قهقه ضاحكاً وقال:

- لا أخون زوجتي أبداً.

أجفلت عندما اخترقت الكلمات أذني فقلت في ذهول:

- ماذا قلت؟ زوجتك!

- نعم.

- يا إلهي!
- أتيت بك خصيصي إلى الجزيرة لتلتقيها، لا أحد يعرف بوجودها هنا سواك.
- لكن أخاك «سُهيل» لم يُخبرني أن لك زوجة.
- لأنه لا يعرف بأمر زواجي بـ «القيثارة».
- ازدادت دهشتي عندما سمعت اسمها وكأن أحدهم ضربني على رأسي بمطرقة وسألته:
- عروس الأمير «السُمهري»؟
- هز رأسه موافقًا وابتسم بهدوء ثم قال:
- عروسي أنا!
- كانت خطيبته!
- علم «السُمهري» بقصتنا قبل أداء مراسم الزفاف، وكان على وشك إعلان زفافنا في ذلك اليوم، لكن «ظَلِيم» أفسد كل شيء، ثم فرقت بيننا أحجار «تروكانتس».
- أتدري أنه لم يكشف سرُّكما ولم يُخبر أحدًا قط.
- ذاك ليس غريبًا عليه، «السُمهري» لديه من المروءة رصيد عظيم، لا ريب أنه فعل هذا ليحمي عائلتي.
- لو علمت «الغميصاء» وقومها أن «القيثارة» هنا لأتوا إليها.
- هز رأسه نافيًا وقال:
- «الظُلَّمان» يخشون البحر، لن يصل هؤلاء الغجر إليها أبدًا.
- ألهذا أخفيتهما هنا؟

- لم أفعل! وإنما دلّنتني الشقيقات الثلاث على مكانها وحملوني إليها فوجدتها هنا على جزيرة «هاينان» بين قوم صالحين أحسنوا ضيافتها فطلبتها للزواج من كبيرهم توقيراً لهم وزوجونا.
- لماذا تعود إلى الوادي إذا؟ كان عليك البقاء هنا معها بالجزيرة.
تنهّد بعمق وقال:

- كنت أنتظرك. ألم أخبرك عن الوعد الذي قطعته لك عندما رأيته في الحلم.

- كيف تصدّق حلمًا وتلتزم بوعد قطعته خلال نومك وتترك زوجتك وحدها؟

- لأننا في «تروقانتس» نصدق الأحلام، الأحلام لا تكذب أبدًا!
كنّا لا نزال نقف وسط الماء، بدأت أسير بخطوات ثقيلة نحو رمال الشاطئ وأنا أقول:

- أتدري؟ من يعيش في «تروقانتس» ويرى ما بها من غرائب وعجائب سيؤمن بأحلامه بالفعل، ولأصدقك القول، لقائي إياكم وما يحدث لي بمنزلة حلم طويل يا «زهير»!
رفع كفه تجاه الجزيرة وقال:

- انس ما رأيته في مدينتنا وانظر إلى جزيرة «هاينان» المدهشة!
عندما وطئت رمال الجزيرة بقدمي شعرت وكأنّها ترسل نبضات إلى باطنها فرشحت السعادة في نفسي، بدت الأشجار غريبة بجذوع شفافة كالزجاج، تجري فيها أنابيب ضوئية تنبض بألوان خلابة، جذورها تمتدّ في الهواء لا في الأرض! وكأنّها تستقي الماء من السحاب! بينما أوراقها تفتersh الأرض تحت أقدامنا! وكانت الأوراق عريضة تشبه أجنحة الفراشات، لمست جذوع الأشجار البلورية بيدي فأصدرت خريراً خافتاً،

كانها تعزف لحنا مرسلًا من زمن تليد وتدندن به. طافت حولي طيور
لها أجنحة من غبار ذهبي، انحنيت وقبضت قبضة من الرمال الفضية،
مررت أمام عيني مشاهد وذكريات من الماضي كنت قد نسيتها فأرسلتها
وتأملتها وهي تتسلل من بين أصابعي كجزيئات الزمن المتكسر!

مررنا بشلال ماء بديع، وضعت يدي تحت مائه فمررت بخاطري ذكريات
سعيدة، وقفت بكامل جسدي تحته فضج رأسي بكل جميل مررت به في
حياتي وانطلقت أضحك بجنون، سمعت همسات بلغات مختلفة وكان
حبيبات الماء تبوح بأسرار كل من مر من هنا، انضم لي «زهير» فأدركت
أنه يجرب هذا مرارًا وتكرارًا، خرجنا من تحت ماء الشلال والسعادة
تغمرنا، دلفنا لبستان كثيف الأشجار وعندما عبرناه ظهر أهل الجزيرة
فأدركت من النظرة الأولى إلى وجوههم أنهم من العرق الأصفر الآسيوي،
أشعلوا نارًا ليدفئونا فجلسنا وأحسنوا ضيافتنا. وعندما بدأنا الحديث
معهم وعرفوني بأسمائهم أدركت أنهم من عرق «الهان» فعلمت أن
أصولهم من الصين! وما سرني أنهم يتحدثون العربية بطلاقة والكثير
منهم مسلمون، كان أكثر من اهتم بنا صديق لـ «زهير» وهو شاب يدعى
«مينغ دي»^(١)، لم يكن طويلًا ولا مهيبًا مثل الأبطال، لكنه كان يمتلك
حضورًا يسكت الريح من حوله، وكانوا يوقرونه وينصتون إليه عندما
يتحدث. قال لي «زهير» عنه شيئًا ترك بصمة في نفسي وعلق في ذهني
ولم أنسه، وهو أن قومه يصفونه بأنه يستطيع رؤية الفضيلة في كل
شيء، حتى في الأشخاص الذين ظن العالم أنهم فاسدون حتى النخاع،
راقني أن يعرفه من حوله بهذا العمق، وددت أن أكون مثله، أن أكون نقيًا
ورائقًا من الداخل فأرى الخير في كل شيء وإن لم ينتبه إليه الآخرون،

(١) مينغ: تعني المشرق أو اللامع. 明

دي: تعني الأخ الصغير 弟

«مينغ دي» تعني الأخ المشرق.

وإن أكون شريفاً عفيفاً فأدرك الفضيلة عندما تسري في الخفاء وأتعرّف عليها في نفوس من حولي. أحببت مجلسهم وكلامهم وطعامهم وشعرت بدفء القلوب قبل أن أشعر بدفء المكان وجفت ثيابي على أثر جوارنا للنار.

أقبلت «القيثارة» برفقة بعض النساء، كانت تسير ببطء وهي تتكئ عليهن فقد بدت في آخر شهور حملها! أدركت حينها سبب قلق «زهير» ونوته المستمر، فهو يترك زوجته هنا ويتردد عليها ويخفي الأمر ولا يستطيع ترك المبعدين من «تروقانتس» لأنه يحميهم من غدر «الظلمان» ومعه القليل من الشباب الذين لا يتجاوز عددهم أصابع اليدين. قدّمني «زهير» إليها، قالت وهي ترنو إلى زوجها:

- لا ريب أنك علمت بقصّتي من «زهير».

- أخبرني «سهيل» بتفاصيلها المؤلمة.

- لقد عوّضني الله بـ «زهير»، فهو أبي وأخي وحببي وزوجي.

- ستسعد السيّدة «رشاء» عندما تعلم أنّ موعد وصول حفيدها الأول قد اقترب، لو كانت هنا لاهتمّت بك هي والبنات.

ابتسم «زهير» ثم قال وهو يقبض على كتفي:

- لهذا لن أستطيع ترك «القيثارة» وحدها بعد الآن.

- ماذا تقصد؟

- ستعود وحدك إلى وادي «لاش»، فكما ترى، «القيثارة» ضعيفة وعلى وشك الولادة وهي وحدها هنا ولا أستطيع تركها للحظة واحدة منذ الآن.

أجفلت وسألته في حيرة:

- وماذا سأقول عندما يسألونني عنك؟

- إياك أن تخبرهم عن جزيرة «هاينان» فأنا أخشى على «القيثارة» من بطش «الغميصاء» وقومها، وقد تُجبر حارس المنارة والصيادين على البحث عنا وتهدهم بزوجاتهم وأبنائهم.
- ونساء وفتيات «تروفانتس» الذين يحتمون بك؟
- لم أكن وحدي، ستجد من يعينك من شباب «تروفانتس».
- لكن القوم يحسبون لك الحساب!
- أنت الآن مكاني، أثق بك.
- لن يصدّقني أحد، سيظن المبعدون من «تروفانتس» أنني أذيتك أو قتلتك!
- لا تخف، ما عليك إلا قول الحقيقة.
- أي حقيقة؟
- الحوريات الثلاث سيظهرن أنفسهن لباقي الصيادين، وعندما تعود أخبر القوم أن واحدة منهن حملتني بعيداً عنك!
- لقلنا صمت عامر بالقلق، كنت أرتجف من داخلي، ذكّرت نفسي بما مررت به وأن هذا أهون فهدأت جوارحي، تأملت ضعف «القيثارة» فأشفقت عليها، وكنت أقدر ما يشعر به «زهير» وما وقع فيه من حيرة، فقررت أن أتقبل الأمر وأساعده، سألته وأنا أحاول أن أبدي ثباتاً:
- وإن أردت الوصول إليك مرة أخرى كيف سأعرف الطريق؟
- عندما يحيط بك الضباب توقف عن التجديف، وربت القارب من الخارج كما فعلت لتسمعك حوريات البحر، فتلك إشارة اتفقنا عليها.
- «تارا» و«أسترا» و«ميراندا» مرة أخرى! هذا ما كنت أخشاه.
- ضحك وقال وهو يحرك سبابته في الهواء:

- صدقني سيروك الحديث معهن.
- قرأت في عينيه الرجاء فأومات له موافقاً، رمش بعينه قائلاً:
- هذه المرة سيعود قاربي دون لؤلؤ ومرجان. يكفي ما جمعته لهم من كنوز!
- لا أدري ماذا ستفعل «الغميصاء» وقومها بكل هذا والجميع محاصرون في الوادي!
- الطمع يعمي النفوس، صار لديهم شراهة للاكتناز، يجمعونها في كهوف بالجبل الشرقي ويسIRON إليها كل ليلة ليرقصوا بجوارها ويطمثونها أنها لا تزال هناك.
- قبل أن أنصرف مع «تارا» همس «زهير» لي قائلاً:
- سأنتظر عودتك يا «ممدوح»، لا تتركني وحيداً هنا، وإن استطعتم الخروج من وادي «لاش» لا تنسونا، ولا تنس أن زواجي بـ «القيثارة» سرٌّ وأمانة فلا تخبر أحداً عنه حتى أعلنه بنفسه وسط أهل المدينة.
- وسأكون حاضراً بإذن الله.
- تعانقنا وسار معي إلى الشاطئ، ترددت كثيراً وكنت أخشى المضي مع الحوريَّات الثلاث وحدي، طال وقوفنا وأنا لا أرغب في الرحيل. قال «زهير»:
- أعرف أن شكلهن يُربكك، لا تنتظر إليهن كوحوش، بل كحارسات.
- حارسات!
- نعم، البحر مليء بالمخاطر.
- أحتاج فقط إلى بعض الوقت لأتمالك وأثبت وسأرحل معهن بإذن الله.

- أتدري ما يُعجبني فيك يا «ممدوح»؟ أنك تعرف طعم الخوف، لكنك لا تدعه يتخذ قراراتك، من خلال ما حدث لك منذ وصولك وكيف تعاملت معه أراك كالماء، تتشكّل مع كلّ ما يعتريك من ظروف كما يتشكّل بسيولته في الإناء، دون أن تفقد جوهرك واتزانك.

أسكنت كلماته الهواجس في رأسي، وكأنني حُقنت بإكسير الشّجاعة. انصرفت مع «تارا»، وبينما نحن في الطريق اكتشفت أنها «ميراندا»، قلبتني في الماء غاضبة وانتظرت حتى أتت «تارا» وأوصلتني إلى القارب. قالت قبل أن تنصرف:

- عليك أن تُسرّع قبل أن يهبط الظلام، وسأذهب الآن مع شقيقتي لنظهر أنفسنا للصيادين.

أطلت «ميراندا» من تحت الماء وكان لها زعنفتان عريضتان كالكفين استندت بهما على حرف القارب فارتج قلبي بين أضلعي وأنا أتأمل وجهها عن قُرب، لوحت بزعنفة منهما ورقّصت شواربها وهي تقول:

- لا بأس ببعض اللهو مع بني البشر، أحبُّ تلك اللحظة حين يصرخون فيها من شدّة الرُّعب!

انصرفتا وبدأت أجذّف في جهة أرشدتاني إليها وسريعًا ما اخترق مسامعي صياح الصيادين، وعندما وصلنا إلى الشاطئ سبقوني ركضًا إلى الوادي في خوف وهلع وانطلقوا يحدثونهم عن مخلوقات مخيفة سوداء حدثتهم بلغة البشر وهزّت قواربهم وأصدرت صيحات مخيفة، سألوني عن «زهير» وقلت كما طلب مني بالضبط: «حملته المخلوقات الغريبة ورحلت به بعيدًا عن عيني ولم يعد» فخيم الحزن على الجميع وأصابهم الوجوم، وبكت عليه «رُميساء» حتى ذابت من كثرة البكاء وتلاشت من أمام أعيننا، وظهرت «العنقاء» بعد اختفائها وظلّت تُحلّق

لوقنا وتُطلق صيحة مهيبة قبل أن تبتعد، رقدت الشمس على كتف الجبل
لَمْ انزلت غاربة وتساقط أبناء «لاش» وحملهم أهاليهم إلى الخيام،
أبليت «جوجو» وعندما تلاقت نظراتنا همست قائلة:

- هل سنبقى هنا في هذا الوادي المخيف للأبد؟

- سنعود جميعًا إلى «تروقانتس» بإذن الله.

- متى؟

- في الوقت المناسب.

كانت ليلة ثقيلة على نفسي، وقف سكان الوادي أمام خيامهم بوجوه
تحمل الكثير من الحزن وكأن غياب «زهير» سكب الملح على جراحهم.
ظهر الغجر مثل موجة داكنة تتحرك بانسجام غريب، ورياح الوادي
تعبث بشعورهم الطويلة وعباءاتهم المطرزة بالخيوط النارية، تتقدمهم
«الغميصاء» وفي يدها عصاة تلمع بوميض أزرق، وعيونها القاتمة تشعُّ
كأنها ترى ما وراء العقول، وقفت أمامنا واستجوبتنا وطال السؤال
عن الحوريات وكانوا يسمونهنَّ «مسوخ البحر» فبدأت أصف أشكالهن
وصيحات الرعب تتعالى حولي، وقد أضاف الصيادون المزيد من
الأوصاف العجيبة من خيالهم الواسع، فأدركت أن عين الخائف ترى ما
لا نراه في حالاتنا العادية، ويُهيأُ إليه أنه يسمع أصواتًا تبدو وكأنها من
قاع الجحيم! وتبدو الأمور على غير حقيقتها، نحن نخلق الأوهام عندما
نشعر بالخوف ونصدّقها.

انصرفت «الغميصاء» وأتباعها ومضوا إلى حيث يرقصون كل ليلة
وكانهم قد ارتاحوا برحيل «زهير»، ذاك الشاب الجسور الذي طالما
أرعبهم وصدّهم عن نساء «تروقانتس» وبنات «لاش»، عندما قرأت
الرعب والقلق في عيون النساء قررت أن أقوم بدوره فسهرت الليلة
وأنا أطوف بالوادي وحملت خنجرًا أعارني إياه والد «سُبروت»، وانضمَّ

إليّ شابان كانا قد خرجا من مدينة «تروفانتس» مع أشقائهم من أبناء «لاش» ليقنعاهم بالعودة وبقيّيا في الوادي معهم وسخّرا أنفسهم لخدمة الجميع. مرّت الليلة الأولى بسلام، أمّا الليلة الثانية فكانت في بدايتها هادئة لولا تلك الصرخة التي شقّت حجاب السكون، انتفض رجال الوادي، أشار أحد الشّباب إلى أقرب الجبال إلينا وقال:

- إنّها الفتاة التي تذوب من فرط البكاء!

قال آخر:

- تلك هي المرّة الثانية التي تظهر فيها فوق الجبل.

- لنُساعدُها في النزول كما فعلنا من قبل.

انضمت إليهما وهولنا تجاه الجبل ونحن نحمل الشّعل، وكان بجوارها شعلة كبيرة ثبّتتها الغجر هناك، صرخت مرّة أخرى واستغاثت بنا، لحق بنا آخرون من الجهة المقابلة، رأينا ذئبًا يتربّص بها، ولا يمنعه من الوصول إليها إلّا انحدار المكان الذي تقف فيه، ولو قفز نحوها سيسقط في الحال! وصلنا إليها عن طريق ممرّ بدا لي أنّ الرّجال يعرفونه جيّدًا فقد كان ممهّدًا وكأنّه درج، ظلّت تتراجع للخلف ولم تنتبه لانحدار الأرض وحافّة الجبل، عندما اصطدم ظهرها بالجبل تشنّجت، كانت شاخصة تجاه الذّئب، عيناها جامدتان كعيني تمثال من شمع، بينما دموعها تسيل على خديها في صمت، لم تتلاش ولم تذّب ككلّ مرّة! بيد أنّ ارتعاش جسدها الرقيق من شدّة الخوف كان جليًّا لنا تحت ضوء الشّعل، تعالّى صياح الآخرين وهم يُنادونها ويخاطبون بعضهم بعضًا:

- هيّا ابكي يا فتاة لكي تذوبي بسرعة قبل أن يلتهمك الذّئب!

- إنّها تبكي بالفعل! أرى الدّموع على وجنتيها.

- لماذا لم تذّب من البكاء ككلّ مرّة؟



- عليها أن تبكي بصوت مسموع!

- اصرخي بأعلى صوتك... هيا.

- يا إلهي! لا تزال هناك!

- سيأكلها الذئب.

- هل علينا أن نبكيها؟

- كيف؟

- نسبها مثلًا أو نرميها بالحجارة.

- لو كنّا نهارًا لطار إليها أبناء «لاش» وحملوها.

خلعت قميصي ولففت به ذراعي اليسرى وحملت خنجري في يدي اليمنى واقتربت من خلف الذئب بحذر شديد، حين شعر بي التفت في لمحة عين ووثب تجاهي في الحال وكاد يغرز أنيابه في عنقي لولا أنني حشرت ذراعي في فمه وطعنته في عنقه بالخنجر فأطلق ذراعي، أقبل الآخرون وركلوه ليهوي من فوق الجبل. التفتُ نحو «رُميساء» فوجدتها تكاد تسقط فقلت لها بهدوء:

- اثبتي مكانك.

بدت الأرض تحتها مائلة ومنحدرة، وقدماهما تنزلقان ببطء بينما تتشبث ببروز حجري، وعليّ أن أسير تجاهها بهدوء لأسحبها، بدأت أحدثها لألهيها بينما أقترُب منها:

- أتدريْن أن رفاقي كانوا يسخرون مني وأنا صغير؟

نقلت عينيها إلى وجهي فأكملت قائلاً بينما أقترُب:

- كانوا يتنمّرون على أذنيّ البارزتين.

أطبق الصمت على جميع من خلفي، اقتربت منها خطوة أخرى وأكملت قائلاً:

- يقول الحلاق إن الأذنين البارزتين من علامات الذكاء.
كدت أفقد اتزانني فتمالكت وأكملت قائلاً:
- أعلم أنه يكذب، لكن هذا أراحني!
- انزلت قدمي فشهقت «رُميساء» وتعاليت صيحات من خلفي، اعتدلتُ واقفاً وقلت بصوت متقطع بسبب أنفاسي التي أخذت تتسارع بجنون:
- أعجبه أنفي!
- أكملت وصدري يرتعش:
- يقول إنه أنف قائد، أتصدّقين؟
- همست بخفوت وهي تراقب خطواتي:
- أصدّق!
- بدأ العرق يغمر جبيني، سألتها ودقات قلبي تصم أذني:
- لماذا لم تذوبي؟
- دموع الخوف لا تذيب روحي.
- إذن هو الحزن لأجل الآخرين!
- اقتربت أكثر وكان بيننا خطوة واحدة، قبضت على ذراعها فانزلقنا معاً تجاه الحافة وكدنا نسقط فطار حجر عريض من أحجار «تروفانتس» فجأة وحملنا معاً، صحت في ضجر:
- أين كنت من البداية؟
- تعاليت صيحات الشباب وهبطوا حيث أنزلنا الحجر على الدساكر، وقفت أمامها وكان وجهها مخضباً بالدموع، أدركت في تلك اللحظة أنها اخترقت شغاف قلبي، وأنها تعني لي الكثير، سرنا في صمت يشبه حلماً

نمشيه معاً، بينما قلبي يُثْرثر معها في الخفاء، عدنا إلى خيمة السيِّدة
«وطفاء»، حيث كان الدفء والسُّكينة.

تغيَّرت نواميس الوادي، بدأ الصيادون يرفضون الخروج للصيد مرَّة
أخرى خوفاً من مسوخ البحر، وكان الغجر غاضبين من قرارهم هذا.
عاد المتسكعون منهم لمطاردة الفتيات وبدأنا نراقبهم ونردعهم،
صارت الأجواء مشحونة وأصبح الجميع يتضررون مما يحدث ويرغبون
في إيقاف تلك المأساة التي يعيشونها هنا، التَّفؤوا حولي وبدؤوا يتحدثون،
قال أحد الشباب:

- أخرجنا من الوادي ودلنا على الطريق كما تفعل في أحلامنا
باستمرار!

- لا أعرف ما ينبغي لي فعله، أنتظر علامة محددة.

- أيُّ علامة؟

- ربِّما لم أخبركم بما مررت به قبل أن أصل إليكم هنا، ولعلني لا
أعرف تفاصيل حلمكم الذي ترونني فيه، لكنني أنتظر علامة كتلك
التي برقت في ذهني في غابة الصنوبر عندما أدركت أن أرضها
كالمتاهة التي سلكتها، فعدت بالأمير «السُّمهرِّي» ومن معه إلى
«تروقانتس».

سألني آخر:

- ومتى سترى تلك العلامة؟

- لا أدري! وحتى تظهر علينا أن نستعدُّ ونحمي النساء، واتحادنا
واجتماعنا سيعزز قوانا.

قالت امرأة وهي تحرِّك عينيها في قلق:

- وماذا ستفعل مع أبناء «لاش»؟ إنهم يرفضون الرحيل.
- عليكم إقناعهم، على الأقل ليعودوا معنا إلى مدينة «تروكانتس» ليحميهم الجنود من الغجر حتى يرحلوا من هنا.
- تحدث الشيخ «عثمان» فسكنوا وأنصتوا إليه جميعًا وقال:
- علينا أن نحمي أنفسنا ونقرب الخيام من بعضها بالتدريج دون أن يشعر غجر «الظلمان» أننا ننقلها، وليتخذ كل منا سلاحًا في الخفاء.

قال والد «سبروت» وكان حدادًا ماهرًا:

- سأتولى صنع الأسلحة وأهربيها في الخفاء وعليكم أن تساعدوني.
- أطلق من يُراقبون الأجواء صيحات اليوم ليحذرونا من اقتراب أحد الغجر فتفرقنا، ومضت عدة أيام ونحن على هذا الحال في قلق وتربص وترقب، وفي ليلة من الليالي شق سكون الظلام صراخ فتاة وهي تستغيث، وعندما أسرعنا إلى خيمتها كان هناك رجل من الغجر يحاول هتك سترها فطعنه أحد الشابين اللذين رافقاني من قبل وأرداه قتيلاً فاشتعلت الأجواء، لوح الشاب بخنجره وقال والغضب يطل من عينيه:
- من يقترب من بناتنا سنذبحه!

طارت كلماته في الوادي فأقبل الغجر من كل حذب وصوب وكان عددهم أكبر، وبدؤوا يضربون كل من يقع تحت أياديهم تارة بالهراوات، وتارة بالسياط، تقدموا كعاصفة مظلمة وسيوفهم تلمع كالأفاعي، يركضون بخفة الراقصين، يتحركون على الأرض كأنها تعرفهم. كنت قد وضعت خطة سابقًا وحدثتهم عنها فطلبت من النساء الرجوع إلى الخلف ومعهن الأطفال، رفض الكثيرون ترك أحبابهم من أبناء «لاش» فطلبت منهم حملهم وتعاون الجميع في نقلهم حيث الأمان من رمي السهام، بدأ الوادي يرتجف تحت وقع طبول الغجر، وكنت قد أشرت

على بعض شباب «تروفانتس» ليصعدوا الجبال ويرموهم بالسهم
المشتعلة ليحرقوا خيام الغجر في الجهة الأخرى، ففعلوا بإشارة مني
وأصابوا الكثيرين منهم.

رفع رجال «تروفانتس» دروعهم الخشبية، ورماحهم تطعن للأمام
بثبات، وتصادم الطرفان في زئير واحد، امتزج فيه الغبار مع العرق
وصيحات الغضب، الغجر يُقاتلون بروح الترحال، ورجال «تروفانتس»
يُقاتلون بروح البقاء. بين السيوف المتكسرة والدماء التي سالت على
الرّمال، وقف الطرفان لحظة صامته، كأن العالم نفسه حبس أنفاسه
للحظات وعاد الاشتباك. في وسط تلك الفوضى، كانت «الغميصاء» ترسم
دوائر في الهواء، وكل حركة من أصابعها تُطلق شرارة صغيرة تهوي
على الأرض فتشتعل، فيتراجع رجال «تروفانتس» بخطوة ثم يعودون
بأخرى، متمسكين بما تبقى لهم من شجاعة، كانت تتحرك كظل وتحرق
الهواء حولها، وتنفخ دخانًا يجعل المقاتلين يتراجعون مرتجفين. قفز
شاب من الغجر يلوح بخنجره اللامع أمامي وكاد يقتلني فاعترضه والد
«سُبروت» ببلمة صدئة قذفها فطارت في الهواء ورشقت في صدره،
وتلاقت الأعين في لحظة تحمل خوفًا في عين وشجاعة في عين أخرى.
غضبت «الغميصاء» وأقبلت وبسطت كفها ونثرت غبارًا أسود، تذكرت
متاهة المرايا وكيف كانت تخدعني، لكنني لا أستطيع تغطية عيني الآن!
بيد أنني أستطيع ألا أصدق.

نعم لن أصدق ما تفعله ساحرة.

لن أدعها تخدع عقلي أو سمعي أو بصري.

أقبلت عليها وكنت أردد ما سمعته في المتاهة: «لا تصدق كل ما تراه
بعينك!».

صحت بأعلى صوتي وأنا أقترب منها:

- لن تنطلي حيك علي بعد الآن، أعرف كيف تتلاعبين بالخوف، وكيف تصنعين من الوهم حقيقة، ومن الضعيف عبداً وأسيراً لن تخدعيني.

- الخداع الذي تخشاه هو الخداع الذي تعيشه، أنت نفسك لا ترى إلا ما تريد رؤيته، هل تظن أنك جئت لتنقذ أحداً؟ إنك تمضي مباشرة نحو القبر الذي نبشته بيديك.

أقبلت «رُميساء» قائلة:

- لا تقترب منها.

- لماذا أنت هنا؟ ابتعدي!

- انتبه للدائرة التي تقف «الغميصاء» عليها.

أدركت أن «الغميصاء» تستدرجني لأقف حيث تنال مني بسحرها، تراجعت إلى الخلف وكانت «رُميساء» قد اقتربت حيث أقف فرماها أحد الغجر بخنجره في صدرها، ندت منها صيحة خلعت فؤادي فهرولت نحوها وكانت تنث من الألم، عندما اقتربت منها قبل أن تسقط على الأرض رأيتها تنتفض وكأنها صُعقت بتيار كهربائي خفي حين اقتربت، قالت بصوت تخنقه العبرات:

- كل هذا الحزن تحمله؟!

أدركت أنها تشعر بحزن من أمامها ويسري إليها كموجات غير مرئية، بكت بحرقة ودماءها تسيل كما تسيل دموعها ثم تلاشت شيئاً فشيئاً واختفت من أمامي فكذت أصاب بالجنون! دارت «الغميصاء» حولي ولم أنتبه لما تفعله وكانت ترسم دائرة أخرى على الأرض ثم رمثني بعصاتها فأصابتني بصاعقة سرت في جسدي وتسمرت قدمي في الأرض وكنت في ذهول، قالت وهي ترشقني بنظرة قاتمة:

- لقد وقعت في المصيدة!

رفعت يدها فشعرت أنَّ يدًا من حديد تقبض على حنجرتي فتوقفت
لهاسي، رحت أردد في عقلي أنَّ هذا وهم والسحر خدعة، ذكرت الله
جوارحي وقوادي فاستطعت أن أتنفّس وعندما تحرر لساني تلوت آية
ن القرآن فبدأت تتراجع للخلف، أكملت التلاوة رافعًا صوتي، تكسّر
ورد وجهها كزجاج رقيق، غرقت عيناها في الظلام وتحولتا إلى ثقبين
نائرين، ذبلت شفتاها حتى صارتا خطين متعرجين، تجعدّ جلدها
كورقة شجرة احترقت أطرافها، انحنى ظهرها فجأة، وتحولت قامتها
من وقفة ملكة إلى انكماش عجوز تحمل على كتفها ثقل مئة عام، قبل
أن تتلاشى بين الدخان، همست بصوت خافت كخدش على الحجر:

- بعض اللعنات تبقى بعد اختفائنا.

ابتلعها الدخان، ثمّ انبثقت «العنقاء» من حيث اختفت «رُميساء»،
وطافت بالوادي وهي تطلق اللهب من تحت جناحها فيشعل النار في
الفجر وخيامهم وعرباتهم التي كانت قرب سفوح الجبال، لم تُبق منهم
أحدًا، تعالت صيحات الفرح وكان رجال ونساء «تروفانتس» جميعًا
يحتفلون، أقبلت «العنقاء» ووقفت على كتفي ولم تُفارقني منذ تلك
اللحظة، وكنت أتعجل اختفاءها لتظهر «رُميساء» من جديد، لكنها لم
تعد!

كانت دماؤها لا تزال على يديّ، وصوتها وهي تنئن من الألم يملأ
أذنيّ، والخوف عليها يعصر قلبي عصرًا.

بزغ الفجر ببطء وكأنّ خيطه الرفيع سيف يشقّ صدر الظلام، لم
ترحل «العنقاء» وكانت تلازمي وكأنها تحرسني، نظرت إلى عينيها
فوجدتهما لامعتين كجمر مطفأ يحتفظ بآخر أسرارها، تحدّقان إلى

وجهي بنصف وضوح ونصف ظل، كأنهما تريان ما لا يراه البشر
وتُخفيان أكثر مما تُظهران، سألتها:

- هل أنت «رُميساء»؟

مسحت على ريشها اللامع كلمعان المرايا عندما تغتسل بالضوء،
ولمست الوهج الذهبي على أطرافه وكأنه شفق لا ينطفئ، وعدت أسألها:

- أين ذهبت «رُميساء»؟ خذيني إليها!

كانت كل ريشة فيها تبدو حية، نابضة بحرارة خفية، وكأنها تحفظ
ذاكرة كل ولادة عاشتها تلك «العنقاء» الأسطورية وهي تخرج من دموع
«رُميساء» التي تتركها في كل مرة قبل أن تختفي. طاف أبناء «لاش»
بأجنحتهم لينحثوا عن «رُميساء» وكانت تلك هي المرة الأولى التي
يبحثون عنها فيها، فلم يهتم أحد بها من قبل بسبب بكائها المستمر،
كانت تحمل الحزن عنهم في قلبها وتبكي لحالهم حتى تذوب من البكاء.
هكذا بعض البشر، أرواحهم كصفحة الماء النقية ترتعش بلمسة
خفيفة فتصنع أمواجًا من المشاعر، لديهم قلوب تلملم التفاصيل
الصغيرة، ينصتون فيدركون ما لا يُقال باللسان، أو قد يقرؤون العيون
وحسب، يخترقون ضباب الصمت السميك بخفة الفراشات، فيهم شيء
من براءة الأطفال يصدقون النور ويرون ما يعجز الآخرون عن رؤيته،
يحملون هموم الآخرين على أكتافهم ويمضون بها بعيدًا ويذوبون من
كثرة البكاء.

كنت أشعر أنني مطعون في فؤادي، جرح قلبي مفتوح وينتظر
الدواء.

عاد أبناء «لاش» من طوافهم ليخبرونا أن البحيرات الوردية قد
ظهرت وهذا يعني أن مدينة «تروفانتس» ما عادت محجوبة عنهم، قاموا
ليتجهزوا للرحيل وبقيت أنا غارقًا في حيرتي، كنت أخشى أن نرحل

جيبًا فتظهر «رُميساء» وحدها هنا لا تزال «العنقاء» ترافقني، قررت
أن أزود «زهيرًا» لأخبره بما حدث، وكنت قد وعدته ألا أخبر أحدًا بأمر
الجزيرة وزواجه بـ «القيثارة» حتى يخبرهم بنفسه، فتسللت ودفعت
القارب نحو الماء، و«العنقاء» تُحلق فوق رأسي، لاحقتني «جوجو»
وسألتني:

- إلى أين تذهب؟

- للبحث عن «زهير».

- أشعر أنك تخفي سرًا يخصه.

لزمت الصمت فأدركت بذكائها أن الأمر أكبر من أن أبوح به فقالت
بثبات:

- سأرافقك.

- لا! البحر خطر وقد تظهر المسوخ التي ظهرت لنا.

- أنسيت أنني ابنة البحر!

صمتت هنيهة وأضافت في رجاء:

- لا تتركني وحيدة بينهم.

- سأتركك في أمانة الشيخ «عثمان» والسيدة «وطفاء».

- لا أريد، أنا لا أعرف أحدًا هنا.

تلاقت نظراتنا: أدركت أنها لن تتراجع فصحبتهـا معي.



المتاهة الثالثة

كنت في القارب مع «جوجو»، بدأت أجذف حتى أحاطنا الضباب من كل صوب، تركت المجداف وضربت على القارب من الخارج، وسريعاً ما أقبلت الحوريات الثلاث فأجفلت «جوجو»، حاولت أن أحدثهن لأطمئنهن وكانت تتعلق بذراعي وترتجف، مكثنا نحو ساعة حتى هدأت مخاوفها وسكنت، حملتنا «ميراندا» معنا فقد رفضت «جوجو» أن تحملها وحدها، وعندما وصلنا إلى شاطئ الجزيرة رأيت «العنقاء» تطوف فوقنا، أدركت أنها لا تزال تتبعني فخطفت قلبي معها، سرت نحو بيت «مينغ دي» فاستقبلنا بترحاب شديد، وبشرني أن «القيثارة» أنجبت ذكراً وأسماه أبوه «سهيلاً» على اسم عمه، أرسل رجلاً ليستدعيه إلى المجلس فطال غيابه وعندما عاد كان معه العديد من رفاقه، أخبرونا أن «زهيرا» وزوجته وابنه اختفوا من جزيرة «هاينان»، وأن النساء يقلن إنهن رأين أحجار «تروفانتس» تحيط بالثلاثة وتدور حتى اختفوا أمام أعينهن، جلسنا وكان الطير على رؤوسنا، طلب مني «مينغ دي» أن أحكي له كل شيء مررت به من البداية، أنصت إليّ بتركيز شديد وكان يهتم بأدق

النفاصيل، وعندما أخبرته عن التنين على جبينني أجفل ووثب في مكانه
وكأنه سمع خبراً مفاجئاً.

همس بشيء لرفاقه فأقبلوا في اهتمام وجلبوا محبرة وريشة وأوراقاً
وطلب مني «مينغ دي» أن أرسم التنين، فبدأت أرسم التنين من ذاكرتي
نحن في أول النهار ولن يظهر على جبينني لأراه في مرآة، وكلما
رسمت خطأ على الورقة كان يظهر لهم خطأ مطابق له على جبينني!
نكاثفوا حولي وطفقوا يحدقون تجاهي ويتبادلون النظرات، كنت أرسم
بجبر أسود بينما يظهر لهم التنين على جبينني بلون ذهبي، هكذا قالت
«جوجو»!

عندما انتهيت قال «مينغ دي» وهو يعقد حاجبيه:

- أظنك نسيت شيئاً!

- لا. رسمت كل شيء.

- أرجوك حاول أن تتذكر!

أقبلت «جوجو» وتفحصت ما رسمته وقالت:

- نسيت أن ترسم أرجله القصيرة الأربع.

كان هناك أربع أرجل قصيرة بالفعل، أكملت الرسم وهنا ضج المكان
بصياحهم، فقد تحرك التنين على جبينني!

قال «مينغ دي»:

- «شوان لونغ»!

- ماذا؟

- تنين صيني عظيم يعيش في البحار، لدينا في تراثنا الكثير من
القصص عنه، ظهر مرتين حول جزيرتنا هنا ليصد عنا بعض
الاعاصير، وكان يدور حول نفسه ثم يختفي.

- لماذا يظهر رمزه على جبيني؟

- هذا لغز عليك حله بنفسك.

أمضينا النهار ونحن نتجول بالجزيرة ورمز التنين يبرق على جبيني والجميع يرونه خلال النهار ويحدّقون تجاهي في استغراب، أما «جوجو» فكانت في غاية الانبهار بما في الجزيرة، وقفت تحت الشلال لكنها لم تر ذكريات سعيدة كما حدث لي. دعانا «مينغ دي» لتناول الطعام فلبينا دعوته، والتقت «جوجو» شقيقته وكنت أراقبهما وهما يتحدثان فغلبني النوم على أثر الإرهاق الشديد، عندما استيقظت كان الليل قد حلّ بالفعل، ألفت «جوجو» تحدّق إلى وجهي فسألته:

- لماذا تحدّقين تجاهي هكذا؟

- أحاول إكمال رسم «شوان لونغ».

- أراك حفظت اسمه.

- نعم، أتدري أنّ كلمة «شوان لونغ» تعني التنين الغامض؟

- كنت على يقين أنّك ستسألين شقيقة «مينغ دي» عن معناه.

ضيق عينيها وقالت وهي تغمس الريشة في قنينة الحبر:

- تنين صيني! لديهم الكثير من القصص والأساطير عنه.

- أخبريني بما عرفته عنه.

- ليس قبل أن أتمّ الرسم، فأنت لم تحسن رسم الحراشف التي

تغطي جسدها ونسيت رسم القرنين!

- أنت أكثر مهارة مني في الرسم يا «جوجو».

تركت الريشة وقالت بصوت يشوبه الحزن:

- «العنقاء» لا تزال بالخارج، متى ستختفي؟

- لا أدري لماذا صارت تُلازميني!

رمشت بعينيها وسألتني:

- هل ماتت «رُميساء»؟

انقبض صدري وشعرت بقلبي يعتصر بين ضلوعي، قلت لها:

- الخنجر أصابها أعلى كتفها جهة اليمين. حمدًا لله أنه لم يُصب قلبها.

- ترى هل ستجد من يُداوي جرحها؟

- نحن لا نعرف أين تذهب فكيف لنا أن نعلم؟

- لعلها عادت إلى بيتها.

- ستكون بخير بإذن الله.

- كيف سنعرف أخبارها؟

- لا أدري.

- هل مللت من أسئلتني؟

- لا يا «جوجو»، لك أن تسأليني كما تحبين ووقتما تشائين.

عندما انتهت من رسم التتين رفعت الورقة بين يديها وكان التتين مرسومًا بكامل تفاصيله بشكل بديع، أثبتت عليها فأشرق وجهها بابتسامة واسعة ورأيت المتاهة على جبينها تدور وتتوهج.

مضت ساعات الليل طويلة وثقيلة، أصابني الأرق ولم أنم إلا بعد بزوغ الفجر، وعندما استيقظت في الصباح فوجئت أن أهل جزيرة «هاينان» جميعًا رأوا حلمًا مشتركًا عني، سألتهم عن تفاصيله في فضول فقال «مينغ دي»:

- «شوان لونغ» سيظهر اليوم.

- اليوم!

- وسيصحبك في رحلة، وعليك أن ترافقه.

١
- وكيف سأرافق تنينًا وأغوص معه في البحر؟ هذا جنون!

- هل أنت خائف؟

- نعم!

- أهذه أكبر مخاوفك؟

- لا أدري!

قال «مينغ دي»، وهو يتفردس في ملامحي:

- الخوف بابٌ مغلق، ولا يُفتح إلا لمن يجرؤ على دفعه.

- حتى لو ارتجفت يداه؟

- الشجاعة أن تُحاول رغم الارتجاف، فلا نجاة لمن يهرب من خوفه؛

فالعبورُ يبدأ حين نواجه الظلال التي تطاردنا.

- وما الذي يطاردني؟

- الخوف الذي يشكُّ، والشكُّ الذي يُطفئ عزيمة، والذاكرة التي

تربطك بما يؤذيك، والصوت الخفي الذي يقول لك إنك لن تستطيع!

- ماذا ستفعل إن كنت مكاني؟

- سأرافق أكبر مخاوفي وأعبر بها كل متاهات الحياة.

صمت لوهلة ثم أضاف:

- تجاهل كل فكرة تجعلك أصغر مما أنت عليه، لتصل إلى نفسك كما

يجب أن تكون، أثق أنك ستستطيع إنقاذ نفسك، فلا نجاة لمدينة

«تروفانتس» إلا بنجاتك!

هاج البحر وتعالَت الأمواج، اجتمع أهل الجزيرة قرب الشاطئ

وأعينهم تراقب البحر وتنتظر ظهور التنين، ولم يدم الانتظار طويلاً فقد

ظهر بالفعل! كدت ألفظ قلبي من فمي!

راجع أهل الجزيرة وابتعدوا وبقيت ساقاي مغروزتين بالأرض!
بت بأعلى صوتي قائلاً:

- أنا خائف!

إنى صوت «جوجو» من خلف ظهري وهي تقترب في حذر وقالت:
- لا تخف.

ثم أردفت بعد صمت حذر وهي تلتصق رأسها بذراعي:
- ذلك التنين يهدأ بالغناء، الكلام الصادق يُطفئ غضبه.

رفعت رأسها نحوي وأضافت:

- لا تسألني كيف أعرف هذا!

- ابتعدي يا «جوجو» فتلك ليست معركتك.

- أخشى أن أفقدك.

- تراجعني!

تبدأت حولنا ومضات ملونة وبدأت تطوف بنا، دارت حولنا في صمت
بديع وكأننا غزلنا معاً في فقاعة، تداخلت الألوان وماهت في بعضها
بهرت من خلالنا، وكلما مر طيف منها كان ينتزع الخوف برفق من
قلبيننا خيطاً بخيوط حتى لم يبق في داخلنا غير سكونٍ صافٍ، كأن
الخوف لم يكن سوى ظلٌ عابر، همست «جوجو» في زهول:

- نُزع الخوف من بين أضلعي!

كان هذا حالها، أما أنا فالخوف والقلق لم يُغادراني بالكامل، بيد أن
جوارحي هدأت واختفى رجيف قلبي وانتظمت دقاته وما عادت يداي
ترتعثان، صرت أكثر ثباتاً وشعرت أن ذهني أصفى من ذي قبل. لا
بأس، العبور يبدأ عندما نتخطى مخاوفنا!

لم يكن التنين كأَيِّ تنين رأيته من قبل في القصص والروايات والأساطير المكتوبة، كان جسده طويلًا ورفيعًا، ينساب به كما تنساب مجرة في ظلمة الكون، رأسه طويل ومهيّب، يحمل سمو الكائنات القديمة، له قرنان منحنيان أشبه بمنحوتتين من العاج، لكنهما يلمعان كأن داخلهما شرارة سماوية، عيناه واسعتان كالمحيط، لونهما فضي مشوب بلون الزعفران، تتحرك داخلهما خيوط رفيعة تشبه عقارب ساعة شفافة، من ينظر إليهما يشعر وكأنه يرى الماضي يتردد بينما الحاضر يذوب فيه.

على جلده قشور تتحرك كما يتحرك سطح الماء، عندما سكن تلالأت باللون الأزرق القمري، وعندما ثار أصبحت ذهبية متوهجة، كأن النار تشتعل تحت جلده، كان يتحرك بخفة ويتلوى بانسياب جميل، وتنشق من جسده الحراشف كشظايا البلور، تشع بضوء خافت كلما هدا، ذيله طويل جدًا، ينتهي بقطعة بلورية شفافة، تتحرك داخلها ذرات مضيئة كحبيبات نور حي.

بدأت «جوجو» تردد مهمات منغمة وتدندن بها بصوت خفيض، كان صوتها ساحرًا مما أذهلني، ثم بدأت تغني له أغنية تعلّمها من صديقتها الجديدة، سكن الموج وبدأ صوتها يُهدئ من ثورة التنين، حتى ذلك الضوء الذي يصدر من صدره انطفأ عندما سمع صوتها المخملي، اقترب التنين منها فوقفت أمامها لأحميها، لكنه أخفض رأسه في خضوع، لم تكن خائفة منه فأدركت أن الخوف نُزع من قلبها بالفعل! حدّثته كأنها عرفت من قبل في زمن آخر، وضعت يدها على رأسه فأغمض عينيه الكبيرتين، قالت لي بصوت هادي:

- اصعد برفق على ظهره، وعدّ سالمًا من أجلي!

عادت «جوجو» إلى الغناء بصوتها الساحر الذي لم أتوقع أن يخرج من حنجرتها، أمسكت بحراشف بارزة على ظهره وقبضت عليها بقوة،

هات إليها مودعاً فتوقفت عن الغناء فجأة، ظلّ التنين ساكنًا للحظات
م انتفض وتلوى وصار يضرب بذيله ويزوم، كدت أفلت يدي حينها
أدبته باسمه:

- «شوان لونغ»^(١) اهدأ.

توقّف عن الحركة وشعرت بحرارة تجتاح جسدي ثم سمعت صوته
ينساب في عقلي.

«شوان لونغ» يريد أن يُعيد الزّمن إلى مجراه في مدينة «تروثانتس»
ويعود إلى شاطئها الذي عاش فيه طويلًا، لكنّه يخشى ولوج المتاهة
التي ستعيده إلى هناك، يخشى الضياع في حلقات الزمان غير المنتهية
للأبد، الآن يطلب المساعدة، يريد أن يُساعده أحدهم، الآن سلّم رأسه لي،
سندخل المتاهة!

رفع «شوان لونغ» رأسه في الهواء ورفعني معه فرأيت الجزيرة من
أعلى فشعرت برهبة شديدة، انحنى فأدركت أنّه سيغوص بي في الماء،
تنفّست بعمق وحبست أنفاسي قبل أن يغطس بقوة في الأعماق، انطلق
يمخر بي عباب بحر «قاغ» وكان يصعد إلى السطح ليمنحني الفرصة
لأنفّس وكأنّه يشعر بضيق أنفاسي، ابتعدنا عن كلّ شيء وبقيت أنا
وهو والبحر، شعرت للحظة أننا اتحدنا وقلباننا ينبضان بالوتيرة نفسها،
بدأ البحر يهيج وارتفع موجه فجأة وشكل ستارًا أمامنا، انبثقت من بين
تيارات الماء فجوة عملاقة أدركت أنّها بوابة المتاهة، قفز «شوان لونغ»
من خلالها وظهرت الممرّات أمامي، ضمّ أرجله وبدأ ينساب بجسده،
كنت أوجهه عن طريق جذب الحراشف يمينًا أو يسارًا وكان يُطيعني،
عندما كنّا نصل إلى ممرّ مغلق كان يرفع رأسه وينطوي على نفسه لنعود

(١) «شوان لونغ» كلمة صينية تعني «التنين الغامض».

شوان تعني الغامض.

لونغ تعني التنين.

من جديد، ظل صامتاً ولم يصدر كريزاً أو أنيناً وكأنه يقرأ أفكاره، بدأت بعض الممرات تنغلق، لا مجال للعودة، الوقت يمضي بجنون، ما مرُّن يعود أبداً، كل دقيقة أضعتها لن نعود إليها مرة أخرى، الدوران في تلك المتاهة يشبه أيام عمري! تعبت وتعب «شوان لونغ» وبدأت حركته تتباطأ، فجأة رأى ذيله أمامه وبدأت المتاهة تضيق وتتقلص... يا إلهي! كاد يبتلع ذيله! ارتج رأسه حينها وهمست قائلاً عندما تذكرت شعار القنين الذي يأكل ذيله: «أوروبوروس»^(١)!

تذكرت المتاهة على جبين «جوجو» وكيف حللناها معاً، علي أن أبحث عن الجهة الأضعف التي اتفقنا أنها ستكون سبيل النجاة إن أردنا هدمها، كان علينا أن ندور مرة أخرى وكانت كل دورة تصعب عمّا قبلها، فكل شيء يضيق حولنا ويقترب منّا، أغمضت عيني وتخيلت وجه «جوجو» ثم جبينها، ثم تفاصيل المتاهة، استحضرته كل جدار فيها وكل انحناء، استطعت تحديد الجهات الأربع، وكانت دورتنا الأخيرة هي الأصعب حتى وصلنا إلى الجدار المقصود فقلت له هامساً:

- الآن يا «شوان لونغ» اضرب برأسك ذاك الجدار.

لم يستطع تحريك رأسه فصحت أتعجله وكنت أضرب الجدار بقبضتي وأقول:

- هنا، اضرب هنا!

ربض للحظات ظننت فيها أنني هلكت معه، ثم انتفض فجأة وأخذ يضرب الجدار برأسه، ظهرت الشقوق لآياً فلآياً وتسالت خيوط النور الذهبية، وبعد مشقة شديدة تحطم الجدار وانساب بجسده خارجاً من

(١) الأوروبوروس هو رمز قديم يصور ثعباناً أو تنيناً يأكل ذيله في دائرة، وهو يمثل مفاهيم مثل التجديد ودورة الحياة والموت. نشأ هذا الرمز في مصر القديمة قبل أن ينتقل إلى التقاليد اليونانية حيث كانوا يعبرون به عن اللانهاية والخلود حسب مفاهيمهم.

نلاله وحملتنا الأمواج بعيدًا عن المتاهة التي ابتلعها الضباب واختفت
نالفنا، كنت متعبًا للغاية وبدأ جسدي يخونني وانزلقت إلى الماء
سقطت فيه، أدركت حينها أنني هالك لا محالة.

فتحت عيني فرأيت خيالًا لرأسين، لم أتبين ملامحهما لكنني تعرّفت
على صوته وهو يناديني:

- «ممدوح، أيها الخائن! كيف تتركني هنا وحدي؟

مرّت لحظات كنت فيها على شقّ الوعي أسمعهما ولا أملك أن أجيبهما،
رفع أحدهما رأسي وسقاني شيئًا وظلّت الأصوات تتردد حول رأسي حتى
ارتوى عقلي وتنبّهت لما حولي فرأيت «مازنًا» يجلس بجواري وفور أن
تلاقت عيناى وعيناها ابتسم وعانقني، كانوا جميعًا هناك، «السّمهري»،
و«سُهيل» وعائلته، ولمحت من بعيد «زهيرًا» و«القيثارة» وهي تحمل
ابنها فأدركت أنّ أحجار «تروقانتس» أعادتهم إلى المدينة.

استدرت نحو بحر «قاغ» فرأيت التنين رابضًا هناك وأهل مدينة
«تروقانتس» يملّسون على جلده بينما يُحرّك ذيله سعيدًا بعودته، سألت
«سُهيلًا» و«السّمهري» وأنا أراهما وقومهما لا يخافون التنين:

- لماذا لم تُخبراني عن ذلك التنين؟

- أيّ تنين؟

- هذا! ألم أخبركما أنّ هناك رمزًا على جبيني لتنين؟

هزّ «سُهيل» كتفيه قائلاً:

- ليس له جناحان ولا يُطلق من فمه النار! كيف تصفه بهذا؟

- وماذا تسمونه إذا؟

أجاباني في آنٍ واحد:

- «قاغ»!

- يا إلهي! تلك المدينة ستصيبني بالجنون!

علمت منهم أن «فاغ» كان يعيش في البحر هنا منذ سنين طويلة،
وكان يعدد جسده ليحمي الشواطئ من الإعصار المدمر الذي يحدث من
آن لآخر ويأكل من أطراف شواطئ «تروفانتس» الشماليّة.

لاحت قافلة المبعدين من أهل «تروفانتس» الذين كانوا يسكنون وادي
«لاش»، وكان أبناء «لاش» يحلقون بأجنحتهم وقد بدا أن ظهور الأجنحة
لم يعد منوطاً بالوادي، ضجّ المكان بصيحات السعادة واختلطت
بالدموع، همس «مازن» قائلاً:

- خشيت ألا تعود!

- وها قد عدت أيها المشاكس.

- كيف كانت المتاهة؟

- معقدة! اصطدمت بالجدار لأكسره وأخرج.

- وددت لو كنت مثلك يا «ممدوح»، لا تجزع سريعاً ولا يردك
الخوف، تعرف متى تتقدم ومتى تتأخر.

- لا تُبالغ فقد كنت خائفاً يا «مازن»!

- أعرف، لكنك واسع الاحتمال، تتسع للمتغيرات دون أن تفقد
تركيزك، والخوف يمرُّ بك كفكرة عابرة لا كإنذار.

- كان أبي يكرر على مسامعي دائماً أن الشجاعة ليست في انعدام
الخوف، بل اختيارك أن تمضي رغم الخوف.

شغلنا بمن حولنا لدقائق وجلسنا نتأملهم ونراقبهم في صمت. سألته
في فضول:

- كيف هو الفيل؟

- بخير.

عاد إلى مزاحه الذي أحبه، كنت أعلم أنه يُخفي توتره وارتبأكه خلف هذا القناع اللطيف، وهذا يريح نفسه ويخفف من الضغط، جلست ساكنًا بجواره، وكنت أتفكر في كل ما مررت به، ولا يزال قلبي يعتصر بسبب عدم عودة «رُميساء»، ظهرت «العنقاء» وأطلقت صيحة وهي تُحلق في سماء «تروفانتس» وبسطت جناحيها البديعين فوقوا جميعًا يراقبونها في اندهاش.

اقترب «زهير» وعانقني، انتبهت للتو لوجهه المليء بالندبات، كانت عينه اليسرى متورمة وهناك جرح قاطع في كتفه، وآخر على عنقه فسألته عما حدث فقال:

- بعد ولادة «القيثارة» أعادتنا أحجار «تروفانتس» إلى هنا، شاع الخبر في المدينة وتوافد الناس على بيت أبي فقد كنت بين أفراد عائلتي، وعندما حلَّ الليل داهمنا «ظليم» وهو يحمل سلاحه وينوي الشر، انتزع ولدي من حضن أمه وهددها به لتخرج معه، كاد يقتلني لولا ظهور «سهيل» من خلفه، جرّده من سلاحه فألقيت بنفسي عليه ودار بيننا صراع شديد أنهيته بغرز خنجري في قلبه!

- وماذا عن جماعته وعصبته؟ أخبرني «سهيل» أنكم لا تأمنون مكرهم.

- أوكل الأمير «السُمهري» أمرهم إلى جنوده.

- حمدًا لله أن صغيرك وأمّه بخير، أثق أنك قد أطلقت عليه اسمًا مميزًا.

- «سهيل»!

أطل «سهيل» من فوق كتف أخيه وقال:

- أرايت؟ أخي يحبني كما يُحبك أخوك، ألم يطلق على ولده الأكبر «ممدوحًا»؟

- بلى.

طاقت بي السعادة عندما تذكرت ذلك، وازداد حنيني لأخي.

قررت أن أبيت في الوادي مع «مازن» لعل «رُميساء» تعود، بعض الخيام لا تزال موجودة وهناك بقايا طعام وبثر الماء التي حفروها هناك، حتى إنني رأيت الكثير من الشعل لا تزال موقدة، أشعلت نارًا لتدفئتنا وجلست أتسامر معه، قال وهو يُحدِّق إلى النار:

- عجيب أمر «جوجو» التي لفظها بحر «قاغ»؟ أم قد نجت من غرق قارب أو سفينة؟

- هي حتى لا تتذكر اسم والديها، ولا أعرف إن كانا على قيد الحياة أم لا.

- أتظن أنهما قد غرقا بالفعل في البحر؟

- الله وحده يعلم.

أطرق مفكرًا ثم قال بروح من أفاق من غيبوبة طويلة:

- وأنا لا أذكر إن كان لي أشقاء أم لا أليس غريبًا؟

- بلى!

- أخشى أنني صرت أنسى بعض الأشياء وكأن ذاكرتي تتحلل، أتظن

أن هذا بسبب ما تخلّيت عنه من ذكريات في «سوق الخواطر»؟

- أنت بخير يا «مازن»، دعك من التشكك والوسوسة.

سألني في فضول:

- هل نسيت أي شيء عن ماضيك؟

- لا أظنني نسيت أي شيء.

تأمل الجبال والليل يلفها في مهابة وقال:

- جبال «لاش» تبدو فاتنة في جنح الليل، أرايت كيف تحتضن
الوادي هنا من كل صوب؟

- لعلك تشتاق إلى ممارسة هوايتك في تسلُّق الجبال.

- بل أرغب في زيارة «البحيرات الوردية»، علينا أن نذهب إليها غدًا،
أريد أن أرى كلَّ شيء هنا، ولنتسلَّق الجبال معًا في وقت لاحق.

- ألم تتعلَّم درسًا من رحلتك إلى جبل «أم شومر»؟ كدت تفقد حياتك
يا فتى!

- لقد بعث ألام تلك الليلة في «سوق الخواطر»!

- يا إلهي! لقد غرقت في عالم «تروقاتنس» يا «مازن»، أرجو أن
تظهر «رُميساء» لنرجل سريعًا من هنا قبل أن تفقد عقلك.

شرد وهو يعبث بالزُّمال حتى ظننت أنه على شقِّ الوسن، لكنه سألني
نجاة:

- أليس غريبًا ما يحدث لتلك الفتاة؟ تبكي فتذوب كما يذوب الملح
في الماء! وتتفتت وتتلاشى، لا ريب أنها من الجنِّ.

- ليست من الجنِّ.

- وما أدراك؟

- هي مثلنا لكنَّ ما يحدث لها غريب كغرابة ما حدث لك عندما تغيَّر
لونك، وغرابة البحر الذي لفظ «جوجو»، وغرابة القطار الذي أتيت
به، وغرابة كلِّ شيء هنا.

- أراك قد تعلَّقت بتلك الفتاة يا صاح.

- ربُّما.

- أهو الحبُّ؟

- لعلّه تعلّق أو إعجاب، فأنا أومن أنّ الحب ليس مجرد ومضة تضرب
الفؤاد من أوّل نظرة وحسب، بل هو بناء يحتاج إلى الكثير من
التفكير والتعامل والحوارات، أنا أعمل عقلي كثيرًا وأحل كل كلمة
ينطق بها من أمامي لأقرأه، وهكذا فعلت في كل مرة تبادلنا فيها
الحوار، حتى التفاتتها وصمتها كنت أحسب له الحساب. لكنني لا
أخفي عليك، فمنذ أن اختفت وأنا أشعر أنّ أحدهم اقتلع قلبي من
بين ضلوعي ومضى به.

- هوّن على نفسك يا «ممدوح»! لست مسؤولاً عن كل ما يحدث هنا!
حدّق تجاهي وصاح قائلاً:

- أذناك!

- تتنمر عليّ يا «مازن»!

- احمرّت أذناك من الخجل! أنت تُحبّها يا «ممدوح».

قهقه «مازن» ضاحكًا وشاركته حفلته، لاحت لنا أضواء في السماء
فوثب قائلاً:

- شهب الجوزائيات!

- وكأنّها مطر من نورا!

- انظر كيف تتسابق وتلاحق بعضها وكأنّه احتفال!

أرسلت الشهب أضواء خلابة فبدت السماء أعمق، والنجوم أقرب،
والليل أصفى من الخيال، تمددنا وأسندنا رأسينا على راحات كفوفنا
ونحن نتأملها، بقينا ساكنين وكأننا مسحوران، وشيئًا فشيئًا أخذ النوم
بمعاهد أجفاننا.



@ART_OF_BOOK

١٤

المتاهة الرابعة

شقُّ الفجرُ صدر الليل فسالت الأنوار من جرحه وبللت السماء، لم تظهر «رُميساء» وكانت «العنقاء» لا تزال تُحلق في الهواء، وهذا يعني أنها لم تظهر في أيِّ مكان آخر، أيقظت «مازنًا» وسرنا نحو «البحيرات الوردية»، فكلانا يتوق لرؤيتها. نثرت الشمس دنانيرها الذهبية على الطريق، وصلنا سريعًا لأنها تقع على مقربة منَّا، رأيتُ البحيرات الوردية تمتد كزهور سائلة، كأنها حلم ذائب يتدرج لونه بين خجل الفجر وحنين الغروب، يُخال إليك أنها تحتفظ في أعماقها بأسرار الحبِّ وذكريات الحالمين، ألفتُ ماءها ساكنًا وكأنَّ الريح تخشى أن تُربك هذا السكون الساحر، خطوط الشمس الذهبية كانت ترقص على سطحها وكأنَّها نسيج من حرير. هرول «مازن» نحوها وخلع حذاءه وتوغَّل في الماء، صاح بحماس طفولي:

- لون الماء كلون الحلوى!

ثمَّ عقد حاجبيه وقال بجدية:

- «بيتا كاروتين»^(١).

(١) بيتا كاروتين صبغة حمراء تتراكم في مياه البحيرات فتجعل لونها ورديًا، وذلك نتيجة لنشاط بعض أنواع الطحالب والبكتيريا مع ارتفاع نسبة الأملاح في الماء.

- الآن عادت إليك روح الجيولوجي الماهر، ليتنا نرحل سريعًا قبل أن تفسد «تروفانتس» عبقريتك العلمية.

خرج من الماء ووقف يتأمل البحيرات بجملة النظر من بعيد وقال:

- «تروفانتس» مدينة السحر والجمال.

- هل أحببت المكان؟

- وددت لو أن لي بيتًا هنا أزوره كلما تضيق بي الحياة.

اهتز ماء البحيرة فجأة وكأنه أفاق من سبات عميق ثم دار في دوّامات، خرجت من رحم الماء فتاة كانت تقف شامخة كجبل أيهم، تحفُّ بها هالة وردية تتماوج حولها، ثوبها الطويل المنسدل لم يكن قماشًا بل تيارًا حيًّا من الماء، يتحرك انسجامًا مع أنفاسها، بينما تلتف حول رأسها عمامة من اللون ذاته، طبقاتٌ دقيقة تحيط بوجه صارم الملامح تزيد من غموضها، عيناها تعكسان قوة أنثى اعتادت أن تُسمع العالم أمرها في قوة لا همسها في خضوع، في يدها اليمنى عصا طويلة من الخيزران المصقول تلمع بنبض خافت، كأنها تحفظ في جوفها شرارة قديمة لا يجرؤ الزمن على إطفائها، هدرت غاضبة:

- ابتعدا عن بحيرتي.

تراجعنا إلى الخلف وأصابنا اضطراب شديد، أدركنا أنها من الجن الذين يسكنون قاع البحيرات، التفت «مازن» نحوي وقال في ذهول:

- لنبتعد.

اقتربت من «مازن» وتراجعنا معًا للخلف فخرجت الفتاة من الماء وتبعتنا وهي تقول:

- لستما من أرضنا!

قال «مازن»:

- اتركينا وسنرحل في سلام.

- انتظرا!

كانت كل حركة من حركاتها تُثير حولها دوامة من الضوء تنزلق بخفة
نُزك النظر، كما لو أن الهواء نفسه هو الذي يحملها، توقفنا فقالت:

- فيم أتيتما؟

قال «مازن»:

- وددنا رؤية البحيرات الوردية وحسب.

- من منكما المسافر؟

همس «مازن» وهو يشير نحوي:

- هو المسافر على متن القطار.

دنت مني وقالت:

- علي أن أسلمك مفاتيح الأبواب.

- أي أبواب؟

- الأبواب التي لا تُنسى.

رفعت يديها في الهواء فسقطت أمامي مفاتيح مجموعة في سلسلة
ذهبية، التقطت المفاتيح ووقفت أفحصها مع «مازن»، كانت المفاتيح
تحمل نقوشاً دقيقة، بعضها يشبه كتابات قديمة، وبعضها رسوم غريبة،
وكانت تصدر أصواتاً كالهمس، قالت الفتاة:

- كلُّ مفتاحٍ لا يفتح باباً فقط، بل يشقُّ للروحِ أفاقاً لم تكن تُدرِكها،
مساراً جديداً في حناياك.

تأملت المفاتيح فأدهشتني تفاصيلها، لم تكن تلك مفاتيح بالمعنى
المألوف، بل قطعاً مدهشة كل واحدة منها تختلف عن القطع الأخرى،
سألتها:

- من تركها لي؟

- متروكة لكل مسافر! وعندما تنتهي أعدها إلى أمانتي هنا.
- من صنعها؟
- الذين دخلوا الأبواب في المرة الأولى، فهم وحدهم يعرفون ما ستفتحه وما ستغلقه قبل أن تتلقفها أياديكم، كل مفتاح له صانع. أمسكت بأولها وكان رقيقًا كالورقة، يُصدر عند لمسه طنينًا خفيفًا يشبه نبضًا خفيًا، قالت وهي تشير إليه:
- احذر أن تكسره.
- المفتاح الثاني كان مُعقدًا تتداخل أسنانه في منحنيات لا يمكن لعقل عادي أن يفهمها، قلت وأنا أتأملُه:
- ذلك المفتاح في ذاته لغز!
- يفتح أعظم الأبواب.
- المفتاح الذي يليه كان ينبض وتتبدل ألوانه باستمرار، وكان هناك مفتاح من خشب، وآخر صغير جدًا لكنه يُشعُّ بلمعة خافتة، قال «مازن»:
- وكأن شيئًا فيه يستيقظ!
- أما المفتاح الأغرب، فكان ذا سنٍّ مكسورة فقلت لها:
- ذاك مكسور!
- السنُّ مخفية عن الذين لم يعرفوا الحقيقة.
- رمتني بنظرة غامضة وقالت:
- لا تضيع مفاتيحك، ولا تصدق الكذاب!
- طارت تجاه البحيرة وغاصت فيها حتى تلاشت وماهت في مائها الوردِي، همس «مازن» وهو يحدّق إلى الماء:
- اختفت «بيتا».
- لم تذكر اسمها خلال الكلام!

- «بيتا كاروتين».
- أتمزح الآن؟
- هكذا أكون عندما أخاف!
- ترى من تقصد بالكذاب؟
- ربّما سنلتقي ع قريبًا آخر يخرج من الماء! ثم أين الأبواب التي علينا فتحها؟
- أخشى أنني سأخوض هذا الدرب وحدي، فإن اختفيت عليك أن تعود إلى «تروفانتس»، ولا تبَق وحدك هنا بالوادي.
- لا تخفني يا «ممدوح» وهيا لنسرع ونعود إلى «تروفانتس» قبل أن يُفرّق بيننا.
- علقت سلسلة المفاتيح على صدري ومضيت مبتعدًا عن البحيرة مع «مازن»، وكان على الجانبين بحيرتان غيرها بينما البحيرات الثلاث الباقيات الأكبر على مسافة أبعد. كدنا نخرج من أرض «البحيرات الوردية» ومعنا المفاتيح لولا خروج رجل من بين ذرات الرمل كما تخرج الأسطورة من طيأت الزّمان، مهيبًا في ثوبه الترابي وعباءته تتفتت حوله كغبار حيّ، كأنه ابن العاصفة، قال بصوت جهوري:
- لن تخرجنا من أرضنا إلا بعد فتح الأبواب.
- من أنت؟
- «سراج الرّمال».
- قلت وعيناي معلّقتان بوجهه:
- لا أرى أبوابًا لأفتحها!
- رفع عصاه الخشبية ثمّ ضرب الأرض فارتجّت بقوة وزُلزلت وكانت حبّات الرّمال تتهاوى تحتنا، كدت أسقط فانتشلني «مازن» ووقفنا على أرض صلبة بدأت تنخفض بنا بينما جدران صخرية تتعالى من كلِّ

جهة، وفي غضون دقائق صُنِعت حولنا متاهات عظيمة، قال «سراج الرمال» وهو يُشير إلينا بعصاه:

- الدروب تدور حول البحيرات، سيتساقط الماء لآيًا فلايًا وإن لم تغلق في فتح الأبواب بين الممرات ليمرّ ماء البحيرات سينهال عليك بأكمله وستغرق أنت وصاحبك.

قال «مازن» بصوت يرتعش:

- أرايت؟ قال ستغرق أنت وصاحبك! لقد هلكنا يا صاح! همست لأطمئنه:

- لا بأس، سنخوض تلك المتاهة معًا.

عُدت أسأل «سراج الرمال»:

- كم عدد الأبواب؟

- أنت وحدك تعلم.

- لا أعرف شيئًا. أخبرني وحسب.

- أخبرتك بالفعل، أنت وحدك تعرف عدد الأبواب، المتاهة باتساع نفسك.

- ليس لدي غير ستة مفاتيح، ماذا لو كان عدد الأبواب أكبر؟

عقد ذراعيه ورشقني بنظرة قاتمة وقال:

- بعض الأبواب لن تحتاج إلى مفاتيح.

قال جملة الأخيرة وهو يبتعد ومع كل خطوة كان يمتزج بالأرض نفسها، فيبدو نصفه رجلًا ونصفه ذرات رمال تطير في الهواء، والريح تدور حوله، تنتزع من عباءته ذرات فتختلط بالهواء ثم تحلّل ببطء واختفى من أمام أعيننا، كان «مازن» لا يزال يقبض على ذراعي بقوة، أطلقها واقترب من الرمال وطفق يعبث بها بحذائه وقال:

- سَرَّاجُ الرُّمَالِ جُنُّ أَرْضِي، وَ«بَيْتَا» مِنْ جُنِّ الْمَاءِ!
سمعنا صوت انشقاق الجدار فارتعبنا، ثُمَّ تسَلَّ ماء البحيرة الوردِيُّ
نحت أقدامنا، فركضت أنا ومازن في دروب تلك المتاهات لعلَّنا نعثر
على أول الأبواب.

الباب الأول

كانت الممرات ضيقة ودافئة وكأنَّ هواءها يخرج من صدر شخص
بيكي، تقاربنا وكنا نسير كتفًا بكتف وبسرعة حتى لا يدركنا الوقت، قال
«مازن» في تضرر:

- أين تلك الأبواب اللعينة؟

- اهدأ يا مازن، علينا أن نفكر، قد تكون الأبواب مخفية.

- أو لا يوجد أبواب من الأساس وذلك الرجل كذاب.

- ألم يخطر ببالك أن يكون كلاهما كذابًا؟

توقف عن السير وقال في قلق:

- يا إلهي!

- أعرني عبقريتك الآن وفكر معي، لدينا ستة مفاتيح لأبواب لم تظهر
حتى الآن.

- ربُّما لأننا نبحث عن باب كما نعرفه.

- أصبت، فلنبحث عن أبواب بصور أخرى.

- حجر أو بئر أو جدار أو... هواء!

في تلك اللحظة برز لنا ستار معلق في الهواء، كان رقيقًا كصفحة
كتاب، يهتزُّ بنبض خافت كلما اقتربنا منه، حاولت لمسَه فوجدته هشًّا
وضعيفًا يكاد يتفتت، سألتني «مازن»:

- هذا باب هُش لا يحتاج إلى مفتاح!

- وما أدرك؟

- لن أكذب عيني!

- فلندخله معًا.

أمسكت بيده وحاولنا الولوج فاصطدمنا بحجاب جامد حال بيننا وبين ذلك، وبدأ سريان ماء البحيرة الأولى تحت أرجلنا يزيد، صاح «مازن» في انفعال:

- ماء البحيرة!

كنت أقلب في المفاتيح باحثًا عن مفتاح يناسب هذا الباب، قال «مازن» وهو يشير إليها:

- جرّبها واحدًا تلو الآخر.

حدّقت نحو الباب الشفاف وهو ينساب أمام أعيننا فلم أجد فتحة أدخل فيها المفاتيح، أدرك «مازن» سبب حيرتي فهمس وهو يفتش بعينه عن المكان:

- لا يوجد أي فتحة للمفتاح!

بدأ منسوب المياه الوردية يرتفع، كانت يدي ترتجف وأنا أفتش مع «مازن» عن فتحة بالباب، تذكرت قول فتاة الماء: «كل مفتاح لا يفتح بابًا فقط، بل يشقُّ للروح مسارًا جديدًا في حناياك»، همست لـ «مازن» بينما الماء قد وصل إلى منتصف سوقنا:

- تلك المفاتيح لأبواب أنفسنا.

- هذا ليس وقت الفلسفة.

- أنسيت ما قالته فتاة الماء؟

- إنه يشقُّ للروح مسارات جديدة في حناياك!

أرمأت إليه برأسي موافقًا وقلت:

- هذا الباب يبدو جليًا أنه هش ورقيق وضعيف وما زلنا نقف أمامه

وننتظر أن نفتح بمفتاح. والظاهر لنا أنه لا يُفتح بمفتاح!

- ألم أخبرك بهذا؟ هذا الباب ليس له مفتاح كما قال «سراج الرمال».

- لا تُصدِّقه، لا يُخلق باب عبثًا، فحيث تقوم الأبواب تولد المفاتيح

ولو في العتمة، وأظنه الكذاب الذي حذرتنا منه فتاة الماء.

أشرت إلى الستار المُسدل في الهواء وقلت له:

- نراه بابًا ككل الأبواب التي ندير مقابضها، ونخاله في أذهاننا بابًا

منيعة وقويًا على الرغم من أننا نراه بأعيننا غير ذلك، والحقيقة أنه

هش ورقيق وضعيف وسيتفتت في ثوانٍ.

- وماذا بعد؟

- هو باب ولكنه ليس بباب.

في تلك اللحظة ظهر مكان المفتاح على الباب وبقي أن نجرب

المفاتيح الستة لنفتحه، وكان الماء قد غمر نصفينا السفليين بالكامل،

نبض المفتاح الرقيق بين أصابعي، وبدأ يُصدر طنينًا خفيفًا، أمسكته

بحرص لأدخله، همس «مازن» بخفوت:

- برفق أرجوك!

كدت أدخله بالفعل، في تلك اللحظة برزت فتاة الماء من جديد

وهمست قائلة:

- توقف!

- لماذا؟ الماء وصل إلى صدورنا.

- لو أدركته سينكسر وستغرقان.

- وماذا أفعل الآن؟

- ضعه في مكانه واتركه ولا تمسه أو تدره وسينفتح الباب وحده.
- فعلت كما قالت ففُتح الباب وتراجع الماء شيئًا فشيئًا، قالت هامة:
- هذا باب الحقيقة.
- لكنّه باب هُش!
- الهشاشة ليست فيها، بل فيمن يراها ويخشى القرب منها، ليس لأنها قابلة للكسر، بل لأنها قادرة على الكسر.
- تكسر الأوهام، أليس كذلك؟
- وتكسر الذكريات التي تنهش عقلك، والندم الذي يقات على نفسك.
- شعرت أنّها تعرف سبب حزني، وكيف ألوم نفسي على موت والدي، وأنني على الرغم من معرفتي لحقيقة أنني لم أخطئ فأنا لا أنفك أعاتب نفسي لأنني كنت أقود السيارة بهما. قالت قبل أن تختفي:
- الآن سامضي، لو علم قومي أنني أساعدكما سيعاقبونني.
- اختفت فقال «مازن» بسخرية:
- هذا جيّد. العفريّة تُساعدنا! وتتفلسف أيضًا!
- ظهرت أمامه فجأة فامتقع وجهه، رمته بنظرة حادة وسأله:
- أهذا مدح أم ذم؟
- ألسن عفريته؟
- بلى!
- هو مدح إذا!
- رمته بنظرة ارتياب ومضت، وأكملنا طريقنا بحثًا عن الباب التالي.

الباب الثاني

نخطينا باب الحقيقة الذي فتحناه وفوجئنا بالكثير من الممرات
امامنا، قلت في ذهول:

- لو دخلناها واحدًا تلو الآخر فسيضيع الوقت، نحن هالكون لا
محالة.

كرر «مازن» مقولة فتاة الماء وكان يوقع كل كلمة يرددها:

- كل مفتاح لا يفتح بابًا فقط، بل يشق للروح مسارًا جديدًا في
حناياك.

- أجل.

- ما هذا الباب إذا؟ الضياع؟ أم التشتت؟

كان هناك ممر يجذبني كالمغناطيس، تركت «مازنًا» ودخلته وكان
هناك من يُسيرني، ثم وجدتني أردد أفكاري بصوت عال:

- علينا أن نخرج من تلك المتاهة بسرعة، أخشى ألا أنجح في فتح
الأبواب، سنغرق، لماذا أنا هنا؟ أخشى على «مازن»، أين ذهبت
«رُميساء»، ترى هل أخي يشعر بغيابي؟ هل هو قلق علي؟ ماذا
لو كنت أحلم؟ كيف سأعود إلى البيت؟ هل أنا في غيبوبة وتلك
هي الأحداث التي تدور في رأسي؟ أم قد مت بالفعل وتلك حياة
أخرى؟ لا بد أن أذهب لإحضار «جوجو» من جزيرة «هانيان»، لا
ريب أنها خائفة!

قاطعني «مازن» قائلاً:

- ما بك! لماذا تتحدث بتلك الطريقة؟

- الآن يسألني ما بي وأنا لا أعرف لماذا أردد أفكاري بهذا الشكل
المفضوح، أين الباب؟ لا بد أن أسرع! المفاتيح غريبة!



لاحقني «مازن» وكان يحاول تهدئتي لكنني لم أتوقف عن الكلام
وكان هذا رغمًا عني، وسط زحام الكلمات قال «مازن» وعيناه تلمعان:
- هذا عقلك يا «ممدوح»، كنت على يقين أنه يشبه «مغارة علي بابا».
لم أنقطع عن الكلام، كان كل ما يدور برأسي يخرج على لساني،
أمسك «مازن» بيدي وأخرجني من ذلك الممر، قلت ما مرّ برأسي بصوت
مسموع:

- لا بد أن أهدأ وأرتب أفكاري ليظهر الباب.

قال «مازن»:

- هذا صحيح، اهدأ يا صديقي ولا تقلق فأنا معك.
وجدتني أطرح عليه الأسئلة تباعًا، تلك التي تمرّ أحيانًا بخاطري
كهواجس عابرة:

- هل الإنسان ما عاشه فقط؟

- هذا ما كنت أخشاه...

- أم ما كان يمكن أن يكون عليه لو حاول بشكل أفضل؟

- الآن بدأت تُخرِّف!

أوقفته ونظرت إلى عينيه وخرج السؤال على لساني:

- هل الماضي يموت؟

- مات وتحلل من زمن بعيد.

- أم يُحفظ في مكان ما؟

- كيف يُحفظ يا فتى؟ أتظنّها خزانة جدتك؟

- الماضي المُهدر؟

- لن يعود ولو تشقّلينا.

- الحياة التي لم نعشها!



@ART_OF_BOOK

- ذهبت إلى حال سبيلها.

- القرارات التي لم تتخذها

- فلنخرج أولاً من تلك المتاهة وأعدك أننا سننتخذ الكثير من

القرارات، هل هذا ما يلعب في رأسك عندما تصمت يا «ممدوح»؟

سمع «مازن» كل ما يعتمل في نفسي ويدور في رأسي من هواجس وأفكار، وبدا واجماً وهو ينصت لأسرار وذكريات يسمعي أرددها وهي تمر برأسي كالبرق وحينها كنت أتحدث بسرعة، تأخرنا وبدأ ماء البحيرة الثانية ينساب ولم أتوقف عن الكلام، احتضنني «مازن» وقال بهدوء:

- اهدأ يا «ممدوح»، خوفك لن يمنع القدر.

ردتني تلك الكلمات إلى رشدي فهدأت خواطري، قرأ في أذني آيات من القرآن كما فعلت معه من قبل لأهدئته فسكن عقلي تماماً، وهنا تحركت الممرات أمام أعيننا وفتحت على بعضها وظهر باب في أوسطها فاقتربنا منه، أمسكت بالمفاتيح وجربت واحداً منها ولم يفتح الباب، تحسست أطراف المفتاح المعقد وشعرت أنه هو فأدخلته برفق وبدأت أديره تارة يميناً وتارة يساراً، حسب الالتواءات التي كانت فيه بينما يتقدم للأمام، وكان الماء قد وصل إلى صدورنا، أصدر المفتاح صوتاً عالياً فأدركنا أن الباب قد فتح فدفعناه معاً ودخلنا إلى جزء ثالث من المتاهة، تراجع الماء فتتنفسنا الصعداء، وددت لو استرحنا لكننا في سباق مع الوقت.

الباب الثالث

سرنا لمسافة طويلة ولم نجد أي باب! تضاعفت حيرتنا عندما لم

ينسب الماء تحت أرجلنا! ماذا حدث؟

أكملنا طريقنا وكنا أحيانًا نجد جدارًا فندور حوله، أو قد ندخل إلى
التواء مسدود فنعود ونتراجع وكان هذا يستغرق وقتًا. وصلنا إلى ساحة
مستديرة فقلت لـ «مازن»:

- أشعر أنني قد زرت هذا المكان من قبل.

- وأنا كذلك.

- أهو الحنين؟

- لا أدري!

توالت الذكريات على رأسي ورأيت «مازنًا» يضع يده على صدره
ويشرد فسألته:

- هل داهمتك الذكريات؟

- نعم. ذاك إذاً باب الذكريات.

- عندما كانت تتبدل أحوالنا كما تتبدل الألوان!

فُتحت هوة سوداء واسعة وابتلعتنا، وجدت نفسي أقود السيارة
نفسها التي كنت فيها مع أبي وأمي، أبي بجواري و«مازن» خلفي بجوار
«أمي»، تسارعت دقات قلبي، صحت قائلاً:

- أبي! أحقاً أنت على قيد الحياة؟

طالعني بعينيهِ الحانيتين ولم يتحدث، كنت أتلُفُ وأنقل عيني بين
وجهه وبين الطريق، فقد كنّا نقترُب من موقع الحادث. قال «مازن»:

- أهما حقاً والداك؟

- نعم هما!

مددتُ يدي لألمس أبي لكنَّ السيارة ارتجَّت بقوة فعدت لأقبض على
المقود بكلتا يديّ، تحدّثت إلى أمي وناديتها:

- أمي. قولي شيئاً!

تلاقت نظراتنا عبر المرآة ولم تُسمعني صوتها، بدأت أبكي، وكان «مازن» يُناديني قائلاً:

- اخرج يا «معدوح» من سراديب الذكريات التي جررتنا إليها، تلك صورة تبدو حية وحسب.

برزت من طريق جانبي شاحنة كبيرة وتوجّهت نحونا، ظلّت تقترب بسرعة شديدة، صرخت بكلّ ما أوتيت من قوّة، وقبل أن تصطدم بنا فوجئت بصفعة قويّة على وجهي، كان «مازن» وهو يُحاول انتشالي من غيابة الجبّ الذي سقطت فيه، جلست أمامه وأنفاسي تتسارع بلا هوادة، نظر إلى عينيّ وقال بجديّة شديدة:

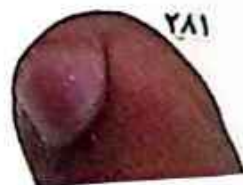
- لم يكن ذنبك! لم تُخطئ، لقد عبر السائق الطريق بشكل مخالف وصدّم السيّارة.

وضع يديه على كتفيّ، هدأت أنفاسي وانتظمت دقات قلبي، وفجأة سُحبت كما يسحب موج البحر الرّمال النّاعمة، وجدّنتني فوق سطح بنايتنا مع أخي نقف تحت المطر ونفتح أذرعنا لنستقبله في سعادة، كان يضحك بصوت عالٍ، تأمّلته والدّموع تهمني من عينيّ، ثمّ شاركته الضحك ولا تزال عيناوي تفيضان بالدموع حتى اختلطت بحبّات المطر على وجهي، كان «مازن» يراقبنا في صمت، ثمّ أصابته عدوى السّعادة وطفق يضحك مثلنا!

اقترب «مازن» مني وصاح قائلاً:

- ماذا تقول يا دكتور؟ أنا من أوائل دفعتي!

ظننته يوجّه كلامه لي، وجدّتنا وسط كليّة العلوم، وكان «مازن» يتحدّث إلى أستاذ بالجامعة، وكان الأخير يبلغه بأنّ فرصته في التعيين بهيئة التدريس لم تعد متاحة وقد استُبعد، شحب وجهه وبهتت شفّاه،



انصرف وهو يُحني ظهره بانكسار، سار إلى ركن بعيد لا يراه فيه أحد
وانفجر باكياً بحُرقة، ناديته فالتفت نحوي قائلاً:

- خذني من هنا. أرجوك يا «ممدوح»!

- عليك أن تغادر تلك الذكرى بنفسك لكي أستطيع الخروج معك،
كن على يقين أن كل أقدار الله خير، واختيار الله لك فيما تكره
خير من اختيارك لنفسك فيما تُحب.

استعاد رباطة جأشه، مسح وجهه وقال بتصميم:

- هيا بنا لنكمل المتاهة.

ظهر تحت أقدامنا باب أرضي يجري على سطحه نور يتغير لونه
مرارًا وتكرارًا، ألوان شتى تتبدل تحت أرجلنا، انساب الماء فجأة وغمرنا
تمامًا فحبسنا أنفاسنا ونزلت مع «مازن» وغصنا معًا تجاه الباب، أمسكت
بالمفتاح الملون وفتحت الباب فابتلع كل الماء حولنا، وعندما انتهى الماء
ظهر درج ينحدر إلى طابق سفلي فنزلنا لندخل الجزء التالي من المتاهة.



الباب الرابع

ممرات أخرى سرنا خلالها وكانت تضيق كلما تقدمنا فشعرت
بالاختناق، بدت الجدران وكأنها تقترب منّا فركضنا مسرعين لكن الطريق
لم ينتهِ قط، صار الممر ضيقًا يسمح بمرور شخص واحد فدخلنا، ولا
مجال للعودة فالممرات تغلق خلفنا تباغًا. استدرنا لنسير بميل فالتصق
جدار بظهري وجدار بصدري، كان «مازن» خائفًا ويرتجف، غمر العرق
جبيني ولم أتمكن من إدارة رأسي لأراه. همس «مازن» في خوف:

- أين الباب؟

- وحتى إن ظهر كيف سنفتحه؟

ظهر «سراج الرمال» ووقف فوق رؤوسنا ورفع كفيه فانهالت الرمال
علينا من يديه، صاح «مازن»:

- أيها الأحمق!

قلت وأنا أشعر بالخوف الشديد:

- سندفن هنا!

بدأت دقات قلبي تتواثب وشعرت بقلبي يعتصر بين أضلعي،
فهمست له:

- الخوف! هذا باب الخوف.

- سنموت الآن يا «ممدوح».

بحثت بعيني عن أي مكان لمفتاح بالجدار فلم أجد، أخبرت «مازنا»
أن يفعل مثلي فلم يجد، أصابه اليأس فقلت له:

- انتظر.

- ماذا؟

كان «سراج الرمال» لا يزال يهيل الرمال فوق رؤوسنا ويقهقه بصوت
عالٍ، رفعت صوتي ليسمعني «مازن» وقلت له:

- ذاك باب يُغلق ولا يُفتح.

- وكيف نغلق بابًا لا نراه؟

- أبواب الخوف لا تغلق إلا من دواخل أنفسنا.

- كيف؟

- باليقين والرجاء.

جاء صوته واهنا من تحت الرمال وهو يُردد الشهادتين، صحت بكل
ما أوتيت من قوة:

- اليقين في الله، ورجاء انكشاف تلك الغُمة!



اختفى فجأة «سراج الرمال»، وابتعدت الجدران عنا فحمدت الله أن نجانا.

ظهر باب خشبي عتيق وكان مفتوحًا على مصراعيه وتقد منه آلاف الظلال السوداء وملأت المكان حولنا. قلت لـ «مازن»:
- أسرع لتجاوزته ونغلقه من الجهة الأخرى.

توجهنا نحوه وكانت الظلال السوداء تمنعنا، تخطّيته فوجدت «مازنًا» عالقًا والظلال تخنقه فعُدت إليه وسحبته من بينهم ودفعته أمامي بسرعة، وعندما تخطينا عتبته أمسكت بالمفتاح الخشبي وأغلقت باب الخوف للأبد.

الباب الخامس

كان «مازن» متعبًا للغاية، بعد أن هدأت أنفاسه قال:

- أهذه آفاق حناياك أيُّها البائس؟

- سامحني.

- ما لي أنا ومالٍ ظلالك السوداء ومخاوفك.

- يبدو أنني أقحمتك في نفسي كثيرًا.

- وأنا سعيد بهذا؛ هيّا لنعثر على البابين الباقيين فأنا على وشك الانهيار.

كنا قد دخلنا إلى جزء مسقوف من المتاهة على عكس الأجزاء التي قطعناها، فور أن اعتدلنا لنكمل الطريق أظلم كلُّ شيء حولنا! مددت يدي مسرعًا وأمسكت بـ «مازن» وقلت له:

- سر بجواري ولا تترك يدي.

قال هامسًا:



- كيف سنجد الباب وسط هذه الظلمة القاتمة؟

- لا أدري!

- لا تخبرني أرجوك أن النور سينبع من دواخلنا!

- لا ريب أن هناك مخرجًا.

شعرنا بالماء يتسرب تحت أقدامنا، اقتربنا من الجدار لنسير بمحاذاة
كان «مازن» يسير خلفي ويقبض على قميصي، طال المسير وارتفع
ينسوب الماء من جديد ووصل إلى صدورنا، قال «مازن» في يأس:

- إن نجونا من الأبواب السابقة لن ننجو من هذا.

- دعك من هذا اليأس.

- أخبرني كيف سترى الباب وكيف ستختار المفتاح أصلًا ونحن
نسير في سرايب الهلاك المظلمة تلك.

تذكرت شيئًا قاله لي أبي عندما كنت يائسًا في فترة من حياتي
فوجدتني أخبر «مازنًا» به لعل هذا يخفف عنه:

- ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾^(١).

- أليس هذا قول نبي الله «موسى» لقومه؟

- بلى، عندما أصابهم اليأس والخوف وقالوا إننا لمدركون، لا بد من
وجود بصيص أمل.

ظلمت أردد الآية فبرق أصغر المفاتيح على صدري، ونبض بضوء
واهن أخذ يشتد ففتحت نافذة صغيرة في سقف المتاهة، تسرب منها
شريط من الضوء لم يبدد الظلام كله لكنه كان كافيًا لينير لنا الطريق،
أرشدنا إلى باب طويل مغطى بالزهور الوردية، همست بيقين:

- هذا باب الأمل.

(١) [سورة الشعراء: ٦٢].

كان الماء قد وصل إلى أعناقنا فعمنا في الماء تجاه الباب، وجدنا صعوبة في الوصول إلى مكان مفتاحه، فتحرك شريط الضوء ليدلنا عليه، أدخلت المفتاح وفتحت باب الأمل ودخلنا إلى ساحة مليئة بالزهور.

الباب السادس

لم نجلس للراحة فقد كنا نحمل هم الباب الأخير، خرجنا من ساحة الزهور ودخلنا ساحة أخرى كان كل ما فيها ناقصًا، نصف شجرة مشقوقة بطولها، نصف نافذة ملقاة على الأرض، نصف حجر بديع، نصف جدار لم يكتمل بناؤه، نصف جرّة من الفخار مكسورة بميل، كوب فيه بقايا ماء! كسرة خبز لا تسمن ولا تغني من جوع، وقفت حائرًا! قال «مازن»:

- وكأننا دخلنا إلى سلّة مهملات!
- النصف دائمًا متعب.
- قرأت القلق في عينيه وهو يسألني:
- ما المفتاح الذي لم تستخدمه حتى الآن؟
- بقي المفتاح ذو السنّ المكسورة.
- يا إلهي! لن يعمل ولن نستطيع فتح أي باب.
- لعلّه يفتح! دعنا نجد الباب أولاً.
- أكملنا طريقنا وكل شيء نعثر عليه نجده ناقصًا، لم يكن هناك شيء كامل قط. مسح «مازن» وجهه بكفيه، كان يبدو متعبًا للغاية، سألتني بحيرة:

- ترى ماذا يعني عدم اكتمالها؟
- الكمال ثقل والنقص رحابة!

- وما الرُّحابة في أشياء غير مكتملة؟

- ما نرضى بنقصانه يكتمل في قلوبنا بطريقة ما.

- كيف؟

- هذه الحقيقة لا يفهمها إلا العابرون من الألم، فكيف لم تدركها يا

«مازن»؟

صدر صوت كان له دويٌّ كبير في المكان فأجفلنا والتفتنا في آنٍ واحد وإذا بالباب يظهر فهمست ونحن نهول نحوه والماء يتناثر حولنا:

- باب الرُّضا.

رفعت المفتاح لأدخله وإذا بالسُّنُّ الناقصة تظهر لي لتكتمل أسنان المفتاح! تذكّرت قول فتاة الماء: «السُّنُّ مخفية عن الذين لم يعرفوا الحقيقة». أدخلته في مكانه وفتحت الباب ثم اختفت السُّنُّ من المفتاح مرة أخرى! وخرجت مع «مازن» الذي انطلق راكضاً ليبتعد عن البحيرات الوردية وهو يصيح قائلاً:

- أسرع قبل أن تطلُّ عفاريت الماء من جديد.

كدت أتبعه لكنني تذكّرت طلب فتاة الماء حين طلبت مني أن أعيد المفاتيح إلى أمانتها مرة أخرى، فسرت نحو بحيرتها، وسريعاً ما أطلت كما حدّث من قبل، وضعت المفاتيح أمام طيفها وهو يرتعش في الهواء، قالت وهي ترنو إليّ بإعجاب:

- أحسنت أيُّها المسافر.

- كانت تلك متاهتي الخاصة.

أومات برأسها وقالت:

- واستطعت الخروج من دهاليز نفسك المتعبة.

- من أنتم؟ ومن أحضرني هنا؟

- مررت أصابعها على فمها وكأنها تغلقه ثم قالت:

- نحن لا نكشف أسرار «تروقانتس».

- هل تسمحين لي بسؤال واحد؟

- وما هو؟

- هل رأيت فتاة تبكي وتذوب من كثرة البكاء؟

- نعم.

خفق قلبي فسألتها:

- أين هي؟

- رحلت!

- هل ستعود؟

- ذاك شيء لا أعرفه.

- شكرًا لك وإن كنت لا أعرف اسمك!

- اسمي «هيلير».

عادت إلى الماء الوردى فذابت فيه، بدا الماء ساكنًا كأنه صفحة مرآيا لم تُمس قط، وفجأة ارتعش سطحه ثم انبثقت فيه دوائر وكأن زهورًا تتفتح في صمت مهيب، لمع ضوء لانوردي وكان يتصاعد لتتشكل الظلال أولًا ثم تُرسم الملامح، خرجت «هيلير» من بينهم وقالت:

- هؤلاء قومي، يرغبون في إهدائك شيئًا يليق بك، فقد راقهم صنيعك منذ وصولك إلى أرض «تروقانتس».

بدت كياناتهم كألسنه الضياء، لهم وجوه متناظرة بدقة مما منحها جمالًا مهيبًا، وكأن ملامحهم اقتبست من حلم جميل، ارتفعوا من البحيرة واحدًا تلو الآخر وأحاطوا بي، لم يصدر منهم صوت سوى همهمة تشبه جريان الماء في زجاجة، عم السكون وهم لا يزالون يدورون حولي

ينظرون إليّ نظرات طويلة كأنها تخترقني، رفعوا أياديهم فبرزت
 جوة معلقة في الهواء، برز منها صقر بديع له جناحان خلّبان كقوسين
 من ذهب، يكسوهما ريش يلمع عند الحواف وكأنّ الضوء يتخلله، خفق
 جناحيه فاهتزّ الهواء من حولي، حطّ أمامي على الأرض ورفع رأسه
 كأنه يُحييني، ثم ارتفع ليحلّق في السّماء ويغوص بين السّحب، قالت
 ميلير، وهي تُشير إليه:

- «حير- نيبو»^(١)، ذاك الصّقر من مصر القديمة، ستحتاج إليه.

- في أيّ شيء سأحتاج إليه؟

- ستدرك لاحقاً، وحتى ذلك الحين سيطوف بأرجاء «تروفانتس»،
 فإن أردته ما عليك إلّا أن تُغمض عينيك وتناديه هامساً.

قالتها بنبرة خافتة ثمّ أحنّت رأسها وانسحبت وقومها نحو البحيرة
 فسالوا فيها تباغاً وكأنّهم يسكبون في الماء، كان «مازن» يرى كلّ هذا
 ويصيح في انفعال ويخشى عليّ من قومها، فقد شهد ما حدث لكنّه
 حُجب عن الاقتراب، عندما اختفوا ظلّ يتعجّلني ولم يتوقّف عن النداء،
 هرولت نحوه وأخبرته بما دار بيننا. كان علينا العودة إلى الوادي لنستعدّ
 للإبحار بقارب «زهير» الذي تركه خلفه لنحضر «جوجو» من جزيرة
 «هاينان»، بدأنا المسير ونحن نتداول ما مررنا به معاً، شعرت أنّني
 اقتربت من «مازن» في تلك المتاهة بشكل أكبر، وكأنّه تجوّل في عقلي
 بالفعل ليشاركني ما يدور في نفسي من خبايا وأسرار، عندما ذكرنا
 فتاة الماء واسمها قال:

(١) كلمة هيروغليفية:

رمز الصقر، وينطق (جر) 𐩦

رمز الذهب وينطق (نيبو) 𐩢

(جر- نيبو) معناها الصقر أو الطائر الذهبي 𐩦 𐩢



- «هيلير»! ذاك الاسم يُطلق على بحيرة وردية في «أستراليا» بالفعل،
أرأيت؟ ألم أخبرك أنها الـ «بيتا كاروتين» تتمثل في صورة فتاة.

- اسمها «هيلير» وليس «بيتا»!

لوى شفثيه ورفع مقلتيه إلى السماء وقال:

- كذلك تدعى «عدلات» عندما تطلق على نفسها «ديدي»! كلُّ الفتيات
كذلك.

استرحنا قليلاً ثم انطلقنا نحو القارب، لم أخبر «مازنًا» عن هيئة
«حوريات البحر» التي تختلف عما سمعناه في الروايات، مضينا بالقارب
حتى أحاط بنا الضباب كمعطف ثقيل، تركت المجداف وطرقت على
القارب من الخارج، وكان «مازن» ينتظر وصولهن بفضول شديد، برزت
الشقيقات الثلاث فصرخ بجنون وقبض على ذراعي، ضحكت وكانت تلك
هي المرة الأولى التي أضحك فيها بحق، فضحكاتي السابقة بعد تناول
كعكة الضحكات الصاخبة لم تكن من قلبي، هدأت من روعه بصعوبة
وكان غاضبًا مني لأنني لم أخبره بالحقيقة، وأنهن يشبهن الفقعات،
وأخيرًا قال:

- سنعود وستركني في الوادي، واذهب وحدك لإحضار «جوجو».

- صدّقني ستعتادهن، كنت خائفًا مثلك.

قالت إحداهن وهي تستند على حافة القارب:

- وكأنك رأيت عفريتًا من الجن!

- رأيت! ولتعلمي أنني رأيت اليوم منهن عفريته جميلة.

خشيت أن تغضب منه فأسرعت قائلاً:

- لكنك أرق منها يا «تارا».

ضربت بزعنفتها على حافة القارب وقالت:

- لست «تارا» أيُّها البائس، أنا «ميراندا»!

- أعتذر منك.

- هكذا أنتم معاشر الرجال، لا تنتبهون للتفاصيل الدقيقة.

مرّ وقت ليس بالقليل و«مازن» لا يتقبّل الأمر، ولكي يكسر خوفه وتوتره بدأ كالعادة في السُّخرية والتَّهكُّم، صبرت حتى هدأ، وضعت يدي على رأس أحدهنّ كما أضعها على رأس قطتي، كانت المسكينة لا ترجو إلّا القبول منّا، بدأت تحدّثنا عن قومها وأدركت أنّها «ميراندا»، اقترب «مازن» وفعل كما فعلت فطالعه بعينيها الواسعتين، فقال في توتر:

- لا تنظري تجاهي.

- أنت تضع يدك على رأسي!

- ليكن! لكن لا تنظري إليّ.

ضربت يده بزعنفتها وغاصت في الماء. حملتنا «تارا» معًا وبينما تبحر بنا سقط «مازن» فرفعته «ميراندا» وقالت له:

- قف على ظهري ولا تخف لن أسقطك.

وقف «مازن» فوق ظهرها فأسرعت تجري به فوق سطح الماء فرأيته يضحك وكان يستمتع بالتزلُّج على الماء! عندما وصلنا إلى جزيرة «هاينان» التقيت مرّة أخرى «مينغ دي» وطمأنته على «زهير» وأسرته الصّغيرة، وسألته عن «جوجو» فشبك أصابعه وقال:

- برز لها جناحان رقراقان يسري فيهما ضوء ملون، ومنذ تلك اللحظة وهي تحلّق فوق الجزيرة.

- غريب! يعجز عقلي عن ملاحقة ما يحدث لتلك الفتاة! لقد أدهشتني بخروجها من البحر، ثمّ بمعرفتها بالكثير من الأسرار،



وأيضاً بغنائها لـ «شوان لونغ» وعدم خوفها منه، وما هي تحلق
بجناحين!

- لم تهبط إلا قبل الغروب وقالت لنا إن الأجنحة تختفي ليلاً وهذا ما
حدث بالفعل، أهل «هاينان» جميعهم مشغولون بها طوال النهار
كنت أتعجب مما حدث لها. سار «مازن» معي نحو الشلالات، أخبرته
أن يقف تحتها، وعندما دخل تعالت ضحكاته وكان سعيداً وهو يجترُّ كل
لحظة من حياته سعد فيها، كنت أراقب السماء وأفتش عن «جوجو»، عندما
تأخر ظهورها استبدَّ بي القلق وشعرت أنها في خطر، أقبل بعض سكان
الجزيرة وهم يصيحون، لقد سقطت «جوجو» عن حافة الجبل قرب بركان
«هاينان»! هوى قلبي بين أضلعي، ركضت معهم نحو الجبل وأنا لا أدري
هل لا تزال على قيد الحياة أم لا. لم يكن الجبل عاليًا كجبال «لاش»، لكنني
واجهت صعوبة في صعوده وكان «مازن» يقفز وينتقل من حجر إلى آخر
بمهارة فقد اعتاد هذا. سبقني إلى حيث يستطيع أن يراها بوضوح، كانت
تجلس على بروز في الجبل وتكور نفسها وقد تهدل جناحها! ناديتها
وشجعته لتتماسك حتى أصل إليها، جلب أهل الجزيرة الحبال وجدلوا
حبلًا سميكًا وأمسكوا بطرفه وكان على أحدها أن ينزل لالتقاطها، إماً
أنا وإما «مازن»، فقررت دون تردد أن أنزل بنفسني وأصررت على هذا،
عندما وصلت إليها وجدتها تخفي وجهها بين يديها فقلت لها:

- «جوجو» اقتربي بحذر.

- سأسقط إن تحركت قيد أنملة.

- ما بال جناحيك؟ لماذا لا تستطيعين التحليق بهما؟

- لا أدري كيف ظهرا وكيف تعطلا عن العمل.

- جرّبي أن تحركيهما.

- لا تبدو الأمور كما تظن، ليس لي إرادة في تحريكهما!

- حسنًا، سأقترب منك وأحملك وسيرفعوننا.

- لن يحملنا الجبل.

- إذا سأربطك ليسحبوك قبلي، وسأتبعك لاحقًا.

- حسنًا.

اقتربت منها ببطء شديد، سقطت الأجنحة فور أن لمستها، لففت الجبل حول «جوجو» وأشرت إليهم فرفعوها، وبقيت وحدي.

عندما نظرت تحت قدمي رأيت فوهة البركان فاقشعرّ جلدي، كانت النار سائلة تجري بحمرتها وتغلي وتأكل نفسها، سمعت صوت طقطقة الأحجار تحت قدمي، انفصل البروز عن الجبل وهوى جسدي تجاه البركان، فأغمضت عيني ورددت الشهادتين واستسلمت، اصطدمت بشيء ففتحت عيني ووجدته «فرقان»، ذاك الشاب من أبناء «لاش» الذي فذفني أبوه في المتاهة الأولى، حملني إلى أعلى وعندما وصلنا ضجّ المكان بصيحات الفرحة، قال في رجاء:

- أرجو أن تغفر لوالدي، لا يزال يشعر بالذنب.

- لولا ما فعله ما وصلت إلى أيّ متاهة من المتاهات!

- لكنّه أخافك.

- الشجاعة لا تنبت إلّا في تربة الخوف.

كان «فرقان» يبدو كفارس أو جنديّ، له ملامح حادة، وعينان سوداوان كليّ بلا نجوم، بشرته بلون الرمال المحترقة، كأن الشمس وشمته ألف مرة، قلت له قبل أن ينطلق ليُحلّق من جديد:

- أنا مدين لك بحياتي.

- بل نحن المدينون لك بالكثير!

ابتعد وأعين أهل جزيرة «هاينان» تشيَّعه بإعجاب، وبقيت «جوجو»،
تتعلَّق بذراعي، قالت في شجن:

- شكرًا لأنك لم تتخلَّ عني، لن أنسى هذا أبدًا ما حييت.

ثمَّ أضافت في حزن وهي تتجسس موضع أجنحتها التي سقطت:

- أحببتُ الأجنحة.

- أنتِ هكذا أفضل!

- لو رأيت كيف ظهرا!

- كيف؟

- بدأ الأمر بنبضة خفيفة في ظهري، لمسة دافئة كأن الشمس وضعت
إصبعها على بشرتي، ثم تلتها قشعريرة سرت في عمودي الفقري،
كأنَّ جسدي يتذكَّر شيئًا قد نساه، توهَّج الهواء حولي وأضاءت
خلف ظهري خطوط ضوء ملونة، تكوَّرت كشرارات وفتحت جزء من
جلدي دون أن أشعر بأيِّ ألم، ثمَّ انبسطت الأجنحة رويدًا رويدًا
كما يفتح الرضيع عينيه حين يفيق، كانت تلمع بوهج خافت كضوء
القمر، وكل خفقة جناح تحمل نورًا من لون مختلف، ثم ضربتُ
الهواء ضربةً واحدة فارتفع جسدي إلى أعلى وطفوت بخفة.

قال لها «مازن»:

- وكأنَّك فراشة!

- صحيح.

كانت تبدو حزينة ومنكسرة للغاية، شعرت أنَّها تحبس دمع عينيها
وتغالبه، أراد «مازن» أن يلهيها عن حزنها فقال:

- يقولون إنَّك تجيدين الغناء!

ابتسمت في خجل فأضاف:

- هل تعلمين أنني التقيت فتاة جميلة من الجن؟

- حقاً؟

- تعالي لأخبرك عنها.

نزلنا الجبل وهما يثرثران، لم يتوقفا عن الكلام وسرّني أن «مازن» انتبه لحزنها وخوفها وأراد التخفيف عنها، عدنا إلى مدينة «تروقانتس». كنت أظن أن مهمتي قد انتهت لكنني فوجئت بالكثيرين يأتون ويسألونني عن أولادهم وزوجاتهم وأقاربهم ممن لم يظهروا بعد، حينها أدركت أن هناك المزيد من المتاهات، تركت «جوجو» في عهدة السيّدة «رشاء»، وسرت أتخبّط في حيرة ولم ألتفت لنداء «مازن» و«سهيل» و«زهير» وهم يتبعونني.

هبّت رياح قويّة حملت الرّمال وطافت بالمدينة فهرول الناس إلى بيوتهم هرباً منها، كنت أسمع «قفزات الظّباء» وهي تناديني من «مقبرة الأسرار» لكنني لم أذهب إليها، خلت الشوارع من المارة وعمّ السكون بالمدينة، وفجأة! وجدت قدمي تغوصان في الرّمال ولم أتمكن من رفعهما وكأنني أغرق في بحر من الرّمال المتحركة، حاولت أن أستغيث فلم يجبني أحد، وفي غضون ثوانٍ كانت الرّمال تغمرني من شعر رأسي إلى أخمص قدمي وسقطت في متاهة جديدة.

المتاهة الخامسة

سقطت في الحفرة الممتلئة بالرّمال، لأجد نفسي في متاهة ممراتها
أوسع من سابقاتها، وصرت أسبح في بحر من الحبيبات الذهبية الناعمة،
ابتلعتني فغرقت فيها وكتمت أنفاسي واستسلمت لها لتموج بجسدي
وهو ينزلق بين تلافيفها، ضاقت فجأة وكأنني حُشرت في ممر ضيق
فشعرت بالاختناق، سقطت ساقاي في فجوة وتعلّقت للحظات انقطعت
فيها أنفاسي ثم انسلّ جذعي وكأنني ولدت منها وانزلقت في دروب ملتفة
فتلاشت حبات الرّمال الذهبية من حولي شيئاً فشيئاً لتظهر لي حلقات
من ألوان تتداخل في بعضها بجنون، كدت أفقد صوابي فأغمضت عيني
حتى تنتهي مرحلة الانزلاق! لا ريب أنها ستكون مليئة بمصائد أحجار
«تروقاتنس» التي أفاجا بها بين فينة وأخرى. أخيراً سقطت على الأرض
بعد أن اصطدمت بباب خشبي عتيق وألقيت وسط سوق مليئة بالشيوخ
والعجائز، التفت الجميع تجاهي وطالعوني بنظرات مفعمّة بالحياة
على الرّغم من رؤوسهم البيضاء ووجوههم الضامرة، تعالت ضحكاتهم
وأقبلوا يحتفون بوصولي وساعدوني على النهوض! شعرت بالرّيبة من
حماسهم وابتهاجهم فليست تلك طبيعة كبار السن!

إيعقل أن تكون تلك المتاهة قصيرة هكذا؟

ابن باقي المعمرات التي عليّ اكتشافها واجتيازها؟

وكيف لم يُرهب هؤلاء القوم أن يظهر بينهم شاب غريب فجأة من رحم المجهول ويلقى أمام أعينهم ويسقط أمام باب عتيق تأكلت زواياه بسقط طلاؤه!

هل يعلمون أن خلفي ممراً يغلق على متاهات غامضة؟

لم أشعر باندهاشهم أو حتى خوفهم مني. وقفت أنفض ثيابي من الرمال الذهبية وسرت بينهم وأنا أتأمل ملامحهم وثيابهم المزركشة، وسمال الفواكه والخضراوات في أياديهم عامرة بأنواع شتى من الفواكه التي أعرفها والتي لا أعرفها، الألوان حولي في كل ركن وكأنه كرنفال. غريب أمرهم! لم أعثر على شاب واحد بينهم!

تُرى أين ذهب الشباب؟

وهل جميع من بهذا المكان من المسنين؟

على مسافة منا كان ثمة شيخ أنيق ينظر إليّ ويراقبني من بعيد وهو يبتسم، كان له شعر رماديّ أملس وحسن التنسيق، وقد تحول حاجباه إلى خطين سميكين من شدة بياضهما تخالهما من القطن! بينما يرتدي قميصاً أخضر فضفاضاً وناعماً! كانت الرياح تعبث به. تسللت من بينهم وسرت نحوه وكانوا يهللون ويلمسون كتفي وظهري بأياديهم وينادونني باسمي، وما عدت أتعجب من هذا فلا ريب أنهم يرونني في أحلامهم وينتظرون مني أن أخرجهم من هنا. عندما وقفت أمام ذلك الشيخ قال بصوت عميق وهو يتفرّس في ملامحي:

- تبدو أنحف يا «ممدوح».

- رأيتني في أحلامك أليس كذلك؟

- بلى، كنت منطفئ الروح بينما عيناك الآن مفعمتان بالحماس، في أحلامنا كان الموت يرقد بين جفنيك.

استدار وسار بتؤدة فتبعته وكانت الشوارع عامرة بمظاهر البهجة، الطرقات أرضها ملونة وكل شارع بيوته مطلية بلون خاص، النوافذ محفوفة بالزهور والرياحين، حتى الخيول التي تجر العربات مظهرها بديعة، فوجئت بالكثير من الأطفال يركضون في الطرقات ويصيحون في سعادة، اقتربت طفلة منهم على رأسها إكليل تبرز منه أزهار أرجوانية وصفراء ومدت يدها لتصافحني، وقع في نفسي أن هناك رجالاً ونساء في مرحلة الشباب وهؤلاء أولادهم لكنهم ليسوا هنا الآن وسيظهرون لاحقاً كما ظهر الأطفال، أشار إلي الشيخ لأتبعه ودخل بيتاً من البيوت، شعرت براحة شديدة عندما دخلته فقد كانت بساطة تفاصيله سبباً للاسترخاء والهدوء، حتى أصوات الجلبة التي تركناها خلفنا اختفت وكأننا غزلنا عن العالم كله، دعاني للجلوس ففعلت ثم قال:

- مرحباً بك في «أرض الزعفران»، اسمي «نديم».

- شرفت بلقائك يا سيد «نديم».

- هل رأيتنا في أحلامك كما رأيناك؟

- لا!

انطلق يحدثني عن حياتي بتفاصيلها التي رآها في أحلامه، وصف مشاهد لتجارب مرت بها خلال دراستي وعلمي وحياتي ولم تكن لهواً ولا لعباً! وكنت أجيبه في كل مرة لأوضح له أنني لم أكن ألهو ولم يكن هذا لعباً، وكان يهز رأسه ويتجاهل كلامي ويعود إلى حديثه عني فأصابني الضيق والخجل والضجر، فقد كان يعرف كل شيء عني!

مرُّ الوقت وهو على حاله لا يتوقف عن الثرثرة، حين اقترب الغروب
ليشعل نار المدفأة وأوقد الشموع لتنشر ضوءًا خافتًا رجراجًا بدأ
عش الخيالات على الجدران، لم أسمع انطفاء جذوة النهار في الماء
عجبت! أكمل الشيخ سرد تفاصيل حياتي وكان لا يمل ولا يتوقف،
عندما كنت أطرح سؤالًا كان يتجاهله ولا يجيب عنه، ظهر على جبينه
رمز حلقة تدور بشكل حلزونيٍّ مستمر دون أن تتوقف! علقت عيناها
فيها وشعرت بالدوار، طرق الباب فجأة فأسرعت لأفتحه فقد أشفقت
من سير ذلك الشيخ للباب وكنت أراه يزداد وهنًا كلما مرُّ الوقت، دلف
غلام على جبينه رمز للحلقة نفسها التي رأيتها على جبين السيّد «نديم»
وأسرع نحوه ووقف أمامه، حينها قال له الشيخ وهو يبتسم:

- حان الوقت، هل أنت مستعد؟

قال الغلام في ضجر:

- وددت أن أبقى مع رفاقي لفترة أطول.

- غداً ستلتقيهم من جديد.

عقد حاجبيه وقال بصوت يغلب عليه الحزن:

- وجدتهم اليوم يختلفون، ما عاد «بهاء» يحبُّني، وكانت «سميرة»
تتبعني طوال الوقت فمللت منها، إنها فتاة لوحدة وثرثرة.

ضحك السيّد «نديم» وقال له:

- لعلك تحبُّها غداً، وربُّما «بهاء» يندم على فعله.

- ربُّما!

مدَّ السيّد «نديم» ذراعيه وفتح حضنه للغلام الذي دلف ليختبئ
في حضنه واختفى! نعم تلاشى واختفى! اقشعرُّ بدني وتراجعت إلى
الخلف وأنا أنظر إلى السيّد «نديم» الذي كان يحدِّق تجاهي ويبتسم،

تخُشِبُ لسانِي في فمي، خرجت من البيت وأنا مذعور فرأيت المشهد
نفسه يتكرر أمام عيني، الشيوخ والعجائز يفتحون أحضانهم للغلمان
والفتيات الصغيرات ليختفوا فيها، توجَّهت كل العيون نحوي فرأيت
رمز الحلقة الحلزونية التي تدور بلا توقُّف على جباههم جميعًا فارتج
قلبي بين أضلعي، لم أدِرِ إلى أين أذهب! استداروا جميعًا ودخلوا بيوتهم
وتركوني وحدي في طرقات خالية من البشر، أغلقوا أبواب البيوت وبقي
بيت واحد بابه مفتوح وكان بيت السيِّد «تديم» الذي دخلته وجلست
معه فيه لساعات، شعرت بوحشة شديدة فعدت إليه وبحثت عنه بالبيت،
ناديته فلم يُجبني فطرقت باب غرفته ودخلت فوجدته يستعد للنوم، قال
بهدوء وهو يشير إلى فراش آخر:

- إن أحببت فلك أن تنام هنا.

ثم أمسك بساعة رملية زجاجها يبرق وكأنَّ الماء يجري فيه، بينما
تموه فيه رمال تلمع وكأنَّها برادة من ذهب، قلبها فبدأت الرُّمال تنساب
بيبء نحو الجهة الفارغة منها وقال والفرحة تطلُّ من عينيه:

- الآن تبدأ اللعبة.

وضع يده تحت خده واستغرق في نوم عميق. جلست أتأمله ثم
انسحبت عيني على الساعة الرملية، التي كانت الرُّمال تنساب فيها ببطء،
شديد، غلبني النوم فتكوّرت على الفراش ولم أشعر بشيء بعدها.

- «ممدوح» استيقظ. كفاك نومًا أيُّها الكسول!

أيقظني شاب أشقر له وجه مشرَّب بحمرة، وأنف قصير مُنمَّش، وقم
عريض ابتسامته واسعة، جلست على الفراش أتأمل ملامحه، لا ريب أنَّ.

سعيد «نديم»، كانت الساعة الرملية لا تزال مكانها والرّمال تنساب
ببطء، قلت وأنا أشير إلى الفراش الخالي:

يبدو أن السيد «نديم» استيقظ مبكرًا.

ضحك وقال وهو يُشير إلى صدره:

أنا «نديم» نفسه يا «ممدوح».

- ماذا!

تسارعت دقات قلبي بجنون، كان هذا غريبًا جدًا، ظلّ يعلّق عينيه
جهي ويراقب ردّة فعلي على كلماته، قال وهو يشير إلى صدره:

- هكذا نحن هنا، نعيش يوميًا ويوميًا.

- ماذا تقصد؟

- يوميًا في العشرينات، ويوميًا في السبعينات.

- غير معقول!

أشاح بوجهه عني وقال:

- ما دمت قد وصلت إلينا ورأيتنا فهو معقول.

- ألم يُساعدكم أحد في الخروج من تلك اللعنة والرحيل من هنا
بسلام؟

- أيّ لعنة؟ نحن لا نشكو من أيّ لعنة! ولا نرغب في الرحيل من هنا!

- يا إلهي! لماذا قذفتني المتاهة إليكم؟ ألم تروني في أحلامكم لكي
أساعدكم؟

ضحك ملء شذقيه وقال:

- رأيناك أكثر من مرّة في حلمنا الذي نتشارك فيه، لكنك كنت تلهو
وتلعب.

- أَلْعَبْ! كَيْفَ؟

- سَتَعْرِفُ بِنَفْسِكَ.

- تُرَى مِنْ أَلْقَى عَلَيْكُمْ تِلْكَ اللَّعْنَةَ؟

- وَهَلِ الشَّبَابُ لَعْنَةٌ؟

- أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَى شَيْخٍ هَرَمَ خِلَالَ يَوْمٍ وَاحِدٍ وَتَفْقِدَ كُلَّ مَا كُنْتَ تَتَنَمَّ

بِهِ مِنْ شَبَابٍ وَصِحَّةٍ وَعَافِيَةٍ فِي سَاعَاتٍ، أَلَيْسَتْ تِلْكَ مُصِيبَةً؟

خَلَعَ قَمِيصَهُ فَبَرَزَتْ عَضَلَاتُهُ، وَكَأَنَّهُ يَتَبَاهَى بِهَا أَمَامِي، ارْتَدَى قَمِيصًا
مَزْرُكْشًا بِأَلْوَانٍ بَدِيعَةٍ وَعَبَثَ قَلِيلًا بِخَصَلَاتِ شَعْرِهِ النَّاعِمَةِ ثُمَّ قَالَ وَهُوَ
يَضَعُ عَلَى رَأْسِهِ قُبْعَةً بِيضَاءَ:

- وَبِمِ تَصِفُ عَوْدَتَكَ إِلَى شَبَابِكَ وَتَخْلُصَكَ مِنْ شَيْخُوخَتِكَ وَمَرْضِكَ

وَأَلَامِ جَسَدِكَ وَإِيقَاعِ حَيَاتِكَ الْبَطِيءِ خِلَالَ يَوْمٍ وَاحِدٍ؟ تَحِبُّ مَرْءَةً

أُخْرَى وَتَتَزَوَّجُ حَبِيبَتَكَ مِنْ جَدِيدٍ وَتَعِيشُ مَعَهَا أَجْمَلَ لَحَظَاتِ

حَيَاتِكَ مَرَّاتٍ وَمَرَّاتٍ، أَلَيْسَتْ مُعْجِزَةً؟

- بَلَى وَلَكِنْ! تِلْكَ لَيْسَتْ الْفَطْرَةُ الَّتِي فَطَرَنَا اللَّهُ عَلَيْهَا، خُلِقْنَا لِنَعِيشَ

مَرَا حِلَ حَيَاتِنَا بِضَعْفِهَا وَقَوَّتِهَا، بِحُلُوهَا وَمَرَّهَا: ﴿اللَّهُ الَّذِي

خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ

بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾^(١).

هَذَا كَتَفِيهِ فِي خِيَلٍ وَقَالَ:

- وَجَدْنَا أَنْفُسَنَا هَكَذَا! مَاذَا نَفْعَلُ؟

- مَهْمَا فَعَلْتَ لَنْ تَسْتَطِيعَ الْهَرَبَ مِنَ الْمَوْتِ، حِينَهَا سَتَتَحَطَّمُ سَاعَتُكَ

الرَّمْلِيَّةُ لِلأَبَدِ، هَكَذَا خُلِقْنَا اللَّهُ، لَحَظَاتٌ مِنَ الْقُوَّةِ تَعْقِبُهَا لَحَظَاتٌ

(١) [سورة الروم: ٥٤].

- أَلْعَبْ! كَيْفَ؟

- سَتَعْرِفُ بِنَفْسِكَ.

- تُرَى مِنْ أَلْقَى عَلَيْكُمْ تِلْكَ اللَّعْنَةَ؟

- وَهَلِ الشَّبَابُ لَعْنَةٌ؟

- أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَى شَيْخٍ هَرَمَ خِلَالَ يَوْمٍ وَاحِدٍ وَتَفْقِدَ كُلَّ مَا كُنْتَ تَتَنَعَّمُ

بِهِ مِنْ شَبَابٍ وَصَحَّةٍ وَعَاقِيَةٍ فِي سَاعَاتٍ، أَلَيْسَتْ تِلْكَ مُصِيبَةً؟

خَلَعَ قَمِيصَهُ فَبَرَزَتْ عَضَلَاتُهُ، وَكَأَنَّهُ يَتَبَاهَى بِهَا أَمَامِي، ارْتَدَى قَمِيصًا

مَزْرَكْشًا بِالْوَانِ بَدِيعَةً وَعَبَثَ قَلِيلًا بِخَصَلَاتِ شَعْرِهِ النَّاعِمَةِ ثُمَّ قَالَ وَهُوَ
يَضَعُ عَلَى رَأْسِهِ قُبْعَةً بَيْضَاءَ:

- وَبِمِ تَصِفُ عَوْدَتَكَ إِلَى شَبَابِكَ وَتَخْلُصَكَ مِنْ شَيْخُوخَتِكَ وَمَرْضِكَ

وَأَلَامِ جَسَدِكَ وَإِيقَاعِ حَيَاتِكَ الْبَطِيءِ خِلَالَ يَوْمٍ وَاحِدٍ؟ تَحِبُّ مَرَّةً

أُخْرَى وَتَتَزَوَّجَ حَبِيبَتِكَ مِنْ جَدِيدٍ وَتَعِيشَ مَعَهَا أَجْمَلَ لَحَظَاتِ

حَيَاتِكَ مَرَّاتٍ وَمَرَّاتٍ، أَلَيْسَتْ مُعْجِزَةً؟

- بَلَى وَلَكِنْ! تِلْكَ لَيْسَتْ الْفَطْرَةُ الَّتِي فَطَرَنَا اللَّهُ عَلَيْهَا، خُلِقْنَا لِنَعِيشَ

مَرَا حِلَ حَيَاتِنَا بِضَعْفِهَا وَقُوَّتِهَا، بَحَلُّوْهَا وَمَرُّهَا: ﴿اللَّهُ الَّذِي

خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ

بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾^(١).

هَؤُلَاءِ كَتَفِيهِ فِي خِيَلَاءٍ وَقَالَ:

- وَجَدْنَا أَنْفُسَنَا هَكَذَا! مَاذَا نَفْعَلُ؟

- مَهْمَا فَعَلْتَ لَنْ تَسْتَطِيعَ الْهَرَبَ مِنَ الْمَوْتِ، حِينَهَا سَتَتَحَطَّمُ سَاعَتُكَ

الرَّمَلِيَّةُ لِلأَبَدِ، هَكَذَا خَلَقْنَا اللَّهُ، لَحَظَاتٌ مِنَ الْقُوَّةِ تَعْقِبُهَا لَحَظَاتٌ

(١) [سورة الروم: ٥٤].

يفعلونه، وداهمني إحساس لأول مرة في حياتي أنني شخص بطيء الحركة، أقبل «نديم» مع زوجته ودعوانني لتناول الطعام على مائدة كبيرة أعدتها النساء بأنفسهن، فقد علمت أنهن استيقظن من فجر ذلك اليوم للاهتمام بكل شيء، سألني «نديم» عندما لاحظ شرودي:

- ما بك؟

- لماذا أنا هنا؟

- لا ترهق نفسك بالأسئلة.

- لماذا تجاهلت الكثير من تساؤلاتي التي طرحتها عليك؟

- الأسئلة وأجوبتها هموم، وأنا لا أحب الهموم.

- سأرحل اليوم.

هز كتفيه قائلاً:

- لن تستطيع الخروج من الحدود، عواصف الرمال والأحجار الدوارة ستُعِيدُكَ.

- وما أدراك؟

تجاهل سؤالي كالعادة، فقررت ألا أتركه حتى يجيبني وطرحته سؤالاً آخر وأنا أتأمل نضرة وجهه وماء الشباب وهو يجري تحت جلده:

- عندما بدأت تلك اللعنة التي أحاطت بكم كم كان عمرك يا «نديم»؟

رمانى بنظرة استنكار وقال:

- ألم تنادينى بالأمس بالسيّد «نديم»؟

- لا تهرب من سؤالي! هل كنت في العقد الثالث من عمرك؟ أم كنت

في العقد الثامن منه؟

- ليس هذا مهماً بالمرّة.

- بل مهم!

جلت بعيني بينهم وعدت أسأله:

- جميعكم في المرحلة العمرية نفسها؟ واليوم لا أرى أولادكم!

ضحك بصوت عالٍ واقترب مني ووضع يده على كتفي وقال:

- ستعرف كل شيء عندما تعيشه بنفسك.

- ماذا تعني؟

- ستكون مثلنا، ستعيش يوماً... ويوماً!

- مستحيل!

صَفَّق بيده فسكتوا جميعاً واستداروا نحونا، أشار بيده فأقبل الشباب عليّ من كلّ حذب وصوب وأمسكوني وصعدوا على مسرح ظننته قد أقيم لاحتفالاتهم، لكنني اكتشفت أنّ الطاولة الخشبية الكبيرة والمستديرة كانت لتقييدي عليها من أطرافها الأربعة، بدؤوا يلعبون بقرصها الدوّار وأنا مقيدٌ عليها وصوت ضحكاتهم يخترق أذني، صرت لعبتهم التي يعبثون بها، سكبوا الأشرطة على رأسي، وأقاموا القرص الخشبي لأكون في مواجهتهم وجعلوني مرمى لسهامهم، كانوا يستمتعون برؤيتي وأنا أحتقن من شدة الغضب، عندما ملوا من تلك اللعبة قلبوا القرص فأصبح رأسي للأسفل وعلقوني على تلك الحالة ومضوا إلى بيوتهم وكنت أراهم وهم يعيشون يومهم هذا في بهجة وبذخ وإفراط، غربت الشمس ولم أسمع انطفاء جذوة النهار في الماء أيضاً تلك المرة!

ما الذي حدث؟

لم أتخيّل أن غياب هذا الصوت الغريب سيقلقني!

بسط الظلام جلاببه الواسع على «أرض الزعفران»، قبل أن يذهبوا للنوم أقبل «نديم» مع رھط منهم، وضعوا تحت رأسي كأساً زجاجية

وجرحني «نديم» في جيبني جرحًا صغيرًا لتسيل الدماء منه في تلك
الكأس ومضوا إلى بيوتهم، مرّت ساعات وأنا لا أدري ما الذي سيفعلونه
بي، كنت حائقًا وغاضبًا للغاية، سكنت «أرض الزعفران» تمامًا وكأنها
صارت كالمقبرة، وبقيت وحدي والدماء تقطر من جرحي نقطة فنقطة
كما كانت حبات الرمال الذهبية تنسلّ في الساعة نقطة وراء الأخرى،
أظلمت الدنيا في عيني وما عدت أعرف هل هذا النوم أم أنني سأفقد
الوعي.



كان يناديني باسمي وهو يمسح على وجهي بالماء ليوقظني، لم أتبين
ملامحه في البداية، لكنّ ضوء الشعلة التي ثبّتتها في الأرض لتضيء له
المكان انعكس على وجهه فرأيتَه، كان مراهقًا قمحي البشرة له عينا
سوداوان أهدابهما كثيفة، على جيبينه يلعب رمز لكتاب مفتوح ينبثق منه
ضوء دافئ، قال بعد أن تيقن من كوني قد أفقت وأسمعه:

- لا أستطيع إدارة القرص وحدي، لهذا سأقطع الحبال وأحرر يديك
أولًا لتتفادى السقوط على رأسك عندما أقطع الحبال التي حول
ساقيك بعدها.

حرر يديّ بالفعل وبدأ يقطع الحبال حول قدميّ فسقطت على
الأرض وجلست ورأسي ينبض وكأنّ أحدهم أدخله في وعاء نحاسي
وضرب عليه بمطرقة فتلجّج، جلس الفتى بجواري وانتظر حتّى تمكّنت
من الحديث معه، سألتَه في قلق:

- أين الجميع؟

- غارقون في النوم الأسود، ولن يستيقظوا إلّا بعد شروق الشمس
بساعة.

- النوم الأسود

رفع حاجبيه اللطيفين وقال:

- ذاك الذي يعقبه هرم أجسادهم ووصولهم إلى السبعين من أعمارهم.

- وماذا عن نوم الليلة السابقة؟

أشار بإصبعه وقال:

- النوم الذهبي. ألم تر كيف صاروا صباح اليوم؟

- ما اسمك؟

- «بديع الزمان».

كنت أطلع في وجهه وأنا حائر هل سينقلب إلى عجوز أم سيظل على حاله! سألته لأتبيّن:

- كيف بدأ الأمر يا «بديع الزمان»؟

- سأخبرك بكل شيء، ولكن علينا أن نختبئ، ولنحمل بعض الطعام معنا.

هرول نحو الموائد العامرة بالأطعمة وملاً حقيبة قماشية كان يحملها، وحمل قارورتين من حليب وعصير ودفعهما إلي لأحملهما، وأشار لي فتبعته وسرنا بين البيوت التي كانت ساكنة كالمقابر. سرنا طويلاً حتى ظننته لن يتوقّف، لكنني علمت منه أنّه ذاهب إلى بيت أبيه، وصلنا إلى بيت قديم له سور من حجارة بيضاء زحفت عليه عرائش العنب، عبرنا السور ودخلناه ممّا فأسرع ليغلق الباب، تنفّس الصعداء وقال وهو يدعوني للجلوس:

- رأيتك منذ وصولك عندما لفظتك البوابة الخشبية، كانت رؤيتك كالغيث الذي انتظرتّه طويلاً بعد طول جفاف.

- لماذا هربوا منه؟

- عقد عهدًا مع الشيطان ليدوم له شبابه، وأريقت الدماء لتُكتب
الطلاسم على الرمال بيد ساحر من خدام ذلك الملعون بعد أن
وهب نفسه له، فمنح كل من أقرّ بالعهد ساعة رملية ملئت برمال
من ذهب، كلما قلبت يتبدل الحال إلى حال، يوم في العشرين ويوم
في السبعين.

- كنت على يقين أنه سحر! الأغبياء لم ينتبهوا لما حبسهم فيه، لو
صدق لظّلوا شبابًا للأبد، لكنه سحر أعينهم وحسب.

- راقبتهم لعام كامل وأنا أخشى أن يُكشف أمري فيقتلوني، وعندما
اكتشفت أنني محجوب عنهم وأنهم لا يرونني صرت أخرج
بأريحية بعد ذلك، لكنني اتخذت الحيلة لخوفي وترئبي من
زوال هذا الحجاب في أي وقت، فقد لاحظت أنهم أحيانًا يسمعون
صوتي فصرت أخرج ليلاً وهم نائمون.

- ثلاث سنوات!

- نعم، وأنت أول من أتحدث إليه منذ رحيل أبي وأمي من هنا.

- لماذا حجبتك «أحجار تروفانتس»؟

- هذا ما يُحيرني! فأنا لم أقبل بالعهد ولم يقبل به أبي، فما الحاجة
إلى بقائي هنا! صار أبواي شديداً التعلّق بي بعد وفاة أخي الذي
كان يصغرنني بسبع سنوات، تُرى كيف حالهما؟

أشفقت عليه، بدا لي أن أبويه تركاه وهو على وشك البلوغ أو قد كان
بالغا للتو، فقد أخبرني أنه في السادسة عشرة من عمره، سألته وأنا
أراقبه وهو يأكل بنهم:

- أين الأطفال الذين كانوا يركضون في الطرقات؟

- اغرورقت عيناه بالدموع فمسحهما بظهر يده وقال:
- كانوا ينتظرونك، فأنت لعبتهم التي سيلهون بها في حفل زفافهم.
 - لهذا ابتهجوا لرؤيتي؟
 - نعم، كما لعبوا طوال السنوات الثلاث بأهل «أرض الزعفران» حتى دفعوهم للهرب واحدًا تلو الآخر، وقتلوا بعضهم.
 - قال جملته الأخيرة وهو شارد بعينه، أدركت أنه رأى وشهد الكثير من المآسي، أضاف قائلاً:
 - تلك البوابة الغربية كانت تلقي لنا الأحجار من آن لآخر، لكنني عندما رأيتك في أحلامي تخرج منها أدركت أنك ستصل حتمًا في يوم ما.
 - هل أبوك وأمك بين هؤلاء؟
 - وضع يده على صدره وقال:
 - أعوذ بالله!
 - أين هما؟
 - أبي وأمي خرجا من «أرض الزعفران» مع الكثير من أهلها، كنت أتبعهما وأحمل بعض متاعنا، ومتاع أمي التي كانت في شهرها الأخير من الحمل، حاولت الخروج خلفهما لكن الحجارة الدوارة منعتني وكنت كلما أخطو خطوة تتراص أمامي وتصنع جدارًا، ثم حلّ ضباب كثيف فمنعتني من الخروج معهما وهذا قهرني.
 - أحجار «تروقانتس»، هذا اسمها.
 - أتدري أنها منعت تلك الثلّة الفاسدة أيضًا من الخروج حتى لا تنتشر لعنتهم، فقد سمحت للهاربين من الوالي هنا بالخروج دون أن تمنعهم.

توقف عن مضغ الطعام ثم اذرد اللقمة التي كانت عالقة في فمه
وقال وهو يحدث إلى وجهي:

- ليسوا أطفالاً بل هم شياطين.

- لماذا تصفهم بهذا؟

- كنت كلما أراهم يقتربون من دارنا أستعيز بالله هامساً فأراهم
يركضون هرباً من أمام البيت، في البداية كنت أسمع أصواتاً
مريبة وفي ليلة شديدة الظلمة شعرت أنني لست وحدي وكنت
على وضوء فوقفت وانطلقت أؤذن للصلاة بصوت مسموع كما
علمني أبي لأطرد الجن والشياطين من دارنا، ومنذ ذلك اليوم لم
يحدث ما يُريب.

- يا لك من شجاع!

هز رأسه في أسى وقال:

- أخرجوا المصاحف من «أرض الزعفران»، وهدموا المساجد، ولم
يُرفع الأذان منذ ذلك الحين، وما عادوا يذكرون الله، كنت أخشى
أن تُخسف الأرض بنا.

كانت كل نظرة منكسرة منه تعصر قلبي، أسفت لحاله كثيراً، قال
وهو يرفع حاجبيه اللطيفين:

- اليوم هو يوم البلوغ، يعود الأطفال الذين كانوا يركضون في
الطرقات أمس ولكنهم يصبحون بالغين، تتغير ملامحهم، وتخشن
أصواتهم، والبعض تنبت له لحية، أما الفتيات فيصبحن سمينات
وكما تعلم.

- رأيت ابن «نديم» وهو يدخل في حضنه.

- ليس ابنه! بل هو نفسه «نديم».

- ماذا!

- ألم أخبرك أنه عهد مع الشيطان؟ ولكل واحد من هؤلاء شيطان يخرج منه ويعود إليه، وهؤلاء يظهرون فقط في أيام هرمهم وكبرهم حتى لا يلتقي الشاب بالشاب ويتصارعان على الحياة، هذه توابع ضلالهم، وقد يطغى أحدهم على صاحبه ويحتل جسده، وإن حدث سيخرجون من الحدود وستحل اللعنة بمدينة «تروفانتس» كلها، كنت أراقبهم وأنتظر هذا اليوم وأنا خائف، لهذا عليك أن تقضي عليهم.

- أنا؟

- هكذا رأيتك في المنام، تحارب الشياطين بسيف من لجين والرمال تطوف حولك.

- يا إلهي! لقد مررت بالكثير يا «بديع الزمان»، أنت حقا شاب شجاع.

- والآن أنت معي.

- كيف كنت تقضي وقتك يا مسكين؟

لمعت عيناه وهو يقول:

- كنت أقرأ، أبي ورأق ولدينا هنا حانوت كبير مليء بالكتب، كان يدونها بيده وينقلها ويترجم بعضها للغات أخرى، كما يترجم بعض الكتب للعربية، واشتهر بهذا وكانوا يأتونه من كل حذب وصوب لشرائها منه، علّمني كل هذا وكنت أساعده.

أعجبتني رباطة جأشه فقلت له بإعجاب:

- بديع أنت يا «بديع الزمان»!

ابتسم في خجل وقال:



- أطلق عليّ أبي هذا الاسم تيمناً بعالم من العلماء المسلمين كان يدرس مؤلفاته وخصيصى كتاب مهم منها، سأريك هذا الكتاب فأنا أحفظه.

- لنصلي أولاً، أشعر بالخواء ولن أرتاح إلا بالصلاة.
- صليت وحدي لثلاث سنوات، كنت أشتاق إلى صوت آخر يردد «آمين» فتخترق أذني لتبعث في نفسي الأمان، لأنس بتكبيره من نفس أخرى تذكّرني أنني لست وحدي، الوحدة موحشة ومخيفة يا سيدي.

ثمّ وقف وهو يمسح يديه من أثر الطعام وقال:
- هيا لأصبّ عليك الماء، وسأعيرك من ثياب أبي.
كان في ذلك الفتى براءة الطفل على الرّغم من مظهره الرّجوليّ، ولعلّ هذا بسبب انعزاله لفترة طويلة فسبق نمو جسده تغير طباعه وخصاله، صلينا معاً وخلدنا إلى النوم وكنت على يقين أنها المرّة الأولى التي ينام فيها وهو مطمئن، عزمت ألا أتركه وحده هنا وأن أصحبه معي إن نجحت في الخروج من «أرض الزعفران» لعله يأنس بالبقية في مدينة «تروفانتس» ويعيش بينهم في أمان.

فتحت عيني فرأيت «بديع الزّمان» يجلس بجواري ويدوّن شيئاً بريشة طويلة بينما المحبرة والأوراق أمامه مصفوفة بنظام، كشف ضوء الشّمس المتسلل من النّافذة عن ملامحه بشكل أوضح عمّا رأيته ليلة أمس، وجه قمحيّ دقيق الملامح، حاجبان لطيفان وعينان ترفرف عليهما أهداب كثيفة، وأنف أقرنى وفم صارم يفتقد لابتسامة تخرج كلّ الحزن من قلبه يعلوه شارب رفيع يجتهد ليكتمل، أمّا لحيته فكانت تحتضن

من الجانبين بشكل أنيق وكأن أحدهم رسمها بقلم رصاص. بدا
نهمًا في الكتابة وكأنه عُزل في فقاعة من الصمت، جلت بعيني في
نرفه ووجدتها مرتبة ونظيفة، راقني ذلك وأدركت أنه كان يهتم بالدار
بدا حتى يعود والداه، عندما جلست ترك ريشته وأقبل علي وهش وبش
فقلت له:

- ظننت أنني سأستيقظ قبلك.

- علينا أن نستعد، فالיום هم ضعاف ولن يتمكنوا من البحث عنك،
أما غدا فسيكونون في أوج قوتهم ونشاطهم وسيفتشون «أرض
الزعران» شبرًا شبرًا حتى يصلوا إليك.

- حسنًا، كيف سنبطل تأثير تلك المعاهدة.

- نحطم الساعات الرملية، رأيت بنفسي شجارًا نشأ بين اثنين منهم
على فتاة تشاركها حبها، فحطم أحدهما ساعة الآخر، فعاد إلى
حاله القديم قبل أن يقبل بعهد الشيطان وكان حينها في الأربعين
من عمره.

- وماذا حدث له؟

- بقي في «أرض الزعران» لكنهم كانوا يتآمرون عليه، لعبوا
بجسده كما فعلوا معك، وأصابوه بعمامة في عينه، حررت الفتاة
التي تشاجر بسببها من قيوده، وعندما رأته يخرج ليلاً تبعته
حتى وصل إلى الحدود، والعجيب أنه رآني ولعل هذا بعد زوال
اللعنة عنه حين تحطمت ساعته، فبدأ يقذفني بالحجارة، تراجعت
قليلاً لكنني ظللت أراقبه من بعيد وعندما خرج لم تحجبه الأحجار
الدوارة... أقصد أحجار «تروكانتس»، حاولت الخروج مثله لكنها
منعتني.

- لنحطمها. ولكن لا ريب أنهم سيثورون حينها ويطاردوننا.
- ليكن! هل تخافهم؟
- لا.
- لنتسلل إلى غرفهم ليلاً فهم لا يستيقظون أبداً وكان هناك من يضرب على آذانهم طوال الليل.
- هل تعني ما نخطط له يا «بديع الزمان»؟ نحن سنواجه أقبح البشر والشياطين معهم.
- وسنهمزهم بأمر الله!
- سحب الورقة التي كان يكتب بها فوجدته مخططاً لأرض الزعفران، وقد رسم مواقع البيوت ورقمها بالتسلسل، وأضاف الأسماء وعدد سكان البيوت، وكان يعرف اسم كل شخص يعيش على «أرض الزعفران»، تأملتُها فوجدتها مصفوفة بشكل حلزوني وكأنها متاهة! كنت أتعجب من «مدينة تروقاتنس» التي كانت تظهر لي كل مرة وجهًا مختلفًا من وجوهها المتعددة، سألته وأنا أشير إلى البيوت:
- عدد سكان البيوت إما واحد وإما اثنان!
- لم يقبل بالعهد إلا أخبث الناس هنا، كل من يحمل في قلبه درناً من حقد وغلٍ وغيرة وأنانية غمس يده في الدماء وأقرّ بالعهد، فبقي وحده هنا ولم يبالٍ بخروج أفراد عائلته، عشاق وماجنون وشرذمة خائنون، وكان هناك قلة منهم أشقاء أو أبناء عمومة وأخوال وهؤلاء هم الذين يسكنون معاً.
- «نديم» يسكن وحده.
- ذلك الخبيث، أحمل له من الكراهية ما يكفي لتعكير ماء بحر «فاغ».

- لماذا هو بالذات؟

- أمر رفاقه بجمع القطط والكلاب وجعلوهم لعبة يستهدفونها بالسهام المشتعلة، لولا حاجتهم إلى الطعام لعذبوا الخراف والإبل والبقر.

- حسنًا، سنطوف ببيوتهم الليلة بإذن الله.

- ما رأيك أن أريك الآن مكتبة أبي؟

- هيا.

تناولنا الإفطار معًا ثم دعاني والحماس يُطلُّ من عينيه ليريني مكتبة أبيه، قررت أن أخبره برحلاتي من البداية لأسُليهِ فجلس أمامي وعقد ذراعيه كطفل صغير وكلُّهُ آذان مصغية، شعر بالحماس عندما وصفت له الرُّموز التي تظهر على جباه الجميع، وعندما انتهيت من سرد قصتي قال وهو يتحسس موضع رمز الكتاب المفتوح على جبينه وعيناه تلمعان بذكاء:

- أتدري؟ لعلّ «أحجار تروفانتس» منعتني من الخروج بسببك!

- كيف.

- سأخبرك!

قام ليُحضر شيئًا من مكتبة أبيه، وكنت أنتظره على أحر من الجمر، وعندما عاد بدأت الأمور تتضح أمام عيني وأدركت لماذا أنا هنا!

غربت الشمس ومضت ساعات الليل الأولى سريعًا فخرجنا لنجمع الساعات الرُّملية، مررنا بالبيوت تباعًا وبدأنا نحطّم الساعة الرُّملية على عتبة البيت لنعرف البيوت التي مررنا بها، في البداية كان كسر ذلك الرُّجاج صعبًا نظرًا إلى سمكه ومتانته، لكنني شرعت أتفقد الجزء الرُّفيع

وأضرب عليه فينكسر بسهولة، بعض البيوت وجدت أبوابها سهلة،
وأخرى ألفيتها مغلقة من الداخل فكان «بديع الزمان» يقفز من النافذة
ويأتيني بالساعة، لم يفق أيُّ منهم وكأنهم أموات! كان بريق الرمال
الذهبية ينطفئ فور خروجها من العلبة الزجاجية المحفوظة بها، لم
نترك بيتاً واحداً وكنا نحصى الساعات لكي نتأكد من تحطيمها جميعاً،
دخلت بيت «نديم» ووقفت أمامه أتأمله وكان «بديع الزمان» قد أخبرني
عن جرائمه وكيف قتل الناس لكي يتلذذ هو ورفاقه ليقضوا أوقاتهم
في لهو ولعب وخزي مبين. انتهينا من مهمتنا فتوجهت نحو الحدود
وخلعت حذائي ووقفت فوق حجر من أحجار «تروكانتس»، فتحرّك ودار
بي في الهواء ثم استقرَّ على الأرض، بدأ يسير في خطوط مستقيمة وأنا
أقف عليه فخلت نفسي فوق لوح تزلُّج، اصططت الأحجار خلفنا ومضيت
وهي خلفي وكأنني أقود قطاراً، وكان «بديع الزمان» يركض خلفنا
وهو يصيح من فرط الحماس، وصلت إلى منتصف «أرض الزعفران»،
وجلست حيث قيّدوني من قبل أنتظر خروجهم من البيوت، خلع «بديع
الزمان» حذاءه وفعل كما أفعل فارتفع به الحجر فقهقه ضاحكاً وقال:

- انظرا! إنها تعرفني كما تعرفك!

- لهذا منعتك من الخروج يا «بديع الزمان»، أنت مفتاح الأحجية
التي أحاول منذ وصولي حلّها.

انخفض به الحجر بهدوء وكأنه يدرك أنها مرّته الأولى ويخشى أن
يُصاب، جلس «بديع الزمان» بجواري وهو يترقب في تحفّز. انفرجت لُمة
الظلام عن جبين الصُّبح، وخرجت النساء للطرقات فقد كان عهدهن أن
يستيقظن مبكراً في يوم العرس لإعداد الأطعمة لحفل الزفاف الجماعي،
كنَّ يصرخن وهنَّ يتفقدن وجوههن وأجسادهنَّ، الآن منهنَّ من هي
في الثلاثينيات، والأربعينيات، والخمسينيات، أيقظت كلُّ واحدة منهنَّ

بِهَا فُخِرْجُوا وَهُمْ يَتَخَبُّطُونَ فِي حِيرَةٍ، بِدَوْا يَصِيحُونَ وَيَتَهَدَّدُونَ
بِكَسْرِ سَاعَاتِهِمُ الرَّمْلِيَّةِ وَيَقْسَمُونَ عَلَى قَتْلِهِ، عِنْدَمَا رَأَوْنِي أَقْبِلُوا عَلَيَّ
بِمَحْمَلُونَ الْهَرَائِطِ وَالْخَنَاجِرِ وَالسُّيُوفِ، رَفَعْتُ قَدَمِي مَرَّةً أُخْرَى
وَقَفْتُ فَوْقَ الْحَجَرِ فَارْتَفَعَ بِي فِي الْهَوَاءِ وَدَارَ ثُمَّ اسْتَقَرَّ عَلَى الْأَرْضِ
نَرَاجِعُوا لِلْخَلْفِ، بَدَأَتْ أَحْجَارُ «تَرْوَقَانْتَس» تَتَحَرَّكُ تَجَاهَهُمْ فَابْتَعَدُوا،
نَبْلٌ «نَدِيمٌ» وَقَدْ عَادَ إِلَى عَمْرِهِ حِينَ قَبْلَ بِالْعَهْدِ وَكَانَ فِي السَّتِينَ حِينَهَا
يَقْدُ فَقَدْ وَسَامَتِهِ الَّتِي اعْتَادَ أَنْ يَتْبَاهَى بِهَا، صَاحَ وَهُوَ يَلُوحُ بِخَنْجَرِهِ:
- أَيُّهَا الْوَعْدُ سَأَقْتُلُكَ.

- كَمَا قَتَلْتَ «لَيْثَ»، وَ«إِلْيَاسَ»، وَ«سَامِرَ»؟

- مَنْ أَخْبَرَكَ؟

صَاحَ أَحَدُهُمْ مِنْ خَلْفِهِ:

- أَلَيْسَ هَذَا «بَدِيعُ الزَّمَانِ» ابْنُ إِسْمَاعِيلَ الْوَرَّاقِ؟

قَالَ آخَرُ:

- لَا رَيْبَ أَنَّ مَنْ أَخْبَرَهُ، أَيْعَقِلُ أَنَّهُ كَانَ بَيْنَنَا وَيَتَلَصَّصُ عَلَيْنَا؟

تَعَالَتْ أَصْوَاتُهُمْ وَهُمْ يَحْدِّقُونَ تَجَاهَهُ، أَجْفَلَ «بَدِيعُ الزَّمَانِ» عِنْدَمَا
أَدْرَكَ أَنَّهُمْ يَرُونَهُ، أَخَذُوا يَسْبُونَهُ وَيَسْبُونَ أَبَاهُ وَأَدْرَكُوا أَنَّهُ كَانَ بَيْنَهُمْ
وَيُرَاقِبُهُمْ، أَشْرَتْ إِلَيْهِ أَلَّا يَخَافُ وَأَخْبَرْتَهُ أَنْ يَصْعَدَ فَوْقَ الْحَجَرِ فَفَعَلَ،
فَرَفَعَهُ الْحَجَرُ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ ثُمَّ قَرَّبَهُ لِيَقِفَ خَلْفِي، قَالَ أَحَدُهُمْ وَهُوَ يَلُوحُ
لِي بِسَيْفِهِ:

- لِمَاذَا سَلَبْتَنَا حِلْمَنَا وَفَرَحْتَنَا؟

- أَيُّ فَرَحَةٍ وَأَنْتُمْ عَالِقُونَ بَيْنَ يَوْمَيْنِ وَتَلْعَبُونَ لَعِبَةَ حُمَقَاءَ، تُرِيقُونَ
الدَّمَاءَ وَتُزْهِقُونَ الْأَنْفُسَ إِرْضَاءً لِلشَّيْطَانِ وَأَنْفُسَكُمْ.

- هَذَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِكَ!

- لم يخلقنا الله للهو واللعب، وليس لأحد منكم سلطان على غيره
ليلهو بحياته ويزهق روحه.

- ومن أنت حتى تُحاسبنا؟

- لا أحاسبكم، فقط أزلت الغشاوة عن أعينكم، لا وجود لشباب دائم!
ومهما عقدتم من عهود ستموتون في النهاية، تضيعون أوقاتكم
وأعماركم في لهو ولعب.

- عشنا لسنوات في سعادة وهناء، لو ذقت حلاوتها بنفسك لتمنيتها
وتقت إليها وأدركت السبب.

- لا وجود للسعادة بلا عائلة، أين عائلاتكم؟

علت همهماتهم الغاضبة، قال من كان يحدثني منهم:

- اكتفينا بأنفسنا وبأحبابنا.

- لن تزهَرَ السعادة إلا في حضن العائلة، ولن يستقرَّ الأمان إلا في
حضن الوالدين، ولن يكون السند سوى من دفء الأخ، والحنان
ينبثق من صدورنا حين نحتضن الصغار، وما تمرُّون به الآن يحول
بينكم وبين هذه النعم كلها... أخبروني كيف سيستمر نسلكم؟

ابتلعوا ألسنتهم وساد الهدوء المبطن بالقلق، وكأنني فتحت جرحًا
قديمًا، كانت أعينهم تتذبذب في اضطراب، قال أحدهم:

- لا نرغب في الإنجاب.

رفعت امرأة صوتها وقالت:

- أمّا أنا فأرغب في الإنجاب، ويوم واحد لا يكفي لإنجاب طفل
وتربيته.

التفتوا نحوها وقالت إحداهن في تنمُّر:

- أيتها الحمقاء، حمل ووهن وتعب ونزيف، طفل سينهش من لحمك وعظمك ويُفسد قوامك وتركضين خلفه كالبلهاء.

- سأتحمل كل هذا!

- لماذا إذا قبلت بالعهد؟

- كنت حمقاء، الآن أفقد الإحساس بالأمومة.

- وما الذي تفتقدينه؟ شهور الحمل الثقيلة أم آلام الولادة؟

تقدمت للأمام وتلفتت في اضطراب وقالت:

- أن يبحث طفلي عني ويحتاج إليّ أنا بالذات دون أي أحد آخر،

يُحبني كما أنا دون أن أتجمل وحتى لو كنت قبيحة، ويحتاج إليّ

لأنني أخصّه، لذلك لذة لا تعرفها سوى الأمهات.

قالت أخرى وهي تعصر يديها:

- أوحشتني ابنتي التي خرجت مع أمي من أرضنا ولا أدري أين

هي الآن، أشتاق إلى حملها وتقبيلها وشمّها، لقد أصبحت الآن في

الخامسة من عمرها ولعلّها نسيته.

قالت إحداهن في ألم:

- لم أذق طعم الأمومة مثلكن فأنا عاقر، لكنني أشتاق إلى أشقائي

وأولادهم، أشعر هنا بالخواء، كنت ممن يفضلون النوم الأسود

لأستمتع وأنا عجوز في السبعين وأناذي الصغار عندما يظهرون

في يومهم الأول لأحتضنهم، لكنني لم أشعر قط أنهم يشبهون

أبناء إخواني وجيراني، كانت أحضانهم باردة وجافة، لم يملأ

شريكي حياتي بالحب كما كنت أظن، لم أكن سعيدة وأنا معه،

لقد أدخلنا أنفسنا في متاهة نهايتها مظلمة.

توالت صيحات النساء وهنَّ يؤكدن ما قالته للتو، قال أحدهم بصوت خفيض:

- أفنقد انتظار زوجتي وأولادي لي كلَّ يوم وأنا عائد من عملي كان هذا يشعرني بأنني مهم ومُقدَّر من قبلهم، اشتاق إلى انطوائهم تحت جناحي، لقد دفعتهم للخروج من «أرض الزعفران» وبترتهم من حياتي كما يبتر أحدهم ذراعه لأبقى هنا ركضاً خلف شهوة، لقد أخطأت في حقهم، أشعر بوحشة شديدة.

صرخ «نديم» وهو يلوح بقبضته:

- ما الذي أصابكم؟ كنتم ترقصون بالأمس وكلُّ منكم يحتضن حبيبه، ماذا ستفعلون بالأطفال؟

تعالى صياحهم وبدؤوا يتشاجرون، لم يتمكن أيُّ منهم من تخطي الأحجار حولي، هبت رياح قويَّة حملت الرُّمال وطافت بنا في دوامات، ثمَّ أظلمت السماء فجأة وبدأ «نديم» ينتفض وكأنَّه يُصعق فابتعدوا عنه، أضاءت عيناه وبدأ يتحدث بصوت غليظ وكأنَّه أتى من قاع الجحيم، قال موجهاً كلامه لي:

- ستُراق الدماء من جديد، وسيُجَدَّد العهد، ولتكن دماؤه البداية، سنصنع له ساعة تحبسه في عمره هذا ولن يكبر أبداً.

ردد بعض الطلاس وأشار بيده فسقط «بديع الزمان» من فوق الحجر على الأرض فأمسكوا به، وثبَّتْ خارجاً من نطاق أحجار «تروفانتس» التي كانت تحميني لأخلّصه من بين أياديهم فأمسكوا بي، قيّدوني في طاولة ألعابهم من جديد وقلبوني، جرحني «نديم» في جبيبي جرحاً عميقاً مرة أخرى فسالت دمائي ليجمعوها في زجاجة لتتحول إلى رمال ذهبية، أرادوا أن يُجددوا العهد ويجعلوني مثلهم، وبدأ «نديم» يكتب

«بدمي وهي تقطر في الإناء الزجاجي، تذكّرت «بديع الزّمان» وهو
فانطلقت أُوذُن، فأمسك «نديم» برأسه وبدأ يصدر خوارًا وكأنّه
ع، أغمضت عيني وناجيت الله من صميم فؤادي فشعرت أنّ كلّ
واتهم سكنت ولم أعد أشعر بوجودهم، كنت أسمع صوتي فقط وأنا
الأذان، وحين انتهيت استجاب الله لي وجاء الغوث أسرع مما ظننت
بما اخترق صوت الفيل أذني، كان «مازن» يصيح وهو يقترب على
هر فيله قائلاً:

- ابتعدوا عن صديقي أيّها الجبناء.

فتحت عيني فرأيتّه وكأنّه محارب خبير، وكان يمسك بحربة
يرجرجها في يده ليهددهم بها، رأيت «السّمهريّ» خلفه على جواده
لأصهب، أقبل وحوله جنوده وحلّوا قيدي، لم ينقطع «بديع الزّمان» عن
مناداتي حتى وهم يحلّون قيده، كانت ملابسه مضمّخة بالدماء، أدار
رأسه ليراني ويطمئن أنني ما زلت هناك فابتسم ابتسامة واهنة ثمّ فقد
وعيه من شدّة نزف جرحه فشعرت بقلبي يهوي معه، رأيت «الكفّ
الخضيب» تقترب بجلبابها الحنطي الفضفاض، وضعت أصابعها
الباردة على جرحي وضغطت عليه فهمست لها قبل أن أفقد الوعي:
- «بديع الزّمان».

كان وجهه البريء هو آخر ما صافحته عيني قبل أن ينطفئ سراج
عقلي.

كنت أشعر أن رأسي يسقط في هوة عميقة، الأصوات تأتيني من
بعيد، أشعر أنني ألفتها لكنني لا أستطيع تذكّر أصحابها، سكب أحدهم

الماء البارد على وجهي فأفقت ووجدته «مازناً»، كان يقول وهو يُربت جبينني:

- أفق يا صاح، ألن تتوقّف عن الهروب مني؟

- أين «بديع الزّمان»؟

رفعت «الكفّ الخضيب» صوتها قائلة:

- سيكون بخير بإذن الله، لكنّه فقد الكثير من الدماء.

اقتربت منه فألفيت وجهه شاحباً وشفتيه باهتتين، طالعني بعينيه

الحانيتين وهمس قائلاً:

- هل سترحل؟

جلست بجواره وهمست له:

- سأظلّ معك حتّى نعثر على والديك.

- أرجوك لا ترحل.

ضغط على كفّي برفق واستسلم للنّوم، قالت «الكفّ الخضيب» وهي

ترنو إليه:

- هذا الفتى يُحبّك.

- وأنا أُحبّه.

التفتُ نحو «مازن» وسألته وأنا أنقل عيني بين وجهه ووجه «بديع

الزّمان»:

- كيف وصلتُم إلى هنا؟

- المتاهة فتحت أمامنا فجأة لتُرينا ممراً طويلاً وواسعاً واصططقت

الأحجار على بوابتها، نقلت إلينا صوتك فسمعناك وأنت تتحدّث

إلى سكان «أرض الزّعفران»، دخل «السّمهري» وخلفه جنوده ثمّ

«سُهيل» و«زهير»، أشرت إلى الفيل فاقترب ورفعني بخرطومه على ظهره، وعندما مررنا طويت الأرض تحت أقدامنا فعثرنا عليك.

- اشتقت إلى مزاحك يا «مازن».

- ذكّرني أن أخبرك عن شارع المطر المستمر في «تروفانتس».

- سأفعل، ولكن أين «جوجو»؟

- مع بنات «نعش»، يُطعنها طاعة عمياء وكأنها زعيمتهن، اليوم كانت تردد أغنية صينية تعلّمتها في جزيرة «هاينان»!

كان أهل «أرض الزعفران» يتجولون في زهول، أفاقوا للتوّ وأدركوا أنهم وحيدون بلا أهل، بعيدون عن أحبابهم بحق. مرّت ساعة تلو ساعة وهم على حالهم، أرسل «السّمهريّ» جنوده ليطوفوا حول الحدود لعلّهم يعثرون على أحد، فعادوا بالبشارات، كان من رحلوا من الأرض هنا يخيّمون حولها منذ خروجهم منها، وقضوا ثلاث سنوات وهم بينون بيوتًا من حجارة وطين على ضفاف النّهر الفضّي الذي يجري بجوار «أرض الزعفران»، حيث المراعي الخضراء، ومزارع الزعفران، والأشجار المثمرة، فبدأ النّاس يتوافدون على الحدود ويعبرونها باحثين عن ذويهم، وعاد كلّ شيء إلى أصله، واحتضنت الأصول فروعها التي شردت، كنت أراقبهم وهم يهرولون نحوهم ليحتضنوهم بعد فراق أليم، من بعيد رأيت رجلًا في عقده الرّابع يهرول نحونا، أدركت منذ اللحظة الأولى أنّه والد «بديع الزّمان»، أيقظته بلطف وهمست له:

- انظر من أتى ليبحت عنك!

أسندته على صدري ليرى والده، خرّ الرجل على ركبتيه عندما رأى وجهه وأجهش بالبكاء فسالت دموعي، ثمّ نهض الأب مُسرّعًا وأقبل

علينا واشتمله في حضنه، كانت أمه تهول وهي تحمل طفلة صغيرة
فسقطت مرتين، أسرع «سهيل» وحمل عنها طفلتها وكانت الصغيرة
جميلة كالقمر، فتح «بديع الزمان» ذراعه لأمه وطال العناق، ثم سألها
عن اسم أخته فأخبرته أن اسمها «تاج الحُسن» ووضعتها بين يديه،
لمست الصغيرة خده بكفها فأضاء وجهه بابتسامة ساحرة واطمأن
قلبي.

جذبني «مازن» من ذراعي وسألني هامسًا:

- هل حان وقت عودتنا؟

- ليس قبل أن يُساعدنا «بديع الزمان».

- وفي أي شيء سيساعدنا؟

بدأت أشرح له ما أخبرني به «بديع الزمان» فلمعت عيناه ووقف

يُنصت إلى حديثي باهتمام شديد.



@ART_OF_BOOK

ساعة الفيل

كان عليّ أن أشرح لـ «مازن» كيف سيساعدنا «بديع الزمان» وأبوه
في نتم مهمتنا ونعود إلى وطننا، فقلت له:

- «بديع الزمان الجزري»!

- هل هذا باقي اسمه؟

- لا. لقد أطلق السيد «إسماعيل» على ابنه هذا الاسم «بديع الزمان»
تيمناً بالعالم والمهندس العبقرى «بديع الزمان الجزري»^(١) الذي
بهر العالم باختراعاته، ومن أهمها ساعة الفيل.

- ماذا تقصد بساعة الفيل؟

(١) بَدِيعُ الزَّمَانِ أَبُو الْعِزِّ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ الرَّزَّازِ الْجَزَرِيُّ المعروف بـ الْجَزَرِيِّ (١١٣٦-
١٢٠٦) عالم مسلم يعتبر من أعظم المهندسين والميكانيكيين والمخترعين في
التاريخ. يُعزى له اختراع ساعة الفيل، ويوصف بأنه «أبو علم الروبوتات» والهندسة
الحديثة. ولد الجزري في منطقة «جزيرة ابن عمر» التي تقع اليوم على نهر دجلة
شمال سوريا، ثم عمل كرئيس المهندسين في ديار بكر شمال الجزيرة الفراتية.
حظي برعاية حكام «بنو أرتق»، فأصبح كبير مهندسي الميكانيكا في البلاط الملكي.
صمم آلات كثيرة منها ما لم يكن معروفاً في أي مكان بالعالم من قبل، مثل «ساعة
الفيل» وكثير غيرها، وقد شرحها في مؤلفه الرائع المزود برسومات توضيحية الذي
أسماه «الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل».

- لا بد أن تعمل تلك الساعة وسط مدينة «تروفانتس»، وليعد أهلها إلى حساب أوقاتهم وأعمارهم ويكفي ما ضاع منها هباء، سأبذل قصارى جهدي لتوفير ما يلزم لذلك.

- كنت أعلم أنك لن تخذلني.

عدنا إلى مدينة «تروفانتس» وكان القلق قد استبدَّ بي على «رُميساء» التي لم تظهر حتى الآن، لا تزال «العنقاء» تحلُّق فوق المدينة، لم نخفِ عن الأنظار قط وكأنَّها تحرّسنا. عاد معنا «بديع الزَّمان» ووالداه وشقيقته، منحهم الأمير «السُّمهرِيُّ» دارًا وسط المدينة ليقيموا فيها على الدوام، وأمر جنوده بنقل كلِّ كتبهم إليها، تعافى الفتى سريعًا وكانت «الكفُّ الخضيب» تهتمُّ به. أعدت لنا السيِّدة «رشاء» مخبوزاتها المعجونة بالحبِّ والسَّعادة، وبقيت قهوتها الممزوجة بالحنين توجع قلبي.

كان شباب «تروفانتس» يعملون بجدُّ لبناء ساعة الفيل وسط المدينة في مكان المزولة الشَّمسيَّة نفسه التي هدموها من قبل، أشرف والد «بديع الزَّمان» وأشهر مهندسي «تروفانتس» على بناء الساعة وبقي أن يصنعوا هياكل خشبيَّة تحلُّ محلَّ الفيل والتنين والعنقاء والصَّقر، وثلاث عرائس آليَّة تتحرَّك بميكانيكيَّة وآليَّة التروس، كنَّا نقف جميعًا حولهم فطفق أحدهم يشرح لنا كيف يمتلئ الدلو بالماء ثمَّ تسقط «الغاتيكا»، وهي جهاز يغرق ببطء في خزان مائي مخفي بالتدريج لينشط نظام من الحبال والبكرات التي تحرك الشخصيات الميكانيكية فتصدر الساعة إشارة سمعية كل نصف ساعة، حيث يصفق الطائر الموجود على قبة الساعة ويسقط كرة من فم التنين فيضرب السائق الفيل بعصاه، مما يرمز إلى مرور الوقت، قال أحد المهندسين:



- ساعة اخترعها وفيها مجسم لفيل، وتنين، وفينيق وصقر، وتعمل بميكانيكية رفع الماء وإفراغه كل نصف ساعة.

- كنت تخوض المتاهات لتجمع الفيل والتنين والعنقاء والصقر وخلال رحلتك التقيتنا.

- خوض المتاهات يعني، أمّا الساعة فأظنّها تخصّ «تروفانتس»، وأهلها. أدركت الآن ما يعنيه الرّم الذي رأيته منحوتًا على مقطورة القطار الذي حملني إلى هنا، ١٤٤٠ هذا عدد الدقائق في اليوم الواحد.

- ما الذي دعاه لاستخدام الحيوانات بالذات.

- رمزية ثقافية، كان عبقرياً حتى في جمعها ودمجها معاً، فالفيل يعبر عن الثقافة الهندية، والتنين عن التراث الصيني، والعنقاء تعبر عن بلاد فارس، والصقر عن الحضارة المصرية القديمة.

- رائع!

- أظنّها كانت إشارات لنا لنبني ساعة كبيرة وسط مدينة تروفانتس.

- وكيف سنبنّيها؟

- كان السيّد «إسماعيل» الوراق يعكف على دراسة كتاب: «الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل»، وذلك هو أشهر كتاب للعالم «بديع الزمان الجزري»، وهو من أهم المؤلفات في تاريخ الهندسة الميكانيكية، أتصدّق أنّ فيه وصفاً دقيقاً لأكثر من خمسين آلة ميكانيكية!

- يا للعجب!

كان «السّمهري» ينصت إلى حديثنا باهتمام شديد، قال وهو يطالعني بنظرة جادة:

- سنحتاج إلى ثلاثة تروس صغيرة، سأذهب إلى الحداد لأمدّه بالقياسات اللازمة ليصنعها.

خفق قلبي حينها وفتّشت عن التروس في جيبِي وأخرجتها له وسألته:
- بهذا القياس؟

تناولها وأخذ يتفحصها بذهول مع زملائه ثم قال:

- يا إلهي! أين وجدت تلك التروس؟

تبادلت النظرات مع «سُبروت» الصغير وكان يدسُّ رأسه بيننا ويراقبنا بفضول، قلت وأنا أشير إليه:

- صنعها لي «سُبروت الصّغير».

طالعه بإعجاب وقال:

- لا ريب أنّه سيكون مهندسًا بارعًا.

بدؤوا جميعًا يربتون كتفه وكان يطالعني بحبور، وأخيرًا رأيت ذلك الغلام يبتسم!

كان «مازن» قد أحضر الفيل ليشاركنا التجربة فصنعوا هودجًا فوق ظهره، وكانوا جميعًا يتعجبون من سكونه بين يدي «مازن» وطاعته له، بدؤوا يمثلون ما سيحدث أمامنا، وفجأة تعالى صياح أهل المدينة وكأنّ كارثة قد حلّت بالمدينة، كانوا يركضون في الطرقات ويفسحون الطريق، فوجئت بالتنين يُقبل زاحفًا من بحر «قاغ» تجاه الساعة، وقفنا جميعًا نراقب ما يحدث في ذهول ونحن لا ندري ما الذي دفعهم للحضور من تلقاء أنفسهم دون أن يقودهم أحد من البشر! كما لو أنّ كلّ منهم يعرف دوره جيدًا. فبدأ الفيل يصيح ويرفع خرطومَه وكأنّ بينهما لغة خاصّة، أطلقت «العنقاء» صيحة فرفعنا رؤوسنا نحو السّماء فرأيناها تضرب بجناحيها وتقترّب، وقف الفيل حيث مكانه في الساعة، وارتقى التنين

ثم أقبلت «العنقاء» وحطت على رأس التنين، صاحت «جوجو»
بحماس:

- سأجلس في الهودج مكان الكاتب!

وكان «مازن» فوق الفيل فقال بجديّة شديدة:

- لا تحاولوا! لن أضربه على ظهره لأعلن عن مرور ساعة!

صاح «سهيل» في حماس:

- لا بدّ أن يصعد رجل ليقوم بدور السلطان.

قلت بثقة:

- فليصعد «السُمهري».

دفعني وهو يقول في حماس:

- ستكون أنت سلطان تلك الساعة يا «ممدوح»!

أعانوني على تسلُّق الهودج وجلست على الكرسيّ الخارجي وكان
رأس التنين تحتي، صاح «بديع الزّمان» وهو يشير إلى يميني:

- لا يزال ينقصنا صقر ليخرج من تحت يد السلطان ليقذف كرة
في فم التنين.

تذكّرت الصُّقر الذي أهداه لي قوم «هيلير»، فأغمضت عيني وهمست
باسمه: «حير- نيبو»، ساد صمت مهيب على المدينة، سمعنا خفق
جناحيه الذهبيين وهو يقترب، وقفوا يتأملون انعكاس أشعة الشَّمس على
ريشه في زهول، اقترب مني فرفعت ذراعي وإذا به يستقرُّ تحته، كنت
أحمل الكرة التي قذفوها لي، وعندما امتلأ دلو الماء وسقطت القطعة
التي تغرق في الماء خفقت «العنقاء» بجناحيها، فدفع الصُّقر الكرة من
يدي وسقطت في فم التنين، فرفع الفيل خرطوميه وأطلق صيحة ارتجّت
لها الأجواء، تعالى الهتاف وكان أهل مدينة «تروفانتس» سعداء، وفجأة!

جمد الفيل مكانه وتصلب كتمثال من شمع، وقلص التنين ذيله وتحجر مكانه، وضمت «العنقاء» جناحيها وسكنت فوق الهودج، والتفت وإذا بالصقر وكأنه من حديد، أصابنا الفزع وأسرعنا بالنزول قبل أن نتحول إلى أحجار مثلهم، ووقفنا مع أهل المدينة نراقب الساعة وقد سكن كل ما فيها وصارت منحوتة من حجارة! بقيت الأفواه نصف مفتوحة، لم يصرخ أحد؛ الذهول كان أبلغ من أي صوت، ولم يسأل أحد، كأن الأسئلة التي ولدت في عقولنا ضلّت الطريق إلى الكلمات، فالحجر أمام أعيننا أكثر فصاحة من اللغات، كنا نحدّق غير مصدّقين أن الدفء الذي كان ينبض في تلك الأجساد قبل لحظات قد صار صامتًا وساكنًا للأبد، وكان تلك الحيوانات خلقت لتصل من خلالها رسالة ومضت إلى حيث لا ندري، ماتت الحياة واقفة على قدميها أمام أعيننا، لتبدأ الساعة عملها، ودارت التروس على بعضها، الآن الوقت يُحسب، وما الوقت إلا ما نعبّره لنتناقص!

لمستها بيدي وإذا بها أحجار «تروقانتس»!

مرّت لحظات كنا فيها نتخبّط في حيرة، بيد أن أهل «تروقانتس» تقبّلوا الأمر على غرابته، فقد اعتادوا ما هو أكثر من ذلك، فها هي حياتهم عامرة ومتخمة بالأعاجيب. اقترب "مازن" وجلس بجواري، قال وعينهاه معلقتان بالفيل الذي تحجر:

- سأشتاق إلى ذلك الفيل.

- كان لطيفًا.

- أخبرني يا "ممدوح"، كيف ترى تلك الحيوانات من منظورك بوصفك طبيبًا بيطريًا؟

- لقنّنتي الحيوانات درسًا في التوحيد.

- ماذا!

- كل العلوم التي حشوت بها رأسي، وضجت بها قاعات الجامعة،
تضاءلت أمام ما لمستَه عندما اقتربت من عالم الحيوانات بعدما
غادرت مرحلة الدراسة إلى مرحلة الشهود، لقد تعلّمت من
العجاوات ما لم أتعلّمه من البشر.

- أخبرني كيف؟

- وجودهم في حدّ ذاته بُرهان ناطق، يسلكون مسارات تحار فيها
الألباب.

- زدني يا صاح!

- أتدري أنّ تلك العجاوات إن فقدت وليدها، ووجد في الوقت ذاته
وليد آخر ماتت أمّه في أثناء ولادته، يحلب الرّعاة لبنها ويسكبونه
على رأس الوليد اليتيم ويقربونه منها فتشمّه لتجد ريحها في
لبنها المسكوب على رأسه، فتضمّه إليها وترحمه وترضعه، تقبله
دون شروط، ويلوذ بها دون وعي، من أوضع الرّحمة في قلب تلك
البهيمة؟

- سبحانك ربّي!

- الوعي الذي تملكه الطيور باختلاف أنواعها يُدير العقل، تأمل
الغربان التي نراها كائنات شؤم تنعق، كيف تطير نحو أعشاش
النمل وتتركه ليلتهم جسدها ليُفرز النمل حمضاً يُعالج الفطريّات
التي أصابتها، قل لي بربّك من علّمها الطبّ؟

كان «مازن» يُنصت إليّ بتركيز شديد، قال بعد صمت لطيف:

- علاج الدواب أيسر من علاج البشر.

- بل هو أصعب، البشر يصفون موضع الألم أما الحيوانات فلا،

وعلينا أن نفتش عن الألم قبل أن نبحث عن السبب!

حلّق فوقنا سرب من طيور ألوانها بديعة كانت تطوف بسماء المدينة
من آن لآخر، فرقنا رأسينا وذُبنا ونحن نتأملها، وكأنّ فصل الربيع حلّ
في السّماء فجأة! أطلق أحدها صيحة مهيبة فاقشعرّ جلدي، كنت أشعر
أنّ روعي تحلّق معهم فقلت:

- تلك الطيور المهاجرة التي تشقّ عنان السّماء، تغفو خلال
طيرانها بنصف دماغ وتترك النّصف الآخر حارساً للمسار، أليس
هذا بديعاً؟ والصقور التي تُحلّق ببراعة وكأنّها تحمل في رأسها
بوصلة كونية وتخزن خرائط الأرض في رؤوسها، أخبرني برّبك
من علّمها الملاحة؟

والنعامة التي لا تملك أسناناً، فتزردد الحصى ليطحن الطعام في
جوفها! كيف أدركت هذا؟

من صبغ عين الرّنة بلون الذهب صيفاً ولون البحر الأزرق شتاء
لتقهر الظلام؟

من ألبس الحرياء عباءة التخفي؟

من علّم السلحفاة أن تطرد أثقال جسدها من الأملاح من خلال دموع
تذرفها من عينيها؟

النحل الذي يبايع ملكته ويحيا في نظام لا يختل، والنمل الفدائي
الذي يفجر معدته ليطلق سماً يقتل به أعداءه ويموت فداءً لقبيلته، من
سنّ لهم تلك الدساتير للحكم؟

الفقمة التي تبذل في بناء الجسور من علّمها الهندسة؟

لبعوضة التي تجعل لبيضها وسائد هوائية ليطفو فوق الماء، كيف
تتقوانين الفيزياء؟

الزنبور الذي يفرز إبرته في المركز العصبي للحشرة فيخدرها
ثمها ليضمن لصغاره طعامًا طازجًا حين يفقس البيض، من دله على
مار العصب؟ تلك الحيوانات أمم أمثالنا ستُحشر يوم القيامة.

همس «مازن» قائلًا:

- أمنت بالله الواحد الأحد!

ظَلَّتْ أسراب الطيور الملونة تحلّق فوقنا فجلسنا في سكون ونحن
نسبر السماء في دأب فلكي، وحلّت السكينة بنا.

جاءت ساعة الغروب فلم نسمع انطفاء جذوة النهار في الماء، سحبت
الشمس أشعتها بالتدرّج شيئًا فشيئًا فحلّ الغروب حانيًا هذه المرة
ولم يطبق الظلام فجأة كما كان يحدث من قبل، تلفت أهل المدينة في
اندھاش ثم انصرفوا إلى بيوتهم، بعد أن انتهى المهندسون من ضبط
ساعة الفيل، وأصبحت دقائق مدينة «تروقاتس» محسوبة بالتمام، الآن
يرون الألوان كلّها، الآن عاد إليهم أحبابهم، الآن تعيش الجدّات بينهم
في سلام، الآن يرفرف أبناء «لاش» بأجنحتهم كلّ صباح، ويعودون إلى
بيوتهم قبل أن تغرب الشمس كما تعود الطيور إلى أعشاشها بأمان،
فاض ماء النهر الفضي وغمر ضفافه باللالئ والجواهر وطار الخبر في
كلّ مكان.

أيقظني «سُهيل» بوجه لا يُنبئ بخير، فارتابت نفسي، قال بصوت
مشبّع بالقلق:

- أهل المدينة يحتشدون أمام البيت.

- لماذا؟

- اختفت أجنحة أبناء «لاش» للأبد، لم تظهر هذا الصُّباح، حتى إنَّ بعضهم حملوا أبناءهم وعادوا إلى الوادي فلم تظهر الأجنحة هناك ولا هنا.

- لا ريب أنَّهم يقولون إنني السبب!

- ويريدونك أن تخرج إليهم وألا سيقترحون البيت.

خرجت مع «سُهيل» وكان «مازن» يتبعنا، وجدت أبناء «لاش» جميعًا أمام بيت السيّد «نعش» ومعهم ذووهم وهم يحملونهم، وكان بعضهم على الأرض، صاحت «غيداء» عندما رأتني:

- أنت السبب، كنّا بخير حتى أتيت، أخبرناك أننا لا نرغب في العودة.

- أيُّ خير كنتم فيه؟ وسط الغجر وهم يهينون آباءكم وأمّهاتكم طوال الليل؟ وهم يسخّرونكم لخدمتهم طوال النّهار.

- ألم تحرقهم العنقاء؟ ما عاد للغجر وجود!

- ليس الحلُّ أن تعزلوا أنفسكم عن المدينة هنا، ولأهلكم الحق في البقاء حيث بيوتهم وباقي العائلات، الوادي ليس أمانًا على أيِّ حال!

- لم نر من أهل المدينة سوى الإهانة والسُّخرية.

صاح أحد الحاضرين:

- لقد ندمنا على ما فعلناه بكم، لن تروا منا إلّا الخير بعد الآن.

توالى الأصوات تباغًا تؤيّد كلامه، وكانت همهماتهم محمّلة باعتذارات صادقة، قال شاب آخر من أبناء «لاش»:

- كان لدينا أجنحة. أتدري ما يعني هذا؟ كنا نطير فوق الجميع وهم ينظرون إلينا بإعجاب، يرفعون رؤوسهم لأعلى ليرونا!
- وسينظرون إليكم بإعجاب وأنتم على حالكم هذا!

قال «فرقان» وهو يتلعثم:

- أنت لم ترهم وهم يحتقروننا ويتشائمون منا، سيعودون إلى السُخْرية منا في الطرقات كما كانوا يفعلون. إنهم يروننا ناقصين!
- أنتم كاملون بإيمانكم وبعزيمتكم وليس بقدراتكم الجسدية.
- نحن في ابتلاء عظيم ويجب أن يزول.
- ومن قال إن كلَّ ابتلاء يزول؟ بعض الابتلاءات لا تزول للأبد، تبقى كما هي، بوجعها وألمها ونقصانها ونتعائش معها.

قالت «غيداء» بخفوت:

- لماذا علينا أن نتعائش مع الألم؟
- ألم يرض الله لكم هذا؟
- بلى.

- ﴿لَا يُكَفِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(١).

- صاحت فتاة من بنات «لاش» كانت أمها تسند رأسها إلى صدرها:
- الكلام سهل، أنت لا تدري ما يعني أن تكون من أبناء «لاش»، تعجز عن الحركة، عن الرُّكُض، عن التجوال.
- عجز الجسد لا يعني عجز الرُّوح. حَلِّقُوا بأرواحكم!
- لقد تعبت.

- لديك الكثير من النعم، ماذا لو نقصت نعمة واحدة؟ أفلا ترضين؟

(١) [سورة البقرة: ٢٨٦].

- أرضى لكنني أتوجع وأتألم.

بكت «غيداء» بحرقة وقالت:

- الشفقة تملأ أعين من ينظرون إلينا، فتاة مثلي من الصُّعب أن
تفرح، من المستحيل أن تتزوج، إن ماتت أُمِّي لن أجد من يعتني
بي.

- الله لطيف بعباده يا «غيداء»، الصُّبر الذي ستحمله هنا هو أثمن
ما سيرافقك هناك يوم نلقى الله.

قال «فرقان»:

- كيف أصبر؟

- تمضي مثقلًا ولا تنكسر، تتألم وتُسَلِّم، تثق بأن الله يدبر ما لا تراه،
ويؤجل الفرج ليُعْظِمَ الأجر. الصبر ليس غياب الوجد، بل حضور
الإيمان وسطه، حتى إذا طال الليل يظلُّ القلب عامرًا باليقين.
كان «السُّمَهْرِيُّ» يقف بيننا، اقتربت منه قائلًا:

- لماذا ليس هناك مرافقون لأبناء «لاش» مقابل أجر يناسبهم؟
يعملون على خدمتهم كما يحدث عندنا، يخرجونهم من البيوت،
يتجولون بهم إن احتاجوا، يحملونهم إن لزم الأمر.

رفع «السُّمَهْرِيُّ» حاجبيه وقال بجديَّة شديدة:

- سأخصص لكل واحد منهم مرافقًا بأجر ثابت، وللبنيات مرافقات
من نساء المدينة.

علت مهمات الحضور، راقهم هذا، قال «مازن» لـ «السُّمَهْرِيِّ»:

- وتُخصِّص لهم مدارس وورش ليتعلَّموا القراءة والكتابة وغيرها
من مهارات تفيدهم في حياتهم.

سيكون لهم هذا.

نعت صوتي محدثًا أهل المدينة وقلت:

من يستطيع صنع أدوات وكراسي متحركة تجري على عجلات
يتحرك بها أبناء «لاش» في طرقات المدينة؟ أستطيع أن أصف
لكم الكراسي التي عندنا.

برز «سُبروت» الكبير وخلفه ابنه وقال بحماس:

- سأبذل قصارى جهدي من أجل أبناء «لاش»، وليساعدني
المهندسون في تصميم الأدوات والكراسي وسأبدأ في الحال.

كان أبناء «لاش» يُحبُّون «سُبروت» الكبير كما يُحبُّون «سُبروت»
الصغير، علَّقوا أعينهم بوجهه الحاني فدمعت عيناه، تحمَّس المهندسون
الذين كانوا يهتمون بساعة الفيل وبرزوا من وسط الحشد واحدًا تلو
الآخر وأعلنوا أنهم سيبدؤون في تنفيذ ما اقترحته في الحال، فأمر
«السُمهري» بإمدادهم بما يحتاجون إليه، لمحت المرأة البكماء التي
التقيتها في وادي «لاش» فقلت وأنا أرنو إليها:

- لا بد من وضع أبجدية جديدة تخصُّ أبناء «لاش» الذين لا يستطيعون
الكلام.

سألني «سُهيل»:

- ماذا تعني.

قال «مازن»:

- لغة الإشارة، أن يكون لكل حرف إشارة بالأصابع، ويتفق الجميع
على معناها، ليسهل عليهم التعبير عن أنفسهم: هكذا يفعل أبناء
«لاش» عندنا.

راقت الفكرة السيّد «نعش»، فقرر أن يتبنى هذا الأمر هو ورفاقه،
رنوت تجاه «غيداء» فرأيتها لا تزال تبكي، اقتربت منها وقلت لها:

- الابتلاءات غُسل خفيّ لصدورنا، تطهّر أرواحنا من الأدران، وتُبقي
قلوبنا نقيّة شفيفة حتى نلقى الله بها، لم أكن مكانك لأشعر
بالأمك، لكنني على يقين أن الابتلاء يوجع القلب ليوقظه، فإذا أفاق
رأى الدنيا أصغر مما يظنّ.

أجابتنني بدموعها، وكان أحد أبناء «لاش» يُراقبنا، استند على قبضتي
يديه وزحف نحونا بشجاعة، وعندما وصل إلى حيث كنت بجوار «غيداء»
رفع رأسه نحوي وقال:

- ماذا لو جرّينا شيئًا ما لكي تعود الأجنحة!
- وإن لم تعد؟ أليس من الأفضل أن نتعامل مع الواقع ونتكيف معه؟
صرخ قائلاً:

- قلت لك فلنجرّب. لن نخسر شيئًا.
كان قد وقع في نفسي أن الأجنحة لن تعود، فبعد تحوّل الفيل والتنين
والعنقاء والصُّقر في الساعة إلى حجارة شعرت أن رحلتي في المتاهات
قد انتهت، وقد تغيّر كل شيء في «تروقانتس».

وقفت السيّدة «رشاء» أمام أبناء «لاش»، مسحت يديها في وزرتها ثم
كوّرتها في قبضتين ووضعتهما على جنييها، ران الصّمت على الجميع
فقد كانوا يوقرونها كثيرًا، رنت إليّ وقالت:

- هل تعلم أيّها الطبيب أن أبناء «لاش» يمتلكون الكثير من الأشياء
المميّزة التي لا نمتلكها؟
- أتق في هذا.

غضّنت جبينها وقالت:

- تلك ليست مُجاملة! أعني ما أقوله بالفعل!

لت «جوجو» التي كانت تجاورني طوال الوقت:

أخبرينا يا خالة «رشاء» عن تلك الأشياء.

ألت السيدة «رشاء» برأسها وقالت وهي تُشير إلى كل واحد منهم:
«غيداء» تستطيع صنع قوارير عجيبة من ماء المطر، وكُنَّا نشترِها
منها وكلّما ملأناها بالماء تفيض بعطر جميل. «ضحاء» تنسج من
الضباب أثوابًا وتهديها للفقراء، نستطيع الآن أن نشترِها منها،
والضباب لدينا كثير. «فرقان» كان يجلس على الشاطئ ويغزل
شباك الصيد من ماء بحر «قاغ» ويعقدها بالرّمال، والصيادون
يعرفون هذا عنه، فالشباك التي يصنعها متقنة وتجذب الأسماء
إليها دون جهد يُبذل.

«جلوان» يستطيع صنع المرايا من الماء، في قصر الملكة مرايا بديعة
صنعها بيديه من ماء النهر الفضّي عندما زاره مع عائلته وأهداها أبوه
لجلالته. «ساري» يشعل النار ويكوّر الهواء الدافئ حولها ويقذفه إلى
صدور الناس فيهدأ السعال ويذهب البرد عنهم. «زهراء» تصنع من الظلال
وأوراق الخريف أقنعة حقيقية ترتديها في الأعياد والمناسبات، ولكل منّا
قناع يخصّه تشغله من ظلاله بمهارة. «ريان» يُرمم الذاكرة بأطراف
أصابه كما تُرمم الأبنية القديمة. «طريفة» تطرّز الأثواب بومضات تضيء
على طرف إبرتها، أمّا الخيوط فتغزلها من بتلات الزهور الملونة.

- وأين كلُّ هذا؟

- كانوا يتطلّعون للمفقود، فغفلوا عن الموجود!

- ظلّت النعم تنبض بين أياديكم طوال الوقت، تنتظر أن تلتفتوا
إليها.

مرّت السيدة «رشاء» بعينيها على أهل المدينة الواقفين حول أبناء
«لاش» وقالت بنبرة محمّلة باللوم والعتاب:

- غادروا من أجل حفنة من الحمقى سخروا منهم وتنمروا عليهم.

أقبل «سُهيل» ووقف بجوار أمّه ولوّح بقبضته قائلاً:

- فليجروا أحد على المساس بأبناء «لاش»، وسيرى ما أفعله!

انضمَّ إليه «زهير»، وتوالت أصوات الشُّباب وهم يتعاهدون على الدِّفاع عن أبناء «لاش».

وقف الشَّيخ «عثمان» خطيباً وبدأ يُحدِّث النَّاس، لم يترك شيئاً إلا وتحدَّث عنه، وكان قد بدأ بالحديث عمَّن يسخرون من أبناء «لاش» فقال:

- اتقوا الله في ضعفٍ لم يختره أبناء «لاش» لأنفسهم، ولا تجعلوا نعمة العافية سبباً للقسوة. فالسخرية ليست قوة، بل فقر في الخلق، والعجز الحقيقي ليس في الجسد بل في القلب الذي خلا من الرحمة. تذكُّروا أن ما تضحكون منه اليوم قد يبتليكم الله به غداً، وأن الكرامة عند الله لا تُقاس بشكلٍ ولا قدرة، بل بتقوى وعدل. فارحموا تُرحموا، واحفظوا ألسنتكم، فالكلمة قد تُوجع أكثر من الألم نفسه.

سكن أبناء «لاش» وهدؤوا، كان حديث السيِّدة «رشاء» اللطيف كافياً ليتوقفوا عن البكاء، كنت أعلم أنَّهم سيجدون مشقَّة في البداية، فأمر اختفاء الأجنحة ليس بسهل على أنفسهم، أشار الشَّيخ للنَّاس فجلسوا جميعاً، كان لديّ فضول شديد لمعرفة سبب إبعادهم للجذات التَّسع فسألتهم علناً:

- لماذا أبعدتم الجذات التَّسع؟

قال أحد الجالسين:

- اسأل أبناءهنَّ وأحفادهنَّ.

انتظرت ولم يأتني الجواب، برزت السيِّدة «وطفاء» من بين الجمع وقالت وهي تلوِّح بيديها:

نساء القلوب... كانوا يخشونهن.

لماذا؟

نراجعت وكانَّ الخوف أصابها منهم، فأشار لها «السُّمَهريُّ» فاقتربت قائلة:

- مولاي الأمير.

- تحدّثني ولك الأمان.

عقدت يديها ووقفت أمامنا وبدأت تتحدّث في شكل مسرحي وقالت:

- إحداهنَّ كانت تشمُّ رائحة الغدر والخيانة، كانت تعرف من

يسرق ومن يكذب ومن يخون زوجته من رائحته، صار النَّاسُ

يكرهون وجودها لأنَّها تكشف حقيقتهم، فلجأ ابنها إلى إبعادها

بحجة حمايتها، ثمَّ فعل جاره مثله فأُمُّه كانت تحلم بالكوارث قبل

حدوثها فأصبحوا يتشاءمون منها.

- يكره الإنسان من يكشف حقيقته وجوهره.

- صدقت، ولتعلم أنَّ بعد رحيلها زادت الخيانة! فما عاد أحد يشمُّ

رائحتهم الكريهة.

لوت السيِّدة «وطفاء» شفتيها في ضيق، وعادت إلى صمتها، فسألتها

لأشجّعها على الكلام:

- وباقي الجدّات؟

اشتعل حماسها عندما رأت الأعين معلقة بها وتنتظر حديثها وأكملت

قائلة:

- الثَّالثة كانت ساحرة وتابت، لكنَّ النَّاسَ لم يغفروا لها قط، كرهتها

ابنتها وأساءت إليها، فأبعدوا حفيدها إشفاقاً عليها.

- لا يغفر النَّاسُ لمن يخطئ وإن تاب، وهذا قد يجره إلى العودة إلى

ما تركه، يكونون عوناً للشيطان عليه!

انطلقت تكمل:

- أمّا الرّابعة فكانت تخطّ القلوب وكنا جميعاً نحبّها، لكنّ ابنها مات فأبعدتها زوجته.

- لماذا لم تعيدوها؟

أغمضت عينيها في إباء وقالت:

- لا نتدخّل في شؤون الآخرين!

عادت تكمل بنبرة تشي بالغموض وقالت:

- والخامسة كانت تضع يدها على جبينك فتريك الماضي صوراً في ذهنك وكأنّه حلم حيّ!

تذكّرت حين وضعت تلك الجذّة يدها على جبريني فقلت:

- مررت بهذا بالفعل، لماذا أبعدوها!

قال «السّمهريّ»:

- كانت تكشف جرائم القتل والسّرقة وتريها للجنود عندما تضع يدها على جبينهم فيلقون القبض على المجرمين، فتربص بها الغجر ليقتلوها، فأبعدوا ابنها خوفاً عليها، لكنّه زهد في زيارتها بعد ذلك، لم أعرف كلّ هذا إلّا بعد إقامتي مع الجدّات في حلقات الظّلام التسع.

- كانت عوناً لأهل المدينة على الخير ولم تقدّروها!

قالت المرأة في تضجّر:

- بعد رحيلها زادت الجرائم، قتل وسرقة وتحرش بالنساء، كان الغجر يسيئون إلينا.

- وماذا عن الجدّات الباقيات؟

- السادسة كانت تفتح فمها فتبتلع كل الأصوات التي تصدر
الضوضاء، أصوات الرجال وهم يسبون ويلعنون في السوق،
وأصوات النساء الثرثارات، فيفقدوا أصواتهم طوال النهار، وكانت
تذهب وتتقيأ أصواتهم في بئر عميقة على أطراف المدينة، فطلبوا
من ابنها أن يبعدها ففعل، فقد كانت تبتلع صوت زوجته الثرثرة.
ضحك الناس، أشارت المرأة بيدها وأكملت:

- السابعة والثامنة شقيقتان، لم تتزوجا ولم تنجبا.
أخفت فمها بيدها وأخفست صوتها قائلة:

- ليس لهما نصيب من الجمال، وعندما أصابتها الشيوخة صارتا
مخيفتين، وكانتا تعيشان وحدهما، وعندما مرضتا احتاجتا إلى
من يخدمهما فلم تجدا، فبيتهما ساكن ومهيب، أبعدتهما الجارات
فقد كان أولادهن يخشون من رؤيتهما خلف نافذة بيتهما.

- يا لقسوة القلوب، ما ذنبهما! ألم يكن بينكم صاحب قلب رحيم؟
ران عليهم صمت مطبق، قالت المرأة وهي تهز إصبعها في الهواء:
- التاسعة كانت تنام طوال النهار وعندما تستيقظ تخبرنا بكل ما
فعلناه، وكأنها كانت تسير بيننا! تلك رحلت وحدها وانضمت إلى
رفيقاتها، وطلبت من ابنها أن يوصلها إلى حلقات الظلام التسع.

- وما قصة الحلقات التسع وكيف يظهرن؟

مالت السيدة «وطقاء» برأسها وقالت:

- ظلوا يرددون أنها الساحرة التي تزعم أنها ثابت، وأن رفاقها من
الجن ساعدوها، وعندما أنكرت كذبوها.

برز حفيدها الذي أبعدتها إشفاقاً عليها من بين الرجال الواقفين
وهدر قائلاً في غضب:

أنفسنا أن نكرمهن ونبرهن، يجب أن تكون «تروفانتس» أفضل
مما كانت عليه سابقاً.

تقدم أبناء وأحفاد الجدات واحداً تلو الآخر ووقفوا في خضوع
بكسار أمامنا جميعاً، أبدوا ندمهم، طال وقوفنا وأهل المدينة يتبادلون
موار ويراجعون أنفسهم، أدركوا الآن أنهم كانوا يفعلون الكثير من
أخطاء ولا يبالون، رأيتهم يترددون على أبناء «لاش» ويعتذرون منهم،
يشجعونهم ويمازحونهم، ثم بدأ الحشد يقل شيئاً فشيئاً حتى بقيت
نا و«مازن» و«سهيل»، عندها خرجت السيدة «رشاء» ودعتنا لتناول
لفطائر. عندما حلّ الليل كان «سُبروت» قد صنع أول كرسيّ يجري
على عجلات بمساعدة مهندسين شابين متحمسين مثله، كان الكرسيّ
بسيطاً لكنه كان رائعاً كبداية، اقترب «فرقان» وهو يجلس على الكرسي
المتحرك الجديد، لا لأنه عاجز، بل لأن الطريق اختار شكلاً آخر، وكأنّ
الطريق امتداد لصبره، لا اختزال لوجوده، تحرك بعجلات، لكن روحه
كانت أسرع من كل من وقفوا ينظرون، رأيت بصيص ابتسامة أمل يلوح
في عينيه فهرولت نحوه وتعانقنا، كان شامخاً بما يكفي ليجعل الشفقة
تنكس رأسها، ومن هنا كانت البداية.

كان الصُّباح التالي غريباً، أيقظني «سهيل» أنا و«مازن» وبدأ عليه
الحزن، سألته وقد لاحظت اضطرابه:

- ما بك؟

قال بصوت يشوبه الحزن:

- رأيناكم في أحلامنا ترحلون.

مازحه «مازن» قائلاً:

- لا تزعم أنك حزين! لا ريب أنك مللت منّا.

- لقد تابت جدتي بالفعل، حلقات النار كانت تشعلها منذ صغرها
عندما تخاف وعندما تغضب، وهذا ليس بغريب عن مدينتنا
وأهلها! ولقد أخبرتني بعد عودتها أن باقي الجدات كنَّ يمسكن
بأيدي بعضهن حتى لا يظهر للأحفاد الذين رافقوهن أنها فقط
من تفعل هذا فيتخلوا عنها من جديد، شعرت بالخوف!

أصابني الحزن فقلت بانفعال:

- لماذا لم تصدقوها؟ لعله شيء يشبه ما لديكم جميعًا من مهارات
وأعاجيب سمعتها اليوم، كما يكوّر أحدكم الهواء ويقذفه، وكما
يشغل آخر شباك الصيد من الماء، وكما تغزل الأثواب من الضباب،
لماذا تتعجبون من عجوز تشعل حلقة من النار!

ارتفع صوت أجش لرجل يتدلى حاجباه على عينيه وكان يقول وهو
يرميني بنظرة مقية:

- لأنها قبيحة، تلك العجوز تشبه كرمة العنب الذابلة!

- وهل قبح الملامح ذنب يتوجب العقاب والنفي؟

- كيف ننسى ما فعلته؟

- لقد تابت!

شعرت بضيق في صدري، لم أنجح في إخفاء تضجري فقلت:

- بعض القلوب هي كالحجارة أو أشد قسوة! ألم يخبركم أحد أن
حدائق الحب تنمو في قلوب الجدات؟ وأن البركة تحلُّ حيث يكنُّ؟

قال «السُمهريُّ» بحزم شديد:

- سيُعاقب كلُّ من يسيء إلى الجدات التسع، بل ومن يسيء إلى أمّه
وأبيه، ولقد أمرت ببناء بيت كبير للجدات، وسأخصص لهنَّ من
يرعاهنَّ، ولتعلموا أننا عدنا من حلقات الظلام التسع وكلُّ واحدة
منهنَّ مع أحفادها تعرفهم ويعرفونها، ولقد أخذنا عهدًا على

لم ينبس ببنت شفة، خرج من الغرفة فتبعناه لنجد باقي أفراد عائلته يقفون وقد خيم عليهم الحزن، كانت «جوجو» تحبس دموعها وتقف بجوار بنات «نعش»، عندما خرجنا من البيت وجدنا أهل المدينة يصطفون أمامه في حلقات، كانوا ينظرون إلينا والحزن يغمر ملامحهم، حتى التاجر الذي باعني «الفراصة» ترك السوق وأتى. هربت كل الكلمات من فمي، لم يقطع صمتنا سوى صوت طرقات حوافر جواد «السُمهري»، أفسح الناس له الطريق فترجل عن جواده وقال بكلمات تقطعها أنفاسه المتسارعة:

- لن ترحل قبل أن تشهد زفاقي على «الكف الخضيب»!

تعالص صيحات الفرحة واحتفى به أهل المدينة بينما عيناه عالقتان بوجهي والدَّمع عالق بأهدابهما، كنت قد وجدت في «تروقاتنس» الصحبة التي تمنيتها دائماً لتؤنس وحشتي ووحديتي. «سُهيل»، «زهير»، «السُمهري»، «مينغ دي» الذي سيظل أثره باقيًا في نفسي للأبد. أما «مازن» فقد كان يلصق كتفه بكتفي وكأنه يخشى أن أضيع منه في متاهة أخرى! وكانت «جوجو» تحدق في وجوم وهي لا تعرف إلى أي بيت ستعود وأين أبواها؟ أحطت كتفها بذراعي فانكملت بجواري، قررنا أن نقضي ساعاتنا الأخيرة في سعادة وألا نفكر في لحظات الوداع، مرّت ساعات اليوم سريعًا وعندما بدأنا نستعد للذهاب لحفل الزفاف حملت لنا السيّدة «رشاء» ملابسنا التي أتينا بها وكانت قد غسلتها وعطرتها، انسابت الدموع من عينيها فكفكفتها بكمّ رداثها وهي تهزّ رأسها قائلة:

- سأذهب لتناول فطيرة الفؤاد المكسور لعلّها تذهب حزن قلبي.

أسرعت قائلاً قبل أن تنصرف:

- كنت أعلم أنك تدسّين الطمأنينة في طعامي.

اتسعت عيناها في اندهاش وقالت:

- ظننتك لم تنتبه!

- في كل مرة أعود فيها من متاهة كنت تطعميني شيئاً فأجد لذته
في فؤادي، وأظنك كنت تخلطين قهوتي بشيء غريب!

لمعت عيناها وهي تقول:

- العزيمة، رأيت أن بعضاً منها قد يفيدك في رحلتك، لكنك لم تكن
في حاجة إليها، ففي كل مرة كنت تعود فيها كنت أرى أن عريكتك
أقوى، لقد وضعت شجاعتك وإرادتك على المحك مرّات ومرّات!
- لن أنسى أبداً جميل صنعك يا أمّاه.

عندما سمعت ندائي لها انفجرت باكية وهولت خارجة من الغرفة،
وتركتني بقلب يئن من حنيني لأمي، ليت الأمهات لا يمتن أبداً.

حفل الزفاف

كانت الجموع تزحف نحو قصر «السُمهري» من أرجاء المدينة
كلّها، «تروفانتس» تحتفل بزواج أميرها بمحبوبته، زُيّنت ساحة القصر
بالورود، الفتيات الصغيرات يركضن وعلى رؤوسهنّ تيجان فضية،
وأكاليل من أوراق الغار والأزهار، الخدم يحملون أنية من نحاس مطروق
يتصاعد منها رائحة خشب الصندل وهو يذوب فوق الجمر ليبتّ عبقه
في الأجواء، الثريّات تتدلى من السقف وترسل أضواء الشموع الناعمة
فوق رؤوسنا، أمّا الشعل الموزعة في الأركان فكان لهبها يتراقص على
الجدران ويضفي أجواء سحرية على المكان، الشّباب يقفون بجوار
بعضهم ويشبكون أذرعتهم خلف ظهورهم وينشدون معاً في تناغم
وانسجام. الموائد الطويلة تمتدّ وكأنّها نهر من البلور يفيض بألوان شتّى
من الفواكه واللحوم المطهية بنكهات أعشاب مختلفة، أمّا الخبز والأرز
والحساء فكان هناك الكثير والوفير منهم، فالיום يوم العرس المنتظر،

والسعادة تغمر الجميع، دخل الأمير «السُمهري» بثبات الملوك تقوده
الخطى التي تعلّمت منذ الصغر كيف تحمل إرث السلالة الملكية، وكيف
يؤخذ المجد برفق وكبرياء، أقبلت «الكفُ الخضيب» وكأنّها همسة من
أفواه أزهار الربيع رُسمت ملامحها بماء المسك والعنبر، ثوبها ينساب
حولها كجدولٍ من ماء رقرق تسبح فيه اللاكئ، وعلى رأسها تاج يلمع
كقبس من نور، حين التقت نظراتهما سُكنت الروح في الروح، وقف
أمامها لا كأمرٍ أمام أميرته، بل كرجلٍ وجد وطنه أخيرًا في عيني حبيبته.
رأيت أنوارًا تروح وتجيء وكأنّها أدعية مضيئة مُرسلة إلى السماء.

كنت أشعر أنّ شيئًا ينكسر في داخلي ببطء كلّما مرّت بخاطري
ملامح «رُميساء»، في أول غيابها كنت أتساءل هل ما زالت على قيد
الحياة أم لا؟

أما الآن فأتساءل هل كانت حقيقة أم خيالًا!

لعلّها طيف وتلاشى.

لعلّها حلم جميل رأيناه جميعًا!

لعلّها فكرة طارت في رأسي!

لا أدري.

شردت للحظات، ثمّ أصابني دوار خفيف، شعرت بانسحاق روحي
وكانني أتفتت، هناك شيء يسحبني للخلف، وكانني أسقط في هوة
عميقة، أظلم كل شيء حولي وشلّت أفكاري وكانني تجمّدت أو نمت! بيد
أن عيني مفتوحتان على وسعهما، وعندما انتبهت وجدت نفسي وحيدًا
وقد غاب الجميع عني حتى «مازن» و«جوجو» فأجفلت، تلتفت حولي
فوجدتني في «مقبرة الأسرار»!

مقبرة الأسرار

كانت «قفزات الضُّباء» تناديني وتكرر اسمي وخيالاتها تتلاعب وسط
الظلام، داروا حولي بخطوات لا صوت لها ولا قرار على الأرض، يقفزون
على طبقات الهواء ويتركون خلفهم أثراً خفيفاً من بقع فسفورية تختفي
في الحال، تحولت حواف أجسادهم إلى شرارات رفيعة، كنت مأخوذاً
بتلاعب الأضواء وفي قلبي رهبة منها. برز طيف على حافة المقبرة
وكأنه سرٌّ من الأسرار، جسد طويل يلمع مثل تمثال صُنع من خيوط
الضوء السائل، وكأنه ظلٌّ لشخصٍ حين رفع يده نحوي رأيت تحت
جلده خطوطاً من الوميض تجري كالكهرباء، تتفرع وتلمع ثم تخبو،
وبدا يظهر أشباهه تباعاً فقلت في اندهاش:

- من أنتم؟

- «قفزات الضُّباء»!

اقترب الطيف مني فحاولت دفعه فمُرَّت يدي خلال كيانه الأثيري،
قال بصوت مخملي:

- لا تخف.

- هل أنت من الجن؟

- نحن الوهلة، والبرهة، والحين، والآن، وطرفة العين، واللحظات
القصيرة التي تتماسك كما تتماسك قطرات الندى على حواف
الزهر!

كان يبدو كطبقة شفيفة تحتها هلام مليء بغبار ذهبي، ليس لديه
لحم أو عظام، بل خيوط ضوئية متشابكة تشكّل عروقاً نابضة كالأنفاس!
وقفت أتأمله وقلبي يرتجّ في صدري، كان صوت أنفاسي المتسارعة
يختلط بصوت دقات قلبي فحجبا عن أذنيّ كلّ الأصوات، حاولت أن
أتماسك، هدأت قليلاً وسألته:

- ماذا تريدون مني؟

- نحن حولك على الدوام، نطفو فوق الزمن.

كان صوته كرجفة زمنية قصيرة أسمعها كنبض سريع في أذني،
أقبلت الأطياف دفعة واحدة ولمست وجهي فتركت شعوراً بالراحة
والطمأنينة، كما تلمس نسمات الهواء صفحة الماء. سألته في ترقّب:

- ما حقيقتكم؟

- نحن قطع من الزمان السائل، نحمل المشاعر والذكريات ونمضي
بها كومضات ضوء، وعندما تسقطوننا على الأرض نللم شتات
أنفسنا ونلوذ ببعضنا بعضاً كما تجتمع قطرات الماء ونتحجّر.

- يا إلهي! «قفزات الظباء» هي نفسها أحجار «تروفانتس»!

دارت الأحجار في «مقبرة الأسرار» وتحركت نحوي وأحاطت بي
بينما الأطياف ترتعش أمام عيني في الهواء، سألتهم وكلّ خليّة في
رأسي قد تنبّهت:

- من أسماكم بقفزات الظباء؟

أهل المدينة، ألم تلاحظ عشقهم للنجوم؟ «قفزات الظباء» تبرق
في السماء!

- أين تقع مدينة «تروفانتس»؟

- في زاوية نائية من الزمن.

- ما سرُّ أجنحة أبناء «لاش»؟

- نحن الأجنحة!

- وصوت انطفاء جذوة النهار؟

- أطلقناه للتحذير، فالיום الذي يمضي لا يعود.

تذكّرت كيف كان يسيل الضوء من سقف الكهف وكيف كان يُهدر
على الأرض، وحين وقفت تحت الشلال بجزيرة «هاينان» ومضات
الذكريات تتساقط فوق رأسي، قلت له:

- كنتم ترسمون الرموز طوال الوقت على جباهنا.

- لنُساعدك على لمّ شملهم من جديد، ولتعرف دورك المنوط بك.

- لماذا أنا بالذات؟

- لأننا أحببناك.

- كيف تحبون بائسًا مثلي!

ارتعشت الأطياف ودارت حول بعضها ثم قال الطيف الذي كان
يُناجيني:

- المرأة التي تهتمُّ بشراء علاجها كلُّ شهر وتعدُّ لك الطعام امتنانًا
لك، الرجل الذي كنت تخصص له راتبًا شهريًا وزرته ليخلق شعر
رأسك، ذهابك إلى المستشفيات للمشاركة في تنظيف أجساد
الشباب وحملهم مع ذويهم، همسك في أذن ذلك الشاب الغارق في

كيف يراني أهل المدينة في أحلامهم كل ليلة؟

ذاك غيب نجهله!

دشت صورة الطيف واختفوا جميعاً من أمامي وأنا أصبح قائلاً:

أين «مازن»؟ و«جوجو»؟ هل «رُميساء» على قيد الحياة؟

نظرت حيناً من الزمن لعلّ الأطياف تظهر مرة أخرى، وعندما
ت عبرت حدود المقبرة فوجدتني خارج مدينة «تروفانتس» وقد
بقت الشمس! هناك حيث سقطت من القطار أول مرة، رأيته يقترب
مغيره يزلزل كياني، تمنيت لو أنني أرى من أحبهم الآن.

كانت دقائق قلبي تتواثب بجنون.

عين تتوق للعودة، وعين ترغب في البقاء!

توقّف القطار أمامي وكان عليّ أن أصعد على متنه لأرحل لكنني لا
رغب، لمن سأعود؟ وإلى أين سأسافر! ظلّ القطار يطلق صفيره وكانت
ندماي مسمرتتين في الأرض، ارتجّ القطار ثم بدأ يسير ببطء شديد ولم
اتحرّك من مكاني قيد أنملة.

لأبقى قليلاً وأعود لاحقاً عندما يظهر القطار مرة أخرى!

أعيش حياة أهل «تروفانتس» وأعمل بأعمالهم.

لا ينبغي لي ترك «مازن» و«جوجو» هنا وحدهما!

وقد تعود «رُميساء» وتشعر بالوحشة، كما أنني قلق عليها.

ولكن ماذا لو لم أجدهم؟

وماذا سأفعل لو لم يعد القطار مرة أخرى وكانت تلك فرصتي

الأخيرة؟

وهل سأقبل كل شيء هنا في تلك المدينة العجيبة؟

غيبوبته لتؤنسّه. وكأنك على يقين أنّه يسمعك، القطة التي فقدت
ساقها وصنعت لها عجلات لكي تتحرك بسهولة، الهرة الأربع
حين دهست السيارة أمهنّ فهرعت إليهنّ واعتنيت بهنّ حتى كبرن
ولا تزال إحداهنّ تعيش ببيتك، زيارتك للمدارس كلّ عام لتسأل
عنّ عجزوا عن دفع مصاريف دراستهم، الخبز اليابس الذي
كنت تبخله للطيور وتضعه على حافة النافذة، كنت تفعل الكثير
من قطع الضوء التي يسجلها الزمن! كنت أكثر من يحمل هموم
الآخرين ويساعدهم وينثر السعادة فنزداد ونزدهر.

بكيت بحرقة، لم أعلم أنّ هناك من يراقب ما أفعله، وددتها أن تكون
خبينة بيني وبين الله! شعرت أنني قد تعرّيت وصرت مكشوفاً بكلّ
أسراري لهم، لم أتوقّف عن البكاء إلّا حين رأيت الطيف يرتجف وخشيت
أن يختفي، تذكرت الصوت الذي همس في أذني فرددت كلماته:

- «رُبّ ساع على دروب الخير أعانه الله فوصل».

- أجل. كنت أهمس بها لك.

- وماذا عن «مازن» و«جوجو» و«رُميساء»؟

- كانوا يحتاجون إليك!

- لماذا لا يتذكّرون بعض الأشياء من ماضيهم على عكسي؟

- محوناها من رؤوسهم ليبقوا على قيد الضوء! كان من الضروري
أن تلتقوا سكان «تروفانتس» قبل لحظة الانهيار! حيث كان الوقت
يضيع هباء!

- ألهذا علمت «جوجو» بأمر الهرم اليتيمة التي ساعدتها؟ وأدركت
بعض الأشياء هنا؟

- كنا نهمس لها بها لنطمئنّها ونسلّيها.

بل هل سيقبل أهلها ببقائي بينهم؟

بدأ القطار يزيد من سرعته ومرت بعض عرباته أمام عيني، نظرت خلفي فألقيت الضباب الكثيف يلفني كمعطف ثقيل وقد اختفت معالم مدينة «تروفانتس» تمامًا فخفق قلبي بجنون، شعرت بالرهبة والخوف فبدأت أركض بموازة القطار، صرخت بأعلى صوتي:

- انتظرا

لكنه لم يتوقف فكان عليّ أن أركض بسرعة أكبر، اقتربت منه ومددت يدي لأتعلق بباب إحدى عرباته ثم قفزت داخلها وسقطت على وجهي فاصطدمت جبهتي بحافة النافذة المقابلة للباب ففتح جرح جبيني الذي أصابني به «نديم» في «أرض الزعفران» مرة أخرى وسالت الدماء من جديد، وكانت الكف الخضيب قد قطبته. ألقيت بجسدي على الكرسي فمضى القطار وكانت عيناى معلقتين بالنافذة، ظهرت مدينة «تروفانتس» مرة أخرى وبدأت فاتنة وساحرة أكثر من ذي قبل، هبت نسائم محملة بأريج الزهور فأغمضت عيني وتنفست بعمق ليتخلل هواء «تروفانتس» كل خليلة في جسدي، رأيت بحر «فاغ» بزرقة اللآزوردية الفتانة، وجبال «لاش» المهيبة، والبحيرات الوردية، وعندما دار القطار لاح لي مدينة «تروفانتس» من جهة أخرى ببيوتها الملونة، ثم أرض الزعفران برمالها الذهبية، وسريعًا ما برق ماء النهر الفضّي كاللجين السائل، وأخيرًا أطلت غابات الصنوبر بما تحويها من أسرار.

لماذا كان رحيلي هكذا فجأة دون أن أستعد؟

صحيح أنهم أخبروني أنني سأرحل وكنت أعلم يقينًا أنني سأرحل!

لكنني لم أحسن وداعهم...

لم أعانقهم، لم أشكرهم كما ينبغي....

مت راضيًا عن رحيلي بتلك الطريقة.

بدت لو قدّمت الأفضل من أجل نفسي ومن حولي.

ماذا اختُطفت من قلب حفل زفاف تعمه الفرحة؟

بدت لو ضغطت على زرّ لإيقاف عقلي لكنني لم أستطع.

توقّف القطار فجأة، وضاق بي المكان وكأنّ جدران عربة القطار

بعتني نحو بابها فخرجت لأسقط على الأرض، بقيت على حالي جاثيًا

في ركبتي فقد تعبت، حتّام سألفظ من بقعة لأخرى في أرجاء تلك

نيا الغريبة!

كان الظلام حولي ومحطة القطار خالية من البشر، ركضت حتى

وصلت إلى بعض المسافرين وكانوا ينتظرون وصول القطار، اقتربت

من شاب منهم وسألته عن الساعة، كنّا قبل الفجر بدقائق! فسألته على

ستحياء عن التاريخ واليوم، فالتصقت قدماي بالأرض! نحن في اليوم

ذاته الذي غادرت فيه إلى «تروفانتس»!

بل وبعد اختفائي بساعة واحدة!

لا

هل يُعقل!

كانت رحلتي خلال ساعة واحدة فقط؟

أم كان حلمًا؟

شمّرت بنطالي لأتفحص جرح ساقي فوجدته لا يزال هناك، مررت

بأصابعي على جيبيني وكان الجرح يؤلمني حتى إنّ أصابعي تبللت

بالدماء عندما فرّكته! دسست يدي في جيبني فوجدت رسم التنين الذي

أكملته «جوجو»!

لقد كنت هناك...

نعم كنت حقًا هناك.

كدت أفقد عقلي!

جلست على أقرب مقعد لألمم شتات عقلي، القطار، الأحجار الدوارة، «سهيل»، مدينة «تروفانتس»، المتاهة الأولى الخضراء، «مازن»، «حلقات الظلام التسع»، «السُمهري»، «بنو الأحمر»، «الفيل»، مدينة «تروفانتس» مرة أخرى، «سوق الخواطر»، «مقبرة الأسرار»، المتاهة الثانية القرمزية، «جوجو»، المنارة السوداء، جبال لاش، الغجر، «الغميصاء»، الوادي، أجنحة «أبناء لاش»، جزيرة «هاينان»، حوريات البحر، التنين، المتاهة الثالثة الزرقاء، مدينة «تروفانتس»، المتاهة الرابعة الوردية، المتاهة الخامسة الذهبية، أرض الزعفران، «نديم»، «بديع الزمان»، مدينة «تروفانتس»، ساعة «الفيل»، زفاف «السُمهري» و«الكف الخضيب»، «قفزات الأطباء»!

ليس حلمًا!

لم يكن خيالًا قط، لقد رأى «مازن» و«رُميساء» و«جوجو» ما رأيته! كيف لم أسألهم على أرقام هواتفهم وعناوينهم؟

عصرت مخي لأحاول تذكر أي شيء عنهم يدلّني على أماكنهم بالتحديد لكنني لم أتذكر غير الجامعة التي تخرج فيها «مازن»، وأن «رُميساء» في المنصورة ببيت خالتها، أمّا «جوجو» فلا أعرف أي شيء عنها! ألقيت بنظرة حيث كانت مقطورة القطار العتيقة تريض فلم أجد لها أثرًا! كدت أفقد صوابي، رأيت الرجل الذي منحني تذكرة السفر إلى «تروفانتس»، كان يقف مستندًا إلى جدار وفي يده كوب ورقّي لمشروب ساخن تتصاعد منه الأبخرة، هرولت نحوه وعندما وقفت أمامه والحيرة تأكل رأسي قال وعيناه تلمعان في غموض:

- وأخيراً عدت!
- عدت! لكنني لم أعد كما كنت.
- لكنك نجوت.
- كان قلبي يهرول معي على الطريق، تغير شيء عميق بداخلي.
- مز رأسه في كياسة وقال:
- وهذا الفرق بين الناجي والضائع.
- هل هذا حلم؟
- ليس حلمًا ما دمت تصدق أنه قد حدث.
- كيف حدث؟
- كما يحدث مع أي مسافر.
- الوقت لم يتغير! مجرد ساعة واحدة!
- ضيق عينيه وقال في غموض:
- ما يمر هنا كنسمة يمر كعاصفة هناك، همسة أرضية هنا تعدل صرخة في «تروفانتس».
- أرغب في العودة.
- لماذا؟
- تركت رفاقي هناك.
- لا يُمنح الجميع فرصة اللقاء من جديد، بعض الناس يصبحون ذكريات.
- لقد أحببتهم.
- أن تحب يعني أن تتجرع مرارة الفراق، عليك أن تتقبل غياب بعضهم من أن لآخر.

- لماذا أنا؟
- «تروقيانتس» لا تظهر إلا لمن أنهكهم الرُّكض في المتاهات وهم يبحثون عن أنفسهم، وقد نمرض بالعمّة كما نمرض بالبرد والصُّداع، لهذا رأيت الطريق إليها لكي تتعافى من عمتك.
- هل تظنُّ أنني تعافيت؟
- قال وعيناه عامرتان بالمشاعر:
- الآن وقد زرت «تروقيانتس»، مدينة السُّعادة! حيث تترك الأحزان على شاطئ بحر «فاغ».
- وحيث تغسل الهموم في ماء نهرها الفضّي.
- ويباع الألم في الأسواق!
- أكملت وأنا أغالب دموعي:
- ويطعمك أهلها السُّعادة في لقيمات، يخيطنون قلبك، ويضمّدون جرحك، ويهدونك الحبّ بلا مقابل، وكأنّهم نجوم تبرق في السَّماء.
- ها أنت قد فُتنت بسحرها وأهلها يا «ممدوح»!
- وأنت يا سيّدي؟
- متيّم بها، وبما حولها من مدن أخرى.
- أهنالك مدن أخرى حولها؟
- ولكلّ مدينة سرٌّ من الأسرار.
- هل أنت من أهل «تروقيانتس»؟
- بل مثلك مسافر.
- كيف تحصل على البطاقات وكيف تختار من تهديها لهم؟

بُتَ رياح قارسة البرودة فسرت رجفة في أوصالي فقوُست ظهري
مشت وضممت ذراعيَّ إلى جسدي، لاحظ ما أصابني فقال بلطف:
. يبدو أنك تشعر بالبرد يا بني، تناول هذه القهوة.

مدَّ لي يده بكوب القهوة فحملته بكفِّي فتسرَّبت حرارته إليهما، رفعته
فمعي وأغمضت عيني وأنا أرشف أوَّل رشفة منه، وعندما فتحت عيني
أجده أمامي! تَلَفَّت حولي في ذهول، كيف اختفى! أنا حتى لم أعرف
مه!

شعرت بحنين شديد يجتاح صدري تجاه بيتي وجيراني وحياتي
ماضية، أدركت أنها قهوة ممزوجة بالحنين فابتسمت ولاح لي وجه
سَيِّدة «رشاء» على سطح الكوب، أكملت ارتشافها وكلُّ لحظة مررت
بها في المتاهات تمرُّ في خاطري، اخترق أذان الفجر أذني فانتبهت
للمزمان وللمكان، ذهبت للصلاة لعلَّ قلبي يهدأ، ثُمَّ عدت إلى بيتي سيرًا
على الأقدام فقد فقدت حقيقتي بكلِّ ما فيها في «تروفانتس». لم أخلد
إلى النوم وكنت أحدِّق إلى الساعة وأراقب عقاربها حتَّى أشارت إلى
التاسعة صباحًا، لم تتوقَّف خالتي عن الاتصال بي على هاتف البيت،
وكنت لا أقوى على السفر، أخبرتها أنني مريض وعليل لكنَّها أصرَّت
على ذهابي لحضور حفل زفاف ابنها «مروان». أعددت لنفسي كوبًا من
القهوة وجلست بجوار مذياع أبي، فوجئت بجارتي تطرق الباب طرقات
متوالية فقد سمعت صوت المذياع وأدركت أنني لم أسافر، عندما فتحت
لها الباب صاحت:

- «مديحة! إنها تلد الآن!

هرولت معها تجاه قطتي السَّمينة الكسولة التي أوحشتني، جلست
بجوارها على الأرض حتَّى انتهى المخاض ووصل صغارها الخمسة
بسلام، كانت جارتي تبكي وهي تراقب «مديحة» وهي تتألَّم، سبحان من

أودع الأمومة في قلوب الأمهات! تحتل الألم بصدر رحب وكل أنين منها
يفتح لوليدها طريقًا للحياة، وعندما ترى وجهه تنسى كل شيء.

سألتني جارتني:

- ما الذي أصاب جبينك؟

- اصطدمت بمقعد القطار.

- ألهذا عدت ولم تُسافر؟

هربت مني الكلمات، فلزمت الصمت، قالت وهي تشير إلى جبیني:

- أظن جرحك يحتاج إلى التقطيب.

نظرت إلى وجهي في المرآة فوجدت أن جزءًا من جرح جبينني قد
انحلت منه غرزة على أثر اصطدامي بالقطار ويحتاج إلى التقطيب
بالفعل! فتركت القطعة وصغارها في أمانتها، وتوجّهت إلى المستشفى
قبل العودة إلى محطة القطار مرة أخرى لكي أسافر إلى خالتي.



@ART_OF_BOOK

جوجو

انتهى الطبيب من تقطيب جرح جيبني، قال وهو يغطيه بلاصق
لجبي:

- حمدًا لله على سلامتك.

- يبدو أن الطيبة التي عالجتك ماهرة، فالجزء السليم من الجرح
مقطَّب بإتقان، ولكن ما نوع الخيط الذي استخدمته؟

- لا أدري.

- ما اسمها؟

كدت أخبره أنها «الكفُّ الخضيب» لكنني تراجعَت قائلاً:

- ما أذكره أن أصابعها كانت رفيعة وشديدة البرودة.

ضحك الطبيب وخرجنا من الغرفة معاً، ودَّعته وسرت في ممرات
المستشفى ورحت أتأمل وجوه المرضى، وددت لو استطعت شراء الألم
منهم وبيع السكينة وراحة البال لهم، ولكن أنى لي أن أجدهما الآن
في نفسي؟ أو لو ملكت أن أعجن الخبز بالسعادة والكعك بالضحكات
وأوزعها عليهم فأمسح الحزن عن ملامحهم! وقفت أمام باب المصعد

وضغطت على الزر لأستدعيه وأغمضت عيني فتناهى إلى مسامعي
صوت غناء...

يا إلهي! إنها «جوجو»! هذا صوتها!

هرولت في الممر وسط اندهاش الممرضات وسألتهن عن مصدر
الصوت فأشرن إلى النافذة في نهايته، فوقعت عيني على كرسي مدولب
عليه فتاة صغيرة تعرّفت عليها في الحال، إنها هي «جوجو»!

اقتربت وقلبي يعتصر بين أضلعي...

لهذا فرحت بالجنّاحين في «تروقاتنس»!

ولكن ماذا لو كنت وأهّما ولم تعرفني؟

قررت ألا أبدأ بالكلام، وقفت بجوارها فتوقفت عن الغناء ورفعت
رأسها نحوي، تلاقت نظراتنا فشهقت وقالت:

- حقيقة!

أخرجت رسمتها من جيب معطفي وقلت لها:

- حقيقة!

تناولتها وضمتها إلى صدرها وقالت والدموع تسيل من عينيها:

- لم تصدّقني أمي. أحضرتني للطبيب الذي يتابعني ليرشدنا لطبيب
نفسي مناسب.

- هل أخبرتها بما مررنا به؟

- اختفيت من فراشي بالبيت نحو ساعة ثم عدت وكأنني لم أغادره،
كان الجميع نائمين ولم يشعر أحد بغيابي، لاحظت أمي اتساخ
قدمي فسألتني عن السبب، وعندما أخبرتها أنني كنت أركض مع

سبع فتيات في مدينة «تروفانتس» لم تترك لي الفرصة لأكمل
كلامي! ظننت أن بعقلي شيئاً فأتت بي للطبيب!

- ووالدك؟

نكست رأسها وقالت بصوت مبطن بالحزن والألم:

- مات أبي بعد إصابته في حادث منذ عام، كنت معه وصرت هكذا...
كأبناء «لاش»!

أشارت إلى ساقها فقالت:

- رحمه الله. لا ريب أنك كنت شديدة التعلق به.

تلقت ثم همست:

- قضى ليلتين قبل أن يفارق الحياة، أحزنه ما أصابني، كلماته الأخيرة
لي لا تزال تتردد في رأسي: «أنت وحدك الآن، لن يعبر الظلمة سواك».
- ماذا! هل قال شيئاً آخر؟

- نعم، قال: «كوني مُحاربة، فتلك المعارك كُتبت لك وحدك، من
اتكأ على الآخرين سقط قبل الوصول، لا تستعيني إلا بالله، ثم بما
تبقي فيك من قوة لم تجرئي يوماً على الاعتراف بها».

- يا إلهي! لقد سمعت صوته يدوي في متاهة المرايا بالكلمات
نفسها! أطلقه ليدور في جنباتها للأبد، ويكون إشارة للعابرين
مثلي حتى لا يضلوا.

- ليتني كنت معك.

هزت رأسها وأضافت بصوت يحمل الحنين والألم:

- أخبرني أبي أنه زار مدينة «تروفانتس» من قبل، وكان يصفها
لي ولأمي لكنها لم تصدقه، لقد مرّ بمتاهة المرايا مرّات ومرّات،

ابتسمت وأنا أقدم نفسي لها:

- «ممدوح» طبيب بيطري.

- وأنا «لمياء» وهذا ولدي «أيمن».

- مرحبًا بكما.

كدت أنصرف لكنني توقفت وقلت وأنا أرنو تجاه «جوجو»:

- وددت أن أهدي ابنتك قطعة صغيرة أنجبتها قطبتي حديثًا فهل

تسمحين لي؟

تبادلت النظرات مع «أمواج» وكانتا تبتسمان، قالت أمها بامتنان:

- هذا رائع يا دكتور، لنلتقي لاحقًا وحتى ذلك الحين سنفكر في

اسم لها.

- لديها اسم بالفعل.

- وما هو؟

- «جوجو».

أمسكت «جوجو» بيدي وقالت بصوت مزق شغاف قلبي:

- ستكون تلك القطعة بمنزلة أجنحة خفية أحلق بها في البيت. شكرًا

لك يا دكتور.

تبادلنا أرقام الهواتف، وخرجت من المستشفى وقد تركت قطعة من

فؤادي مع «جوجو»، تذكّرت صوت أبيها وهو يرشدني في متاهة المرايا،

وكيف طلب مني أن أترك صوتي لمن سيدخل المتاهة بعدي، وألا أعود

إليها أبدًا!!

كان لقائي «جوجو» بريق أمل لرؤية «مازن» و«رُميساء»، توجهت

لأقرب متجر للهواتف لأبتاع هاتفًا جديدًا وأستخرج شريحة أخرى فقد

حتى إنه أخبرني عن خبايا أخرى لم نرها هناك، كان في رفقة
أحد أشقاء الأمير «السُمهري» في رحلات عجيبة تخص جزيرة
«هاينان» وما تحتها من أسرار وعجائب وغرائب، ومملكة تحت
البحر نسيت اسمها.

صمتت هنيهة وقالت وعلى شفيتها ترتعش ابتسامة:

- أحببت أجنحتي!

- أنت هكذا أفضل لأنه اختيار الله لك.

- ما زلت أذكر ما وصفت به «غيداء»، «كريمة الساقين»!

- وأنت كذلك.

- ترى ما الشيء المميز الذي أملكه ولا يملكه الآخرون كأبناء «لاش»؟

- يكفي أنك «جوجو»!

ظهرت أمها فجأة، كانت تسير وبجوارها شاب علمت من ملامحه أنه
شقيق «جوجو» فهو يشبهها كثيرًا، همست «جوجو» وهي تخفي رسمة
التنين في حقيبتها الصغيرة:

- لا تقل شيئًا عن «تروفانتس»، لن يصدقونا! سيصفونك بالجنون.

وقفت أمها تطالعني في قلق فقلت لها:

- سمعت صوتها وهي تغني!

- «أمواج» فتاة صالحة.

- «أمواج»! اسم مميز!

- اختار أبوها هذا الاسم لها، لطالما عشق البحر، كان يقول إن
خلف كل موجة سعادة مخبأة، وإن أعماق البحر تحتضن أسرارًا
لا نهاية لها.

ضاع هاتفي في «تروفانتس»، سألني البائع وهو يراني حائرًا في اختيار ما يناسبني منها:

- هل لديك هاتف قديم ترغب في بيعه وتستطيع حينها إكمال سعر الهاتف الجديد؟

- ضاع هاتفي.

- يا للخسارة!

قالت عجوز كانت تقف بجواري:

- أرجو ألا تكون قد تركت عليه صورًا تخصك أو وثائق وأسرارًا قد تندم على تسريبها، فقد صار بيع محتويات الهواتف مصدرًا لدخل بعض فقراء النفوس.

- لتطمئنّي يا خالة فأنا حريص في تعاملاتي على الإنترنت، أدفن كل أسراري في مقبرة للأسرار هنا برأسي.

منحتني العجوز ابتسامة حانية، وكان البائع متضررًا من كلامها وظلّ يُردد أنّه أمين ولا يفعل هذا أبدًا، منحها سماعة لهاتفها فخرجت، أما أنا فتخيّرت أخيرًا هاتفًا مناسبًا وخرجت من المتجر فوجدتها تستقل حافلة عليها شعار دار للمسنين!

مرّت الحافلة من أمامي فلاح لي وجه «نديم» من خلف النافذة فسقط قلبي بين أضلعي!

«نديم»! ظننته من سكان «تروفانتس»!

ركضت خلف الحافلة لكنّها ضاعت مني وسط الزحام فركبت سيارة أجرة وطلبت من السائق أن يُقلّني إلى تلك الدار، عندما وصلت كانوا قد نزلوا جميعًا من الحافلة، بعد لقائي المسؤولين علمت أنّه يقيم هنا منذ

ات، فهو وحيد ولم يتزوج وليس له أبناء ليعتقوا به، ومصاب بداء
ف، قالت المديرية بينما كنا نراقبه من بعيد:

- كان ماجناً في شبابه، جيرانه أخبرونا بذلك عندما أحضروه، ليس
فقير المال لكنه فقير الأحباب، ذاكرته تتأكل لكن بصيرته تنفتح
لحظات كنافذة مفاجئة! يقول أشياء مدهشة عن الشباب والمرح
والحب، الذي يدنو من الموت يصير شفافاً أكثر من اللازم ويرى
الأعاجيب.

سمحوا لي بزيارته وكان يجلس بجوار النافذة وهو حالم يصبو
إلى أفق لا يراه الناس حوله، عندما جلست أمامه لم يلتفت وكأنني غير
موجود، قلت وأنا أرجو أن يتذكر أي شيء عن مدينة «تروثانتس»:
- سيد «نديم» كيف حالك؟

التفت نحوي ببطء شديد وطالعتني بنظرة خاوية ثم قال:
- بخير.

- هل تذكرني؟

أطال النظر إلى وجهي وقال:

- تبدو عيناك دافئتين وكأنني أعرفك!

جلست أمامه وغصت في عينيه لأفتش عن «نديم» الذي عرفته فلم
أجده، قال بصوت واهن:

- من أنت؟

- كنا على خلاف وكنت غاضباً مني.

- أنا؟

- نعم.

سألني في تردد:

- هل أذيتك؟

تحسست لاصق الجرح على جبيني وقلت له:

- لم تؤذني.

رفع رأسه وسألني:

- هل أنت من أقاربي؟

- لا.

- ما اسمك؟

- «ممدوح».

- هلأ ذكرتني أين التقينا؟

- «أرض الزعفران»، «تروفانتس»!

لمعت عيناه ودبّ فيه نشاط مفاجئ، شعرت لوهلة أنّ «نديم» الذي

التقيته استيقظ للتوّ، قال في انفعال:

- «تروفانتس»! مدينة شبابي الضائع، كنت...

توقّف فجأة وكأنّ لسانه علق أو نسي الكلام ثمّ قال:

- أذكر أنني فعلتُ هناك شيئاً جعل الناس يخضعون لي، أحسّ أنني

ارتكبت شراً عظيماً! لكنني حين أحاول أن أتذكره يذوب.

- الذكريات الثقيلة تسقط أولاً.

- وكأن عقلي يختار أخفّ الأحمال ليبقى صامداً!

- هل تشعر بالندم؟

رفع رأسه في أنفة وقال:

- الندم شعار الضعفاء حين يخافون من الماضي، وأنا لا أخاف من الماضي، أنا فقط لا أستطيع الإمساك به.

- كنت قاسيًا.

لَوْحَ بقبضته في الهواء وقال:

- العالم لا يلين إلا لمن يكسره.

- ويلين للرحماء.

هز رأسه في انفعال وقال:

- أشعر كأنني ضيَّعت شيئًا مهمًا.

أشفقت عليه وأنا أتأمل حاله، فمسحت على رأسه وقلت له:

- لا بأس! لا يزال هناك وقت، سأزورك من آن لآخر.

عانقته فبكى على كتفي وطال عناقنا. كان عليّ أن أنصرف، عندما وصلت إلى باب غرفته قال بصوت منكسر:

- الوحدة ليست غياب الناس، بل هي أن تبقى أنت في عالم وذكرياتك في عالم آخر.

التفت نحوه فوجدته يقف وينظر إليّ كما كان ينظر إليّ في «تروفانتس»، وكأن يقظة لحظية لذهنه قد وقعت! قال وهو يقيم ظهره:

- كنت على صواب يا «ممدوح»!

أشاح بنظره فجأة وكأنه غطس من جديد في محيطه الغامض، وعاد إلى جلوسه وشروده نحو النافذة وكأن شيئًا غادره للتو. انتبهت للساعة وكنا عصرًا فأدركت أنني تأخرت، وكان هاتفي يرقص في جيبي فرسائل خالتي على الهاتف لم تنقطع، هاتفتها فأخبرتني أن حفل الزفاف تأجل لظرف طارئ، فحمدت الله وعدت إلى بيتي.

جبل أم شومر

المطر يهطل بغزارة، كنت أراقب السماء وأنتظر أن تلوح لي كلمة «تروقانتس» مرّة أخرى، جلست على الفراش حين خطر ببالي فكرة وهي أن أبحث عن حساب «مازن» على شبكات التواصل الاجتماعيّة، واستطعت بعد بحث قصير أن أصل إلى حسابه، سررت عندما رأيت صورته تضيء شاشة هاتفي، حاولت الاتصال به من خلال أحد التطبيقات فلم يُجِبني، كان الفضول ينهش عقلي، في أوّل ساعات عودتي ها قد التقيت «جوجو» نهارًا، والسيد «نديم» عصرًا، ترى أين «مازن» و«رُميساء»؟ وهل هناك مسافرون إلى تلك المدينة لم أنتبه لوجودهم مثل السيد «نديم»؟

بدأت البحث عن حسابات «رُميساء» فوجدت المئات بالاسم نفسه ولم أجدها بينهم، وعندما يثست تركت الهاتف، لكنّ هاجسًا ظلّ يتلجّج في صدري، لم أتمكّن من إزاحته من رأسي، اتصلت بـ «جلال» الذي سعد بسماع صوتي وقلت له:

- أخبرتني أنّك تستطيع توصيل أيّ شخص بسيّارتك إلى أيّ مكان يطلبه، أليس كذلك؟

- بلى يا دكتور!
- سأنتظرك بعد نصف ساعة.
- الآن؟
- وبسرعة.
- أين سنذهب؟
- جنوب سيناء.
- ولكن... الساعة الآن السادسة مساءً، لنتنظر للغد.
- سأعطيك ضعف ما تطلبه.

تعالى صوت الصَّفير من مذياع السيارة، إنها الثانية بعد منتصف الليل، البرد قارس والظلام حالك، كنَّا على الطريق إلى حيث يقع جبل «أم شومر» الذي كان «مازن» يتسلَّقه، فقد وقع في نفسي أنه عاد إلى اللحظة نفسها التي انتقل فيها إلى «تروفانتس»، طوال الطريق كان «جلال» يسألني عن سبب زهابي وكلُّما أخبرته أنها رحلة سياحية كان لا يرضى بتلك الإجابة فأغمضت عيني حتى وصلنا، فقد اكتشفت أنني لم أنم للحظة واحدة منذ عودتي! وصلنا نهارًا بعد ساعات سفر طويلة، وخرجنا في الحال مع مرشد وخبير يحفظ طوبوغرافية المنطقة كما يحفظ الحروف الأبجدية، وأصرَّ «جلال» على مرافقتنا، كان يعلم أنني أبحث عن «مازن» ولكن من هو «مازن»؟ هذا ما كان يشغله، وكنت قلقًا فقد مرَّ يوم كامل منذ عودتي من «تروفانتس»!

لم أجد «مازنًا»، ولم أعر على تلك البقعة التي التقينا بها، شعرت بضيق شديد في صدري. أخبرني المرشد أن هناك شابًا سقط ولقي مصرعه أمس فهوى قلبي، اتفقنا على النزول والرجوع إلى المستشفى

للتأكد من اسمه! وقفت أتأمل الجبل، بجملة النظر فلمحت الصخرة الكبيرة والصدع تحتها فقال المرشد:

- من المستحيل أن يكون هناك، ولو وصل إليها فهو هالك لا محالة.
أصابني اليأس، مرّت بنا مجموعة من هواة التسلّق وعندما علموا
قررنا مرافقتي فذهبنا إلى تلك البقعة، ورأيت! كان
معلّقاً من ساقه كما كان عندما التقينا، صرخت منادياً بجنون
فلم يجبني، ظننته ميتاً وكانت كلُّ ذرة في جسدي تختلج، استدعى
المرشد فريق الإنقاذ، وعندما وصلوا إليه وانتشلوه واستطعت أخيراً أن
ألمسه بلحمه وشحمه فتح عينيه ونظر إليّ في هوان ثم قال:

- كنت أعلم أنك ستأتي.
- ألم أخبرك أنني سأبحث عنك؟
أسند رأسه على صدري وهمس بخفوت:
- لم يكن حلماً! أليس كذلك؟
- بلى. لم يكن حلماً يا صديقي.
ضممته إلى صدري واختلطت ضحكاتي بدموعي، وكان «جلال»
يقلّب كفيه في حيرة وهو يُراقبنا.



@ART_OF_BOOK

زفاف «مروان»

لم أرفع عيني عن وجه خالتي فقد كانت شديدة الشبه بأمي، وكانت
تبتسم في كل مرة تتلاقى أعيننا وتلوح لي في فرح، ها هو «مروان» ذلك
البائس المتنمر يتزوج!

كانت الأجواء تختلف عن زفاف «السُمهري» و«الكفّ الخضيب».
شعرت بحنين شديد إليهما، وإلى دفء عائلة «سُهيل» و«زهير»، ما
زلت أذكر مذاق القهوة الممزوجة بالحنين، وكعكة الضحكات الصاخبة،
ابتسمت رغماً عني. كان المدعوون يمرّون من أمامي وأنا شارد عنهم،
قلبي يُحلّق في رحاب آخر، ونفسي لا تزال تجوب في متاهات الحياة.
رحلتي إلى تلك المدينة لقنتني درساً بليغاً، صرت أحسب وقتي بالدقيقة،
ندمت على كل لحظة ضيعتها في حزن أو خوف أو ندم على أقدار لا
حول لي في جريانها، لا يزال قلبي مشغولاً بـ «رُميساء» تلك الفتاة
مرهفة الحسّ ذات العينين الرائقتين كالمحيط، التي تنساب إليها أوجاع
الآخرين فيفيض قلبها بالرحمة كنهر جارف، كان وجهها الملائكي لا
يُغادر ذاكرتي، حين كانت تبتسم بلطف وكأنّها وردة تتفتح وريقاتها
على استحياء، وحين تبكي فتتورّد وجنتاها المخمليتان، ترى أين هي
الآن؟

أغمضت عيني لوهلة وعندما فتحتهما وجدتُها أمامي فخفق قلبي!
كيف هذا!

للمت شتات نفسي بصعوبة، وكنت أسير نحوها مضطربًا وقد
ترنّحت أعطافي، اقتربت منها وهي تتطلّع إليّ في ذهول، همست باسمها
وكانت حروفه تخرج من فؤادي لا من فمي:

- آنسة «رُميساء»!

- دكتور «ممدوح»!

أشارت إلى جيبيني وسألتني:

- ما بال جيبينك؟

- جرح بسيط!

رفعت يدي ولمست جرح جيبيني دون وعي منّي، تذكّرت جرح كتفها،
أردت أن أطمئنّ عليها فأخبرتني أنها أسرعَت إلى المستشفى عندما
عادت وخضعت للعلاج، وأنّ من لطف الله أنّ خالتها لم تكن بالبيت
حينها. سألتها وقد بدأ جرح قلبي يتعافى برؤيتها:

- لماذا لم تعودي إلى «تروفانتس»؟

- وددتُ ذلك، لكن أمر الظهور والاختفاء ليس بيدي، وفي آخر مرّة
حملت فيها ألم فؤادك انفطر قلبي ولم أنتقل إلى «تروفانتس» مرّة
أخرى.

- أين كنتِ تختفين؟

- في البيت! عندما أخلد إلى النوم كلّ ليلة أنتقل إلى «تروفانتس»،
وعندما أبكي هناك أنتبه فأجد نفسي وقد عدت إلى البيت، أتذكّر
كل شيء هنا! لكنني أنسى الكثير من الأشياء عندما أعود إلى
«تروفانتس»!

- هكذا إذا!

رفرف فوق رأسينا صمت لطيف قطعته بسؤالها:

- هل أخبرت أحدًا عن «تروفانتس» بعد عودتك يا دكتور؟

- لا. لن يصدقوني.

- وكذلك أنا، خشيت أن يصفوني بالجنون. كنت أغيب أحيانًا لدقائق،

ومهما غبت لا يتخطى غيابي الساعة الواحدة مهما طال مكوثي هناك.

- أتدرين ما يعني هذا؟ أننا قضينا ساعة واحدة معًا.

- لكنّها بتوقيت «تروفانتس»!

راقنتني كلماتها فقلت:

- زمنٌ صغير هنا، لكنه يُقاس بأقدار لا تُحتمل هناك!

مرّ من بيننا بعض المدعوّين فبُتر الحوار، عادت تسألني بفضول:

- ما الذي حدث بعد غيابي؟

- عاد كلُّ شيء هناك إلى نظامه، كان الوقت هو الأحجية التي علينا

حلُّها، الوقت يتسلل من بين أصابعنا ونحن غافلون عنه، نبعثره

في حماقات كثيرة.

اتسعت عيناها وكأنّها تنبّهت لشيء فسألتنني:

- ماذا فعلت «جوجو»؟ هل هي بخير؟

- بخير. التقيتها هنا وسأعطيك رقم هاتفها.

لم أخبرها عن حال «جوجو» وكأنني أخشى أن تبكي لأجلها فتذوب

من البكاء مرّة أخرى وتختفي من أمام عيني! عادت تسألني:

- و«الغميصاء»؟

- هلكت وقومها، أحرقتهم «العنقاء»!

لمعت عيناها وهي تقول:

- وددت لو رأيتها بأُمّ عيني.

مكرّم الله والدي

- من المحال اجتماعكما! إما أنت وإما هي. والآن أخبريني، لماذا أنت هنا؟

- العروس ابنة عمي.

- لا تمزحي، زوجة عمك التي كانت تؤذيك وحلقت شعر رأسك وقتلت قطتك وأنت صغيرة صارت حماة «مروان» المتنمر البائس!

- يبدو هذا!

- ستأثر خالتي لك بطريقتها الخاصة.

ابتسمت في وداعة، كنت قد أعددت الكثير من الكلمات المرتبة والمنمقة لأقولها لها عندما أراها لكنني وجدتني أقول ببلاهة:

- أنا شاب بسيط، ولا أملك إلا راتبي، وأظنك تعرفين خبايا نفسي وأوجاعها، فهل تقبلين الزواج بي؟

صمتت هنيهة ثم قالت في رصانة:

- هل ترى ذلك الرجل الأنيق الذي يجلس في زاوية القاعة؟

رنوت إلى حيث أشارت فرأيت رجلاً في عقده السادس له شعر فضي ناصع، تحمل ملامحه آثار السنين بعزة وكرامة، كان يرتدي سترة رمادية داكنة تعكس ذوقه الرفيع، مع ربطة عنق أضفت لمسة رسمية متزنة على مظهره، همست قائلاً:

- أجل أراه.

- ذاك عمي، أسرع وتحديث إليه قبل أن تعود زوجته.

استعدت للانصراف وقالت قبل أن تبتعد:

- لا تخبره عن «تروفانتس»! فلا أحد سيصدق بوجودها.

أدركت أنها قد وافقت للتو، تسارعت دقات قلبي بجنون، اختفت عن
بني بلطف، كما كان ظهورها أمام عيني بلطف، سرت نحو عمها وأنا
نخبط في ارتباك.

المنصورة

ثمة لمسة من السعادة ترفرف بالمكان، جاءت رائحة الزهور كهديّة
لحواسي، خالتي هناك تطوف بالجميع تنثر البهجة وتملأ المكان
بالضحكات، وكلما مرّت بي كانت تُفرق خدي بالقبلات. اقتربت «رُميساء»
وكأنّها قمر يتأبط ذراع عمها فقارت براكين السعادة في داخلي، بدا
فستانها الفضفاض أقرب إلى أسطورة منسوجة لا إلى ثوب يُرتدى،
انسدل أبيضه الناصع كأنه ضوء نقيّ نسج في رداء، أنيق مخمليّ كأن
النجوم خبأت أنفاسها فيه وتسرّرت، تعانقت نظراتنا فشعرت بوجيب
قلبي يزداد، اختلج جسدي، وضع أخي يده على كتفي فغمرني الدّفء
والأمان، رأيت في عينيه نظرة الفخر نفسها التي كانت تسكن عين أبي،
كان لعودته أثر عميق في نفسي، أمّا «مازن» فوقف على الجانب الآخر
وهو يكاد يطير من السعادة. اخترنا أن يكون الزّفاف نهارًا في حديقة
مفتوحة، نجتمع وحسب وحولنا أحبابنا ونتناول الطعام. تفتّحت حديقة
أخرى بين أضلعيّ فيها هي «رُميساء» بين يديّ، احتضنت كفّها الرقيقة
وكانت ترتجف، اختلطت نفسي بنفسها فما عدت أعرف أين أنا، تسلّلت
لعينيها دمة فالتقطتها بأطراف أصابعي وهمست لها:

- لا تبكي يا فتاة! ستذوبين!

- ليس بعد الآن.

رشحت السعادة في نفسي، قلت أمازحها:

- كيف قبلتِ بالزّواج بي بأنفي هذا؟

- هذا أنف قائد. اسألني أنا!

- وبأذني هاتين؟

أشرقت عيناها وهي تقول:

- كل صنيع الله جميل!

كان «مازن» يثرثر مع أخي وكأنهما صديقان منذ وقت طويل، شعرت وأنا أراقبهما أنني اكتسبت أخًا آخر، لا يزال يمزح كعادته دون أن تتغير ملامح وجهه، وأبناء أخي بجواره يُقهقهون على ما يقوله لهم. أمّا «جوجو» فكانت مشرقة كزهرة بريّة لا تشبه مثيلاتها، وكأنّها أميرة تجلس بين الحضور بفستانها الأبيض الموشى بالورود البارزة، قرّرت عيني عندما رأيته بجوار أمّها تبتسم في وداعة وتلوّح لي، أهدتها «رُميساء» باقة الورد ولثمتها على جبينها حيث كانت تبدو المتاهة لنا باستمرار. انتهى الحفل وعدت إلى بيت أبي حيث قررت أن أسكن مع زوجتي، امتلأت أركان البيت برائحة جديدة، رائحة الحب!

وثبت «مديحة» بجواري على الأريكة وبدأت بالمواء وتبعثها صغيراتها، ضحكتُ عندما غارت «رُميساء» منهنّ، فقد أرادت أن تجلس بجواري، وهي لا تعلم أنّها الوحيدة التي تتربّع على عرش فؤادي.

تروفانتس

استيقظ «سُهيل» ووثب من فراشه، لقد رأى حلمًا جميلًا! صاح في

سعادة:

- لقد تزوّج!

أيقظ شقيقاته السبع لتفتح في بيتهم حديقة غناء، الأعين كالورود مشرقة في سعادة، صفقت السيّدة «رشاء» وأطلّت بوجهها القمري

النافذة وكانت جارتها تنتظرها لتتشاركها تفاصيل الحلم، خرج
«سمهري» من قصره وركض بجواده في الطرقات وهو يصيح في
عادة و«القيثارة» تراقبه من شرفة القصر، بينما شباب «تروفانتس»
فتحون النوافذ تباغًا ويصيحون وهم ينادون بعضهم بعضًا في سعادة،
حتى أبناء «لاش» خرجوا على كراسيهم يدفعون عجلاتها والفرحة تطلُّ
من أعينهم، صاح «سهيل» وهو يقف أمام ساعة الفيل:

- لقد تزوج «ممدوح»!

قالت فتاة لطيفة من فتيات «لاش» في خجل:

- لقد تزوج بالفتاة التي تذوب من فرط البكاء.

توالت الأصوات تباغًا لتنتقل السعادة على أطراف ألسنتهم وهم
يقولون:

- «رميساء»!

- رأيتم كيف ينظر إلى عينيها بعشق وهيام؟

- «مازن» كان هناك أيضًا.

- هل تزوج هو الآخر؟

- لا يبدو ذلك!

- لعله تقدّم لخطبة فتاة ما!

- رأيتم «جوجو» يا إلهي! إنها من بنات «لاش»!

- كانت ترتدي ثوبًا جميلًا.

صاحت امرأة وهي تضحك:

- هل رأيتم «مديحة»؟

تعالت الضحكات والقهقهات، زارت السعادة ملامح الجميع، ورقصت
القلوب طربًا لزواج الشاب الطيب الحالم الذي خاض المتاهات من أجل

أبنائهم فأعاد إلى قلوبهم السعادة من جديد، وفتح أبواب نفسه المغلقة
بابًا تلو الآخر ليعود إلى نفسه، الآن استطاع أن يهمس لعروسه بحبه،
سكن إليها وسكنت له، همس لها وهو يبتسم:

- ما رأيك أن نتناول معًا قهوة ممزوجة بالحب!

وفي ليلة من ليالي الشتاء الباردة...

على رصيف محطة قطار منسية، حيث السكون يشبه صمت
المكتبات القديمة حين تنام الكتب، وعندما تتردد عقارب الساعة الكبيرة
المعلقة على الجدار في اتخاذ القرار، كان هناك شاب عشريني يجلس
شاردًا وقد رست قوارب الهموم على صدره، تنهد بعمق ثم ألقى تذكرة
القطار في يأس خلف ظهره، ومضى وهو يجر قدميه في انكسار،
فالتقطها رجل أشيب الشعر بيد أنه مفعم بالحياة وهرول خلفه، دار
بينهما حوار قصير، ثم دس في يده بطاقة من الورق المقوى عليها
صورته واسمه، وبجوارهما مكتوب: اسم غريب لمدينة عجيبة تقع في
زاوية نائية من الزمن...

رفع عينيه فلمح الرجل يقفز بخفة إلى مقطورة قديمة ترسو على
طرف الرصيف كأنها سفينة غارقة صعدت من أعماق المحيط للتو،
وما زالت قطرات الماضي تتشبث بجوانبها، خشبها الداكن المتشقق
يطلق من بين ثناياه شرًا فضيًا ساحرًا، صعد الشاب على متنها ليتبع
هذا الغريب فانسحب العالم خارج النوافذ مثلما تُسحب الأوراق من قلب
الدفاتر، في تلك اللحظة بدأت المقطورة تلتهم الدقائق بشراهة، وتعيد
صياغتها لتصنع زمنًا جديدًا يخص هذا الشاب...

يخصه وحده!

- تمت -

شكر وعرفان

شكر وتقدير وعرفان بالجميل للأفاضل والفضليات:

- | | |
|------------------------|------------------|
| - د. أحمد السعيد مراد. | - يوسف طارق. |
| - خالد جمال. | - علي حسين. |
| - أحمد محمود زيادة. | - راينا كاريوني. |
| - نفحات الصياد. | - الشيماء أحمد. |
| - ميادة محمد. | - بناز ناريمان. |
| - ياسمين قنديل. | - إسراء الشقيري. |
| - مرام محمد. | - هبة زعيمي. |
| - أسماء محمد لبيب. | - لبنى محمد. |
| - أمينة منار. | |

کتابخانه جامعہ اسلامیہ

کتابخانہ جامعہ اسلامیہ، لاہور



@ART_OF_BOOK

كيفية عمل ساعة الفيل

